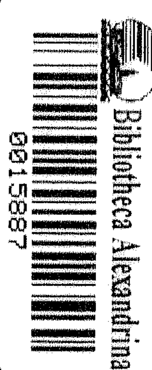
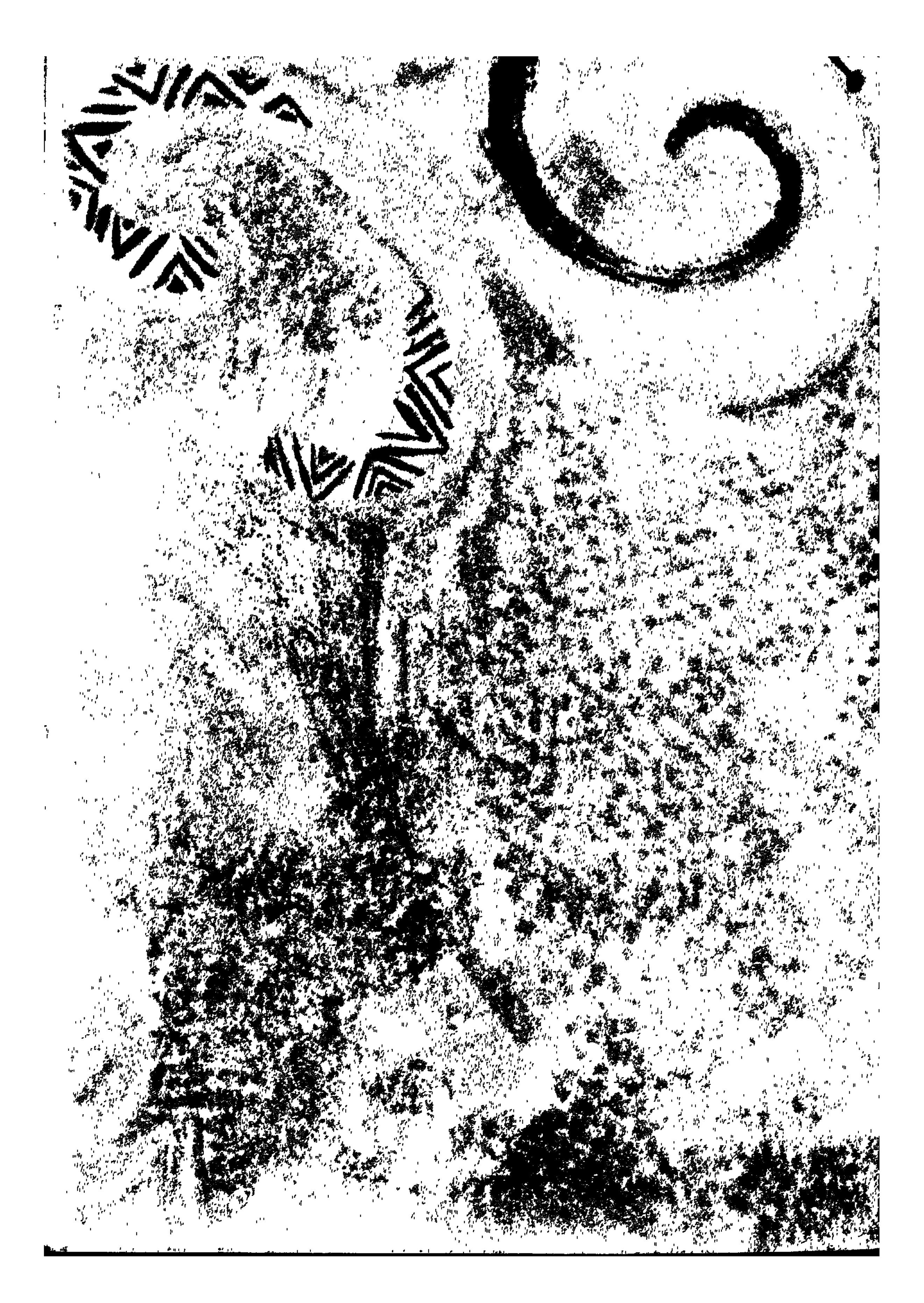






الطبعة الأولى

١٤٠١ هجرية
١٩٨١ ميلادية

الجمهورية العراقية
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
سلسلة الكتب الحديثة

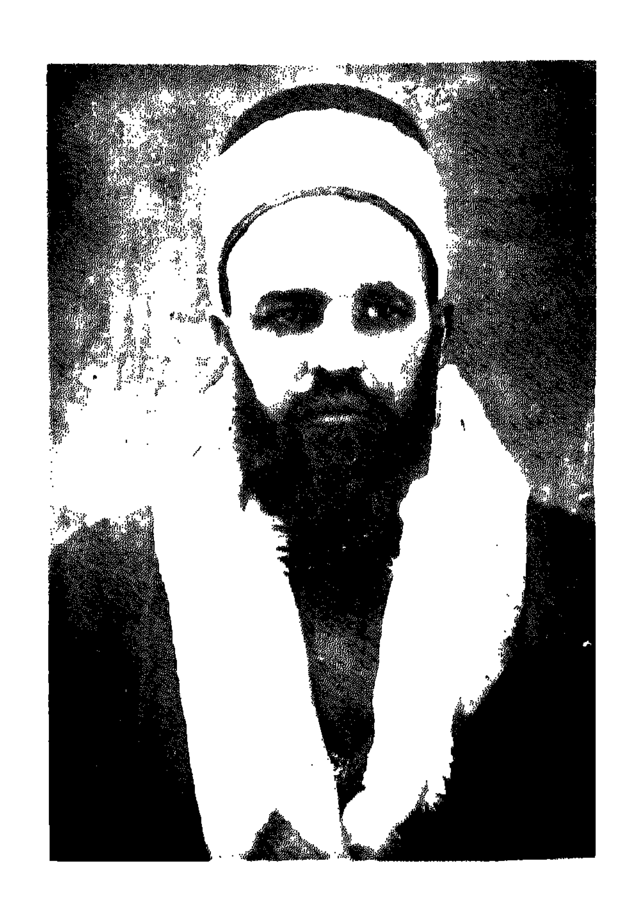
٢٠

من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة

الشيخ محمد أمين الشنقيطي
١٢٩٣ - ١٣٥١هـ / ١٨٧٦ - ١٩٣٢م

تأليف
عبد اللطيف الدليشي الخالدي

الكتاب العشرون



فضيلة الشيخ
محمد أمين الشنقيطي
غفر الله له
(١٢٩٣-١٣٥١هـ/١٨٧٦-١٩٣٢م)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

كانت البصرة في العهد العثماني الأخير، خلال القرن الرابع عشر الهجري، وأواخر القرن الثالث عشر، تتنازعها - كسائر مدن العراق - عوامل شتى محتدمة في صراع مرير عنيف، حيث الجهل الشديد الشامل، الجهل بكل نواحي الحياة، العلمية، والفكرية، والدينية، والصحية، والاجتماعية، وغيرها. وكانت الأمية الصفة السائدة بين الناس، والأوهام والخرافات معتقدات حشرت حشراً باسم الدين، والجمود مستولياً على العقول، والخوف - وهو صنو الجهل - آخذاً بالقلوب، والتسلط على الضعفاء، وعلى الحريات، وعلى الأموال شائعاً في كل مكان. فلا علاج إلا بالرُّقىٰ والتمائم، والختم والعزائم، وتقديم القرابين والنذور للمقامات والأولياء للحماية من ضر المردة والجان. ولا أطباء الا شيوخ الطرائق، والدراويش، والسَّحَرة، ولا أساة الا الحلاقين والمجبرين، ثم آخر الدواء الكي. على أن الأمراض الوبائية الفتاكة كانت تكتسح المحلات والقرى برمتها، فلا تبقي ولا تذر، حيث الجدري، والهيضة، والطاعون، والملاريا، وغيرها، تفتك في الناس فتكاً أشد هولاً من فتك الحروب، فتذهب بالأرواح، وتشوّه الأجسام، وتذهب بالأبصار.

أما الأمن فمفتقد بتاتاً، حيث عصابات اللصوص تسطو على

البيوت، أو تقطع الطرق وتسلب المارة، في وضح النهار، ومختارو القرى، ومشايخ العشائر، حكام متنفذون، يضربون، ويسجنون، ويعذبون، ويأخذون الأثاوات، وبعضهم يشارك اللصوص والمهربين. وكل هذه الأزمات كانت تنذر باندلاع شر مستطير، فكانت الحرب العالمية الأولى التي هزت الضمائر، وقلبت الأوضاع، وغيرت نظم التاريخ، وخرائط الأقاليم والبلدان، كانت على الأبواب.

وفي هذا المحيط المتخبط في دياجير الجهل، وظلمات الحيرة، كانت هناك ذبالات تضيء الطرق، وشموع تذوب وتحترق، لتنير العقول، وتحرر الأفكار، وترسم المثل العليا للناس. كان في الميدان نفر من رجال الدين نذروا نفوسهم لله، واندفعوا، يحاربون جيوش الجهل السوداء المنتشرة في كل مكان، والمتأصلة في النفوس، والحياة.

كان هؤلاء جنوداً يستمدون تعاليمهم من الاسلام الصحيح، حيث لا خضوع الا لله، ولا خوف، ولا رجاء إلا من الله، كانت لهم كتاتيب، وحلقات دروس، ومدارس تخرج بها عدد غير قليل ممن حملوا لواء العلم والحرية، وبثوا في مواطنيهم روح التطلع الى النهضة الفكرية الدينية، التي غذت العقول بشتى العلوم والفنون المرتكزة على قواعد الاسلام الصحيح حيث لا جمود ولا إلحاد، حتى إذا مضت سنون قليلة وإذا بطلابهم يحملون ألوية هذه النهضة، ويبشرون الأمة بنور العلم والمعرفة، فيكون منهم العلماء، والأدباء، والشعراء، والأطباء، والمحامون، والمدرسون، والمربون، والحكام، والقادة، والسياسيون.

وكانت البصرة يوم ذاك محط أنظار كثير من هؤلاء العلماء القادة المفكرين، الجوّابين، الذين قصدوها من مختلف البلاد العربية

والاسلامية، لينهضوا بها في مجالات الفكر الديني، والعلمي، والأدبي، فيؤسسوا المدارس، ويوقظوا الهمم بالوعظ والارشاد. لذا أردنا أن نعقد فصولاً للتعريف بهم تحت هذا العنوان، حيث لم يذكر الكثير منهم أحد، ولم يشد بفضلهم مؤلف، ولم يعرج على ذكرهم شاعر أو كاتب، ومن حقهم على الناس والأجيال، والبلاد التي اتخذوها ميادين لكفاحهم في نشر العلم والفضيلة، أن يشاد بفضلهم، ويخلد ذكرهم، ولم يكن أحد من هؤلاء مدفوعاً بطلب المال، أو الجاه والشهرة، بل على العكس من ذلك كانوا يعيشون عيشة الزهد والكفاف، متعرضين لسخط الجاهلين وجور الحاكمين، ومقاومة تيار العماية الجارف، وقد أردت أن أبدأ بأحدهم، وهو الشيخ محمد أمين الشنقيطي. هذا العالم الفاضل، الراسخ العقيدة والايمان، والذي لا تأخذه في الله لومة لائم. هذا الجهبذ الذي حارب الجهل والبدع والضلالات، فاستثار حفائظ الحاسدين، والجامدين، والحاقدين، ممن ألبوا عليه العوام، وأغروهم بضربه وإهانته، إلا أن ذلك كله لم يثنه عما هو بسبيله من دعوة لله، ونشر للإسلام الصحيح، المجرد من الأوهام والخرافات، والزيغ والضلال، فعمل على إيقاظ الهمم بوعظه وإرشاده، وتعليمه حتى تم له تأسيس مدرسة تخرج بها رجال من خيرة المثقفين، والعلماء المخلصين، وعندما قصد الكويت بدعوة من مؤسسي الجمعية الخيرية فيها، اصطدمت تعاليمه الدينية هناك بالمصالح السياسية، وكان من جراء ذلك أن خرج منها ناجياً ببدنه ولكن لينتقل بميدان كفاحه الى المعركة الحربية في الشعيبة ضد جيوش الاحتلال البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، فيحمل البندقية حين عزَّ الخطاب، ووهنت الكلمة، حملها لينضم إلى صفوف المجاهدين معرضاً نفسه للنفي والتغريب،

وحياته للموت والخطر ، ويسير مع خط المعركة الى نهاية الشوط فيلقى ما يلقى من أذى ، ويتعرض لما تعرض له من طرد وتشريد ومناوأة ، وهكذا فإنّا نجد في سيرته صفة رجل عالم مؤمن ، لا يوارب في دينه ، ولا يهادن في عقيدته ، ولا يتاجر في علمه ، بل يستمر مدرساً ، وواعظاً مرشداً ، ومحدثاً عالماً ، صادعاً بالحق حتى آخر رمق من حياته ، ولكن لتظل رسالته باقية في مدرسته ، وطلابه ، ومريديه ، وليبقى ذكره خالداً ، خافقاً في القلوب مردداً في الألسن والأسماع ، ولتستعاد ذكراه مدوية في الحضارة والتاريخ .

وقد تابعت سيرته في كل الأوساط التي عاشها في شنقيط ، ومكة ، والمدينة ، والقاهرة ، والكويت ، والبحرين ، والأحساء ، والبصرة ، والقصيم ، لأرسم بذلك صورة صادقة لشخصيته وفكره ، ولأضع شارات للمجد الديني آنذاك يستضاء بها في دروب العلم والخلق والحقيقة ، وما نهضتنا الفكرية ، والعلمية اليوم الا نتيجة لتلك النهضة التي أرسى قواعدها علماء مؤمنون مخلصون في جميع البلاد العربية والاسلامية ، وهي بالطبع امتداد لتلك النهضة الاسلامية الشامخة في العصور الذهبية ، أو هي قبس من أقباسها .

على أنني تعمدت الاسهاب في سرد النواحي التاريخية ، والعلمية ، والأدبية في شنقيط ، البلد التي نشأته والبيئة التي احتضنته وأخرجته ، وطبعته بطابعها العلمي ، الزاخر بالفضل والأدب والحرية وعلو الهمة ، تلك هي شنقيط ، أو - جمهورية موريتانيا الاسلامية الحديثة - التي لم نكن لنعرف عنها الشيء الكثير ، لولا رجال خرجوا منها لينشروا العلم والمعرفة والدين في شتى البلاد ، فاستأثروا بالاعجاب ، وألزموا الباحثين

التنقيب في أسباب هذه النهضة العلمية، في مثل هذا البلد الصحراوي الفقير الجاف، ولم أرد أن أتفرد برأيي في تحليل هذه الأسباب من غير ما دليل، بل جهدت أن أنقل للقارىء معظم ما ورد من نصوص - على قلّتها - في ما قيل في هذا البلد العريق بعروبته وعلومه ودينه، وقد آن للأقطار العربية خاصة، والاسلامية عامة أن تدخل في برامج مدارسها دراسات وافية ضافية عن علماء، وشعراء، وأدباء شنقيط خاصة، والمغرب عامة، بالتفصيل والاسهاب، لتتصل وشائج الثقافة، وترتبط أسباب الوحدة الفكرية بين المغرب والمشرق، ومن هؤلاء علماء قد لا نغالي إذا قلنا عنهم إنهم لا يقلّون أهمية عن أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وأبي الثناء الآلوسي، وعثمان بن سند، وأضرابهم، وشعراء فحول لا يقلّون مستوى عن أمثال المتنبي، والبحتري، وشوقي، والرصافي، ولكن القليل من الدارسين، بل ربما الأقل من القليل الذين يعرفون عن علماء شنقيط أمثال سيديَّ الكبير الأبييري التندغي، والشيخ مصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن مأمين الملقب بـ - ماء العينين - ومحمد محمود التركزي، وأقل من هؤلاء الذين يعرفون عن شعراء شنقيط أمثال: العالم الشاعر حرم بن عبد الجليل العلوي، ومحمد ابن محمد العلوي، ومحمد بن الطلب اليعقوبي صاحب الجيمية التي عارض بها الشماخ بن ضرار الغطفاني الصحابي، والميمية التي عارض بها حميد بن ثور، وغيرهم كثير.

لذا فقد تعمدت التصريح عند ذكر اسم بعضهم الى التعريف به، وذكر شيء من نماذج شعره عند سنوح المناسبة لألفت الأنظار الى تلك الكنوز العلمية والأدبية في المعرفة والفن لمن فاته الاطلاع عليها لقلّة من عنوا بنشرها.

وتحت هذا العنوان - من أعلام الفكر الاسلامي في البصرة - سأتابع البحث في تراجم العديد من هؤلاء الذين عاصروا الشنقيطي، وكان لهم الفضل في نشر العلم، والوعي الفكري في البصرة وما جاورها، في تدريسهم، ومؤلفاتهم، ووعظهم وإرشادهم أمثال الشيخ محمد الخليفة النبهاني، والشيخ حسين الحمداني، والشيخ محمود الجموعي، والشيخ مصطفى المفتي، والسيد عبد العزيز بن مال الله التكريتي، والشيخ علي ابن محمد صالح البدران، والشيخ عبد الوهاب الفضلي، والشيخ محمد العسافي، والشيخ سليم العماري مدرس الرحمانية، وغيرهم ممن تتوفر تراجمهم وسيرهم، وممن مضوا الى رحمة ربهم ولم يكتب عنهم بما يجب من ذكر وذكرى لتكون وفاءً لبعض ما يجب لهم في ذمة الأحياء، بعد أن كرسوا جهوداً نافعة في خدمة العلم والدين، وشاركوا مشاركة فعلية في تخليد التراث، ودفع عجلة التاريخ.

ونسأله تعالى التوفيق والعون لإكمال ما نحن بصدده، خدمة للحق، والعلم، والأمجاد.

بغداد - الأعظمية -
٦/ربيع الثاني/١٣٩٦ هـ
٦/نيسان/١٩٧٦

عبد اللطيف أحمد الدليشي الخالدي



الشيخ محمّد أمين الشنقيطي
١٢٩٣ - ١٣٥١هـ / ١٨٧٦ - ١٩٣٢م

١ - التعريف به:

هو أبو يوسف، أو (أبو عائشة)[١]، محمد الملقب بـ(فال الخير)، وهو لقب لعائلته المعروفين بـ(بني أمين)، أو - الأمين السالم - ولذا اشتهر بـ(محمد أمين) بن عبدي بن فال الخير[٢]، بن حبيب الله، بن أبي (بفتح الهمزة)، بن حبيب، بن أحمد، بن أعمر كداش[٣] الحسني[٤]. وأمه عائشة بنت عبيد الله بن إبَّن (بكسر الهمزة وتشديد الموحدة المفتوحة آخره نون) على وزن - قِنَّب - بن أحمد الخليل بن حبيب الله، بن أبي، إلى آخر نسب أبيه، حيث يلتقي نسبهما في حبيب الله.

توفيت والدته وهو صغير لا يتصورها، وقيل له عنها بأنها كانت تحفظ القرآن، ولها اشتغال بطلب العلم غير أن المنية باغتتها وهي لا

---

(١) كما جاء في مذكراته التي سنثبت ملخصاً منها في آخر الكتاب.

(٢) وفال الخير اسم لجده وليس لقباً.

(٣) وأورده صاحب الوسيط في أدباء شنقيط بلفظ - أعمر أكداش - بكاف معقودة ودال بعدها ألف وشين ص ٧٨.

(٤) نسبة الى الحسن بن أبي الحسن وليس ابن علي بن أبي طالب، وإنما هو جد قبيلة كبيرة تعرف ببني حسن وسنأتي على بحثها.

تزال شابة. أما أبوه وجده فانهما كانا من أعيان قبيلتهما، ولكنهما لم يتسما بسمة العلم كأسلافهما، وتشبث والده بطلبه ولكنه لم ينل منه كثيراً، وكان تقياً، ورعاً، وصولاً للأرحام، مولعاً بالاذكار فيلقنهم إياها، وكان جده فال الخير وأبوه حبيب الله من أهل العلم، إلا أن والده عبديا أخمل ذكرهما، وكان عبيد الله جده لأمه - كما وصفه - علامة، وشاعراً، وسطاً[1]، وله اليد الطولى في الفقه، والعلوم العربية، ولا سيما اللغة، وروى له شيخه عبد الله بن حمّين الكريمي[2] أن جده عبيد الله كان يحفظ مقامات الحريري عن ظهر قلب وله مناظيم حسنة في الفقه وغيره، وهو لم يكد يدركه إلا قليلاً. وكان خاله محمد بن عبيد الله من أهل العلم والأدب، درس أول ما درس عليه مبادىء العلوم العربية، وشيئاً من علم العروض بصورة تلقينية سهلة.

٢ - ولادته ونشأته:

لم يرد في مذكراته مكان ولادته، بل ذكر أنه ولد في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين ومئتين وألف للهجرة (١٢٩٣ هـ) الموافق لسنة (١٨٧٦ م) وروى لي الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الرابح المدرس بالمعهد الاسلامي في البصرة، والذي هو في الأصل من مدينة الرباط في المغرب، قال: إن الشيخ محمد أمين الشنقيطي هذا من أهل قرية - تنبكتو - إحدى قرى شنقيط. وقال صاحب الوسيط:

---

(١) وسيأتي نموذج من شعره عند ايراد تلخيص مذكرات حفيده المترجم في آخر الكتاب.

(٢) هكذا ورد في مذكراته الخطية إلا أن صاحب الوسيط أثبته بلفظ: (إبن حامّنّ) بتشديد الميم والنون المفتوحتين، وهو من قبيلة الاغلال البكرية ص ٩١.

« تنبكتو » مدينة مشهورة، والمعروف عندنا انها خارجة عن شنقيط، واصل أهلها السودان، وفيها كثير من تجار السوس وغيرها من بلاد المغرب، إلا أنه ذكر في نفس الصفحة (٤٦٠) عند الكلام عن قرية (بُواجَبَيْها) تصغير جبهة، قال: « هي قرية من نواحي تنبكتو في ما أظن وهي من شنقيط، وبعض سكانها من ادوعل، ولم تزل بقاياهم هناك، وذلك حسب حدودها القديمة الواسعة[1]. وعلى الخارطة التي نشرتها مجلة العربي الكويتية في عددها الخامس والعشرين من سنة ١٩٦٠م ضمن مقال للأستاذ محمد عبد الله عنان بعنوان - موريتانيا - أثبتت - تنبكتو - في السودان (إتحاد مالي).

أما البحث في شنقيط من حيث نشأتها، وجغرافيتها، وأهميتها العلمية، والدينية، والحضارية، فسنأتي عليه. ولم نجد في مذكرات الشنقيطي ما يشير الى عهد طفولته، وكيفية تنشئته، الا ما ذكر من وفاة أمه وهو صغير، وما كان يلقنه إياه والده من الأذكار الواردة في كتاب - الحصن الحصين - للجزري، كما أشار الى ان والده كان شديد البر بوالدته، فلا بد أن تكون جدته هذه كثيرة الرعاية له، ولم يشر الى دور جدته لأمه في الحدب عليه إن كانت موجودة آنذاك، وعلى العموم فقد تخطى هذه الفترة من عمره، فلم يذكر أول عهده بقراءة القرآن، وتعلم القراءة والكتابة، واعتقد أنه تتلمذ في هذا الدور على أيدي النساء اللواتي كن يتعهدن الصغار في هذه الفترة المبكرة من

(١) ذكر عبد الله عنان أن موريتانيا القديمة كانت تطلق على منطقة أوسع بكثير من التحديد الحالي الذي رسمه الاستعمار، حيث تمتد شرقاً في صحراء السودان شمالي تنبكتو وتتصل بجنوبي المغرب عند بلاد السوس وتشتمل على إقليم (ريو دي أورو) الذي اقتطعته اسبانيا «مجلة العربي العدد ٢٥ من سنتها الثانية ص ٢٦ ».

الأعمار، وتلك عادة متبعة في شنقيط[1] وربما أهمل ذكر هذه المرحلة لهذا السبب تحرجاً من ذكرهن، ولذا فقد ذكر أنه ابتدأ في طلب العلم على خاله محمد بن عبيد الله، كما تقدم. وقال إنه حفظ القرآن قبل البلوغ، أي خلال السنة الثانية أو الثالثة عشرة من عمره. وفي هذا دليل على قوة الحافظة، والذكاء النادر، وقد لا يستغرب ذلك إذا علم ما كانت عليه شنقيط من تسابق في العلم، وحشد في العلماء. وما كانت تتصف به البيوت من حث على الدراسة، وفي مقدمتها قراءة القرآن الكريم وحفظه استظهاراً، وما كانت تتسابق فيه النساء قبل الرجال من طلب العلم والتوغل فيه، واذا كانت أمه عائشة تحفظ القرآن وهي في مقتبل الشباب، وإذا كان خاله قد أخذ بيده منذ الصغر حتى عرج به على دراسة العروض والشعر فما ذلك إلا دليل على أثر الوسط العلمي الذي نشأ به وعلى ما للشعر والأدب والعلم من أهمية في تلك البيئة التي كان فخرها بالأمجاد والأنساب والحروب والالتزام بالفضائل الدينية، والدفاع عن القبيلة، وعن العقيدة والخلق الكريم كما سيأتي تفصيله وأثر ذلك كله في حياة مترجمنا، فليس عجيبا اذن أن يحفظ القرآن قبل البلوغ، كما وحفظ شيئاً من منظومات السيرة النبوية. ولكنه بعد أن شب عن الطوق لم يكتف بملازمة خاله، بل راح يختار ويتنقل بين مجالس العلم، وينضم الى حلقات الدرس في بلده، كما كانت العادة هناك حيث يختار الطالب من يريد من العلماء كلاً حسب اختصاصه، وحسب من يرى من زيادة تحقق الفائدة عنده، ولهذا فقد تتلمذ على محمد بن بنيامين، الذي قال عنه إنه أكثر مشايخه له نفعاً، ودرس على عبد الله بن

---

(١) الوسيط ص ٥١٧.

حمِّين المتقدم الذكر، وأكثر ما قرأ عليه اللغة، كما درس على المختار بن المعلّىٰ، وكل هؤلاء من تلامذة محمد بن حنبل[1]. وهو عالم نحرير، ولغوي

---

(١) هو محمد بن حنبل بن الفال، البوحسني، أصله من تاكنيت، وهو من أقارب الشاعر الأحول الذي سنأتي على ذكره، ويتصل نسبه بأعمر كداش الجد الأعلى للشنقيطي، وأما تاكنيت، أو تكانت فمعناها الغابة، وهي حلقة يحفها من الجانبين جبل عظيم ويسمونه - سن تكانت - كما جاء في الصفحة ٤٤٣ من الوسيط. ومحمد هذا من العلماء الأعلام، واشتهر باللغة في ذلك القطر، كما كان نحوياً وشاعراً فذاً، حريصاً على طلب العلم، وقال عنه صاحب الوسيط أنه مكث سبع سنين منقطعاً لطلب اللغة فقط، ولم يذهب خلال هذه الفترة لزيارة أهله مع قربهم منه. وله شعر رصين جيل، ومن أشهر قصائده القصيدة التي مدح بها الشيخ سيديَّ الكبير والتي قال في مطلعها:

أضرم الهمَّ سُحَيراً فالتهب ... لمعُ برقٍ برُبَيّات الذّهب
في شماريخ ثقالٍ دُلَّح ... كتهادي العيس في الوعْث النَّكب
أسديات عليها ألوةٌ ... أن تجود الأرض سبتاً وتُرب
جُدنَ ذا الرَّسل بسيلٍ مفعمٍ ... والمراجيع بسحاحٍ لَجِب

الى أن يقول:

يا لها من غادياتٍ قد كفت ... ماتحَ العُقْل لها شدَّ الكرَب
فتحلَّت بلجينٍ حوله ... من نضير النبت أبرادٌ قُشُب
فأقام الذُّبُّ في الروض الغنا ... وأقامَ البِتْرُ في الماء الصَّخَب
وشنوف الطلح قد نيطت به ... كشنوف الغيد خضراً تضطرب
والحمام الورق تشدو بالضحى ... فتذوب النفس شوقاً وطرب
ربَّ بيضاء خلوب لحظها ... ما لها في العجم شبهٌ والعرب
تحت ليل الفرع منها قمرة ... فوق غصنٍ، فوق حقفٍ منكثب
يقبل الشوق إذا ما أقبلت ... يدبر الصبر إذا ما تنقلب
بابلي السحر في أجفانها ... بابلي الراح منها في الشنب
زرت والظلماء مرخىً سدلُها ... غيبةَ الواشي، وفقدَ المرتقِب

ومنها:

إن خير الزاد يا صاح التقى ... فبه المجدَ التمسْ لا بالنسب
في التقى عز، وكنزٌ، وغنى ... دون سلطان، وجندٍ، ونشب =

علامة، وشاعر جزل العبارة، رقيق التعبير، عاطفي الخيال، رائع الوصف والتشبيه «راجع ترجمته في الوسيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي». كما درس في شنقيط أيضاً على عبد القادر المجلسي، وهو لقب لقبيلة تعرف محلياً هناك بـ«مِدْلِشْ» تحريف مجلس، لأن الناس كانت ترحل إليهم وتجلس عندهم لطلب العلم. فقالوا: شعراء مدلش، وعلماء مدلش، وهكذا. وجاء في الوسيط (ص٤٧٧) أن قبيلتي كنت ومدلش (مجلس) من بني أمية. ومن أشهر شعرائهم (بوفمين) والأحنف والبوحمدي، وأحمد البدوي النسابة الشهير، وحماد المجلسي وغيرهم. وفيهم شعراء مجودون، وعلماء متوغلون، يقصدهم طلاب العلم من كل مكان، ولم أجد في الوسيط - وهو المرجع الوحيد لشعراء وعلماء شنقيط - ترجمة لعبد القادر المجلسي هذا.

= هو دون العـــلم عنقـــا مغربٍ   فاطَّلبـــــه، فلنعم المطَّلـــــب
جرِّع النفس عـــلى تحصيلـــه   مضَـــضَ المرَّين ذلٍ وسغـــب
والقصيدة طويلة وتمضي هكذا في الفخامة والجزالة.

الشماريخ: رؤوس السحاب. ودلَّح: جمع دالح أي مثقل، والتهادي: التمايل في المشي. والعيس: جمع أعيس وعيساء وهي الابل البيض. والنكب: جمع انكب ونكباء وهو الذي به ظلع في منكبه. والوعث: المكانّ الدهس. أسديات: سحائب طالعات من برج الأسد. ألوق: حلفة. ترب: تقيم. الرِّسل: في الأصل اللبن، وهو هنا موضع، واسمه بالعامية أبير اللبن. الذُّبُّ: بالادغام جمع ذباب على لغة تميم. البتر: جمع أبتر وهو قريب من الوزع كثير الأصوات بعد المطر. وله في هجر الغواني، والحث على طلب العلم، فقال:

عم صباحـاً أفلحت كل فلاح   فيك يا لوح لم أطع الف لاح
أنـت يـا لوح صاحبي وأنيسي   وشفـــائي من غلَّـــتي ولُواحي[1] =

---

(١) اللواح: العطش.

وكانت دراسة الشنقيطي على جميع هؤلاء الشيوخ في شنقيط تتلخص في الكتب الآتية:

الاجرومية، ومتفرقات من ألفية ابن مالك في النحو ومواضع متفرقة من مختصر خليل في الفقه. وفي الشعر والأدب: قرأ رسالة ابن زيدون، وشيئاً من علم العروض، وجملة من الشعر الجاهلي كالمعلقات ودواوين الشعراء الستة وهم: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وعلقمة بن عبدة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعنترة بن شداد، وشيئاً من علم اللغة.

= فانتصاح امرئ يروم اعتياضي ... طلب الوافر منك شر انتصاح[1]
بـك لا بالـثرا كلفـت قديمـاً ... ومحيـــاك لا وجوهِ المـــلاح
رب خَودٍ مـاء النعـيم عليهـا ... جريـــان الزلال في الصفّـــاح
تستـــبي المرعوي بثغر الأقاحي ... وجبـينٍ مثـل انبـلاج الصباح
وعـــلى ثغرهـا بُعَيـد كراهـا ... قهوة الراح بالمعـــين القَـراح
في عقود الجمان والـدر منهـا ... جيـد جيداء من ظبـاء رُماح[2]

---

(١) قوله: طلب الوافر، كما في الأصل لا يستقيم معه الوزن، وأعتقد انه: طلب الوفر، بحذف الألف.

(٢) رُماح: بضم الراء، على زنة فُعال، موضع بالدهناء والاكثر اعجام خائه، وقد تهمل، ومنه بيت ذي الرمة:

وفي الاظعـان مثـل مهـا رُمـاح ... عليـــه الشمس فـــادّرع الظـــلالا

« الوسيط ص ٣١١ وما بعدها ». ومن جيد شعره الطريف في الغزل قوله:

لا تملي يـــا عـــين رعي النجوم ... وانهـــلالات دمعـــك المسجوم
قـــد جنيـــت الهوى شهيـاً جنـاه ... فاستحالـــــــت ثماره كالسُّموم

ومنها:

لا يظن الظّنون أن مقامي ... باليُنيبيـــع لا طّـــلاب العلوم
بـــل لِغَربيّـــة تهـــب فاشفي ... سقم القلـــب من حشاي الكلـــيم
حبَّبَـــتْ كـــل شقروي إلينـــا ... من حميم لهـــا وغـــير حميم

ومن هذا يتبين أنه كان مهتماً بدراسة الشعر والأدب أكثر من اهتمامه بدراسة العلوم الدينية وأعتقد أن سبب ذلك اشتهار ذلك الوسط بالشعر والشعراء حتى كاد أن يكون الشعر لغة التخاطب والتفاخر والتعارف فقل أن تجد عالماً، أو فقيها، أو صوفياً ورعاً لا ينظم الشعر، أو لا يجيده، وقد حاول الشنقيطي أن يمارس نظم الشعر منذ ذلك الحين، ولكنه لم يستطع التحليق فيه.

٣ - شنقيط، أو (موريتانيا):

نظرة تاريخية: قال أحمد بن الأمين الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١م) عند الكلام على شنقيط وتخطيطها في الصفحة ٤٢٢ وما يليها من الوسيط ما يلي:

«شنقيط: تكتب بالقاف والجيم، وكانت في العصر الأول تكتب بالجيم فقط كما يوجد في الصكوك القديمة. ومعنى شنقيط «عيون الخيل» على ما ذكره سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، وشنقيط في الأصل تطلق على مدينة من مدن إدرار، واقعة فوق جبل في جهة غرب الصحراء الكبرى، ثم سمي به القطر كله.

ويحد هذا القطر شمالاً: الساقية الحمراء[1] وهي تابعة له، وجنوباً: قاع ابن هيب، وهو تابع له أيضاً، وغرباً: بلاد سنكال (سنغال)، وهي

---

(١) الساقية الحمراء: وتعرف اليوم بصحراء المغرب، أو صحراء شنقيط، أو ريو دورو، أو الصحراء الاسپانية. المتنازع عليها بين موريتانيا والمغرب من جهة، حيث تخلت اسپانيا عنها لهما، وسكان الصحراء (البروليتاريو) الذين تؤيدهم الجزائر من جهة أخرى، وأول من قام بعمارتها الشيخ ماء العينين، كما سيأتي توضيحه.

المعروفة عند أهل شنقيط بـ(إندر)، وهي خارجة عنه. ».

وشنقيط من بلاد المغرب، كما هو معروف عند أهل شنقيط والمغرب، وقد نص سيدي العربي بن السائح في كتابه « البغية » على أنهم من أقصى المغرب. ونصت النخبة الأزهرية في الصفحة (٣٢٣) على أن شنقيط من المغرب. وكانت (أي شنقيط) عيوناً تشرب منها الخيل، وقد مضى من تاريخ عمارتها الى وقتنا هذا خمسمائة سنة تقريباً[1] وقد بنيت أول الأمر على موضع مستوٍ مشتد فانتقلت إليها الرمال ودرستها، ويقال إنها كانت بها قرى فدفنتها الريح.

وورد في مجلة العربي الكويتية في العدد (٢٠٦) ص (٧٦) محرم سنة ١٣٩٦ هـ (كانون الثاني ١٩٧٦ م) تعريف بشنقيط هذا نصه:

« شنقيط: مدينة العلم والعلماء منذ زمن قديم، هذه المدينة التي شيدت عام (١٦٠ هـ) اندثرت تحت رمال الصحراء لتقوم على مسافة ميلين منها شنقيط أخرى شيدت عام (٦٦٠ هـ) ».

وذكر محمد يوسف مقلد في كتابه « موريتانيا الحديثة » ص ١٢٩ قائلاً:

« أما شنقيط فهي اسم لقرية صغيرة أنشأتها قبيلتا أدوعل، والاغلال في القرن السابع الهجري[2]، ومعنى شنقيط في اللغة البربرية (لهجة أزير): عيون الخيل، وترجع شهرتها الى كثرة العلماء فيها، والى كون سكانها كانوا كل عام يوفدون الى البلاد المقدسة رفقة كبيرة من الحجاج

---

(١) وذلك اعتباراً من تاريخ تأليف الوسيط سنة ١٣٢٩ هـ فإذا طرحنا منه (٥٠٠) تكون سنة عمارتها ٨٢٩ هـ (١٥١٦ م). المصدر نفسه ص ١٢٩.

(٢) أدوعل: علوية، والأغلال: بكرية كما في الوسيط ص ٤٧٧.

تعرف بـ(الركب الشنقيطي)، وكانوا أهل تجارة منتظمة مع السودان، والسنغال (إتحاد مالي) وسجلماسة، وكلميم، وهذه القرية من أقدم قرى شنقيط هي وتيشيت وولاتـه التي زارها الرحالة ابن بطوطة[1].

أما إطلاق اسم - موريتانيا - على هذه المنطقة فقد تناوله الباحث المؤرخ عبد الله عنان في مقال له في مجلة العربي الكويتية[2] بقوله: «ظهر أخيراً بين الدول الافريقية المتحررة اسم: «جمهورية موريتانيا» وقد كانت موريتانيا حتى سنة ١٩٥٨م ضمن مجموعة المستعمرات الفرنسية في غربي افريقيا، ثم حصلت أخيراً على استقلالها الذاتي، بيد أن جمهورية موريتانيا كانت مثار اعتراض شديد من جانب المغرب، ذلك أن المغرب يعتبر اقليم موريتانيا أرضاً مغربية وجزءاً لا يتجزأ من الوطن المغربي اقتطعه الاستعمار منه منذ أوائل هذا القرن. وتعتبر شنقيط، وهي تقع في وسط الاقليم بالأخص مدينة مقدسة، ومنها العالم اللغوي الشهير الشيخ الشنقيطي»[3].

وقال: «وأما عن التاريخ فان لموريتانيا تاريخاً قديماً، حافلاً، يرجع الى العصر الروماني، والرومان هم الذين أطلقوا اسم «موريتانيا»: «Mauritania» على المنطقة الشاسعة التي تقع في شمال غربي افريقية، ومعناها: بلاد الموري - أي الرجال السمر.

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١١.

(٢) السنة الثانية العدد (٢٥) ص ٢٤ وما بعدها.

(٣) لعله يقصد الشيخ عبد الرشيد الشنقيطي أستاذ السيد مرتضى الزبيدي شارح القاموس.

وذكر عبد الباري عبد الرزاق النجم حول كلمة - موريتانيا - قائلاً:

« وكان اسم موريتانيا يطلق قبل الفتح الاسلامي على سكان المدن المختلطي الدماء، ولما فتح العرب اسبانيا أطلق الاسبان لفظ - مور - على العرب الفاتحين لبلادهم، وكلمة - مور - بالاسبانية تعني « الأسمر »، ولما استولت اسبانيا على موريتانيا أطلقت عليها الاسم، ويفسر بعضهم كلمة - مور - على أنها محرفة من (Monori–Mohur) أي سكان المرتفعات التي تنتشر في الشمال الافريقي بالنسبة للرومان. ويقول فيتز جيرالد: إن لفظة المغربيين مشتقة من موريتانية التي كانت تسمى في قديم الزمان: أرض الصحراء الغربية. ويسمى مسلمو الفلبين بـ(مورس) (Moros) وهو اسم مشتق كما هو ظاهر من كلمة « مور » ويقول « جون جنتر »: « والعجيب ان المراكشيين أنفسهم يتملصون من هذه التسمية، ويعتقد بأن هذه التسمية اصطلاح أوروبي بحت ». الى أن قال: « وكان اسم شنقيط هو الاسم السائد لموريتانية قبل أن يستولي عليها الفرنسيون في مطلع هذا القرن »[1].

٤ - كيف استضاءت موريتانية بنور الإسلام؟

حينما وصل عقبة بن نافع الفهري في فتوحه إلى شاطىء المحيط الأطلنطي سنة (٥٠هـ)، (٦٧٠م)، اندفعت بعض كتائبه نحو الجنوب حيث بلاد السوس ومشارف موريتانية، وكان ذلك أول اتصال بين العرب والبربر من سكان هذه المنطقة، وكانت بداية اعتناق معظم

---

(١) جمهورية موريتانية الاسلامية ص ١٢، ١٣.

أهلها الوثنيين للاسلام، وكان سكانها من القبائل البربرية، ففي وسطها (لمتونة) وفي شرقها (مسوفة) وفي غربها على شواطىء المحيط (جدالة) وكل هؤلاء ينتمون إلى قبيلة (صنهاجة) الكبرى أعظم القبائل البربرية عدداً، وسلطاناً، وكان لقبيلة لمتونة الرياسة في أواسط موريتانية منذ القرن الثاني للهجرة، ولبث زعماؤها عصوراً يعملون على محاربة القبائل الوثنية ونشر تعاليم الاسلام بينها[1].

غير أن صاحب الوسيط ذكر في الصفحة ٤٧٦ قائلاً:

«والخلف في لمتونة بين المؤرخين قديم، فالأكثر أنهم من حمير، ودخلوا بلاد المغرب في الجاهلية، وقد مشى عليه صاحب عمود النسب[2] حيث قال في منظومته:

وآل عبـــاد ملوك الأندلس — من نسل ذي الطوق وغالها الندس

يوسف العـدل ابن تاشفينـا — الحمـيري ثم من لمتونـا

وفي هذا قال بعض الشعراء المتقدمين:

قوم لهم شرف العلى من حمير — وإذا دعوا لمتونـة فهمُ همُ

لمـا حووا عليـاء كـل فضيلـةٍ — غلـب الحيـاء عليهمُ فتلثموا

أما محمد يوسف مقلد فقد قال في صنهاجة إنهم بربر استعربوا، ولهم تاريخ مجد طويل حافل بالفتوحات والمآثر وهذا أقرب الى الصواب في ادعائهم النسب إلى حمير بعد أن استعربوا، وكانت وما زالت القبائل

---

(١) عبد الله عنان المقال نفسه.

(٢) صاحب عمود النسب: هو أحمد البدوي المجلسي الذي نظم أنساب القبائل في شنقيط. كما نظم غزوات النبي صلّى الله عليه وسلّم «الوسيط ص ٣٥٠».

المستعربة تلحق نسبها بقبيلة أصيلة موالية لها. وأما قول الشاعر «غلب الحياء عليهم فتلثموا» فيشير الى أن منهم الملثمين، كما أن منهم أيضاً المرابطين، كما سنوضحه بعد.

٥ - أصل السكان وأنسابهم في شنقيط (موريتانيا):

يتألف سكان موريتانيا من ثلاثة أجناس: العرب، والبربر، والزنوج، وثمة جنس رابع خليط من العرب والبربر، ويطلق على الجنسين الأول والثاني: البيض، تمييزاً لهم عن الزنوج السود الذين يفترقون عنهم بصفات خاصة سنأتي على ذكرها. ويقسم كل من هذه الأجناس الى: قبائل، وأفخاذ، وبطون، وشعب لا حصر لها بالنسبة للآباء والأجداد. ومن أشهر قبائل البربر قبيلة صنهاجة بأقسامها المتقدمة الذكر، وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي كانت رياسة صنهاجة وقبائلها للأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي، زعيم قبيلة جدالة وهي شقيقة لمتونة[1] الذي انتدب أحد فقهاء السوس المدعو عبد الله بن ياسين الكزولي، أو (الجزولي) للاستعانة به على تثقيف قومه بالاسلام، وتفقيههم بأحكامه، لما كانوا عليه من جهلٍ وإعراض، ولكن القوم انصرفوا عنه، لشدته وصرامته، فيئس منهم، وعمد هو وصديقه الأمير يحيى، وبعض مريديهم الى جزيرة مهجورة على شاطىء المحيط، وابتنوا لهم فيها رباطاً للعبادة، ثم وفد عليهم هنالك كثير من أشراف صنهاجة ممن تأثروا بدعوتهم ونهجهم، وعكف عبد الله على تعليمهم وإرشادهم

---

(١) قيل إن لمتونة مشتق من - اللمت - وهو الثوب البسيط الذي كانوا يلبسونه «موريتانيا الحديثة ص ٦٢».

وسماهم بـ «المرابطـين»، وقـدر لهـذه الطائفـة أن تؤسس أعظم امبراطورية في المغرب الاسلامي.

ولما رأى عبد الله بن ياسين كثرة أتباعه، وإخلاصهم في نشر الدعوة، خرج بهم إلى الجهاد، فغزا قبائل صنهاجة الوثنية وأخضعها بقيادة يحيى الجدالي، ولما توفي خلفه يحيى بن عمر اللمتوني، الذي سار بأتباعه شمالاً إلى المغرب وفتـح درعة، وسجلماسة، ولما توفي الأمير يحيى اللمتوني، خلفه أبوه أبو بكر، وندب أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش لتصبح قاعدة الدولة المرابطية الكبرى التي ما لبثت أن شملت المغرب كله، من ليبيا حتى المحيط وجنوباً حتى حدود السودان ومملكة غانة، وعندما استدعي يوسف بن تاشفين لنصرة أمراء الطوائف بالأندلس انتهى الأمر بافتتاح الأندلس وضمها الى الدولة المرابطية الكبرى[1]. وكان هؤلاء خليطاً من العرب والبربر وحد الاسلام بين قلوبهم، وألفت العقيدة الصادقة بين صفوفهم، فاندفعوا لنشرها بصدق واخلاص[2].

وأما العرب هناك فيطلق عليهم: عرب المعقل، نسبة الى معقل بن الحارث، بطن من مذحج، من القحطانية، وهم بنو معقل: وهو ربيعة بن الحارث بن كعب بن جلد بن مذحج. كانوا في القرن الثالث الهجري من أوفر قبائل العرب، وموطنهم بالمغرب الأقصى، وهم ثلاثة بطون: ذوي

---

(١) مجلة العربي - عبد الله عنان - المصدر السابق الذكر.

(٢) جاء في الوسيط ص ٤٧٧ نقلا عن ابن خلكان، أن يوسف بن تاشفين كان لا يحسن اللغة العربية، كما ان ابن الشيخ سيدي قال فيهم من قصيدة له هذا البيت الذي يفند به انتسابهم للعرب وهو:

إلى نسب لهم بلغوا ادعـــاءً   بـــــه أذواء حمير أو نزارا

عبيد، وذوي منصور، وذوي حسَّان[1]. ومن إملاء نسابتهم أن معقل جدهم له من الولد: سحير، ومحمد. فولد سحير: عبيد الله وثعلباً. وولد محمد: مختاراً، ومنصوراً، وجلالاً، وسالماً، وعثمان. فولد مختار بن محمد: حساناً، وشبانة. فمن حسان: ذوي حسان (أهل السوس الاقصى والموريتانيا). ومن جلال وسالم وعثمان: الرقيطات[2]. ومن منصور: الحسن أو (بني حسن) الذين ينتسب إليهم الشيخ الشنقيطي صاحب الترجمة.

وذكر محمد يوسف مقلد أيضاً في المصدر نفسه فقال: «وأما أنساب عرب المعقل عند المؤرخين وفي طليعتهم ابن خلدون فخفية مجهولة، فمنهم من يعدهم من بطون هلال، ومنهم من يزعم أن نسبهم في أهل البيت الى جعفر بن أبي طالب[3] ويدلل على ذلك بأن الطالبيين لم يكونوا أهل بادية ونجعة، ومنهم من يقول إنهم متحدرون من عرب اليمن، لأن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بـ(المعقل) ذكرهما ابن الكلبي وغيره، فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير، وهو معقل بن بكر، بن غليم، بن خباب، بن هبل، بن عبد الله، بن كنانة. والآخر من بني الحارث بن كعب، بن عمرو، بن علة، بن جلد، بن مذحج. والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر الذي هو مذحج، وكان اسمه ربيعة، وقد عده الاخباريون من بطون هلال الداخلين الى

---

(١) معجم قبائل العرب - لعمر رضا كحالة - ج ٣ ص ١١٢٣.

(٢) موريتانية الحديثة - لمحمد يوسف مقلد ص ٧٨.

(٣) وأشار الشنقيطي في مذكراته الى أن قبيلته بني حسن ينتسبون الى الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، كما سيأتي.

افريقية، لأن مواطن بني هلال الحارث بن كعب كانت قريبة من البحرين، حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة قبل دخولهم الى افريقية[1].

وأما الزنوج: فجنس واسع الانتشار في افريقية، ويمتازون بصفات خاصة، كاللون الأسود، والأنف الأفطس، والرأس المستطيل يغطيه شعر كثيف مغلغل، والشفة الغليظة، ويغشي عيونهم بعض الاحمرار، أو الاصفرار، ونسبتهم في موريتانيا قليلة، حيث يقدر عددهم حوالي مئة ألف من أصل مجموع السكان البالغ المليون نسمة ومن أشهر قبائلهم التوكلور والبمبر[2] والسراخوللي، والحراكات الذين قال عنهم صاحب الوسيط في الصفحة ٣٥٩، إن أصلهم قيون، ويحترفون الحدادة، والزراعة ومنهم: اللحمة أو (الزناكة) المحرفة من (الزنج)، والكلمة فارسية ومعناها «الأسود»، حيث يقال- زنكي- أي- زنجي-[3]. أما صاحب الوسيط فقد قسم سكان شنقيط في الصفحة ٤٧٥ وما بعدها، إلى ثلاثة أجناس أصلية، على النحو التالي:

أولاً: البربر، وهي قبائل كانت تقطن صحراء المغرب.

ثانياً: العرب الذين دخلوها في الفتح الاسلامي وتغلبوا على البربر، فأصبح السكان خليطاً من العرب والبربر. وبعد الاختلاط انقسموا الى ثلاثة أقسام كما يلي:

---

(١) موريتانيا الحديثة ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١.

(٣) جمهورية موريتانية الاسلامية ص ٦٥، كما أن - زناتة - محرفة من زناكه. وهو بربر كما ذكر الوسيط.

١ - حسان: وهم عرب. ٢ - الزوايا: وهم بربر. ٣ - اللحمة، أو (زناكه) أو «الأصحاب»: وهم يعدون من حسان بطريق التبعية لهم، وتقدم أنهم من السود القيون.

وتعرف حسان في شنقيط بممارسة الحروب والقتال، وهم المجاهدون في نشر الاسلام. وتعرف الزوايا بالاشتغال بإحياء علوم الدين والأدب واللغة والشعر ونشرها، وهم من أرسى قواعد العلم والثقافة في شنقيط.

أما القسم الثالث أي (اللحمة، أو زناكة) فقد عرفوا بالاشتغال باصلاح الأراضي بالفلاحة والزراعة والغرس، وتربية المواشي وتنمية الأموال، كما امتهنوا الحرف اليدوية كالحدادة وما أشبهها من الصناعات الأخرى، وتؤخذ من أموالهم الزكاة فتصرف لأهل العلم، كما يشاركون في تقديم الاعانات للمجاهدين. وهم في أصلهم أحرار إلا أن حسانا استعبدتهم واستأثرت بهم، وراحت تسخرهم تسخير الموالي، وتفرض عليهم الاتاوات، وقد تبتاع رقابهم مع اعترافهم بأنهم أحرار، ويعرف هذا الابتياع ببيع المنفعة التي يؤديها الفرد من هؤلاء وليس هو من قبيل استرقاق البدن، وهو أشبه ببيع أمراء الاقطاع في العصور الوسطى لفلاحيهم مع الأرض، ويقرر هذا منطق القوة والضعف، والاستغلال والحاجة.

وبعد هذا فقد أوغل صاحب الوسيط في تقسيم هذه الأجناس الى كثير من الافخاذ والبطون حتى ليكاد يلتبس الأمر على القارىء التباساً مشوشاً، ما لم يُعْنَ بالتدقيق والتمحيص، فقد قسم حساناً إلى أقسام عديدة ومن أشهرها:

(١) الترارزة: وهم سكان القبلة، والعُقَل، من حدود سنغال إلى

أكيدي، ومن أعيانهم: أبناء أحمد بن دامان، وأبناء ساسي.

(٢) أدوعيش: وهم سكان تكانت، ومعناها عندهم: الغابة.

(٣) البراكنة: ويقال لهم أولاد عبد الله.

(٤) أولاد حي من عثمان: وهم سكان إدرار[١].

وقد مر معنا أن بني حسان هؤلاء يرجعون في أصلهم الى مذحج من القحطانية، إلا أن محمد يوسف مقلد انفرد بالقول بأن حسانا تدعي أنها تنتسب في عروبتها وشجرتها الى الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، ولم يسند ذلك بدليل[٢].

وأما الزوايا فقد أشار صاحب الوسيط إلى أنهم من البربر - كما تقدم - ووصفهم بأنهم أهل تقى وورع وعفة، وطلب علم، ولو أن فيهم من يتخذ له أتباعاً من اللجمة (زناكة) يأخذ منهم الاتاوة كما تفعل حسان، إلا أنهم قلة. ويطلق لفظ الزوايا على قبائل كثيرة منها:

(١) أدوعل: ويقال لهم العلويون نسبة الى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه[٣]. وعلى هذا فالزوايا، أو بعضهم علويون.

(٢) أولاد أبييري: قبيلة من الزوايا ويتفرع من ابييري تندغ فيقال فلان التندغي الابييري وتجمعهم كلمة الزوايا[٤].

(٣) ادبيسات: وهم من الأنصار من الزوايا[٥].

---

(١) الوسيط ص ٤٤٣ - ٤٨٠.

(٢) موريتانيا الحديثة ص ١٣٧.

(٣) الوسيط ص ٤٦٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٦٥، ٥٦١.

(٥) المصدر نفسه ص ٥٦٢.

(٤) ادا بلحسن: أو بني حسن، من قبائل الزوايا، وعلى هذا فقد يقال انهم علويون لأنهم من الزوايا[1].

(٥) أبناء أعمر أكداش: قبيلة من قبائل بني حسن، وهي من أشهرها، ويقال لهم أيضاً - بانَعْمرْ - محلياً[2].

ولما كان محمد أمين فال الخير الشنقيطي - مترجمنا - من آل أعمر كداش فقد تصح دعواه أنه من العلويين لأنه من الزوايا، كما سيأتي تفصيله.

(٦) أولاد خطيرة: فرع من بني حسن (الوسيط ص ٥٠٣).

وبقي سؤال يدور في هذا الباب، وهو: إذا كان الزوايا من البربر فكيف يتفق أن يكونوا علويين؟.

قال عبد الباري عبد الرزاق النجم: «ويعتقدان اسم البربر اشتق من لفظ - بربروس - وهو الاسم الذي كان الرومان يطلقونه على الناس الغرباء، الذين لا يتكلمون لغة أثينا، أو روما، وقد قبل ابن خلدون بهذا الرأي في كتابه - تاريخ البربر - مع أنه يعزي سبب تسمية البربر الى أن - افريقش بن صيفي - من ملوك التبابعة غزا المغرب، وافريقيا (يراد بافريقيا جمهورية تونس الحالية) وأنه سمع السكان الأصليين يتكلمون بأصوات مختلطة فقال لهم: ما أكثر بربرتكم. فسموا البربر».

وفي القاموس: البربرة: كثرة الكلام والجلبة والصياح، وأن من

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٦.

يسمون بالبربر هم من ولد قيس بن عيلان وهم بطنان من حمير: صنهاجة، وكتامة[1]، وأخيراً، وبعد أن أورد كثيراً من الآراء، خلص الى القول بأن اسم البربر ضائع الأصل، وكل المصادر تعطي للبربر مدلولاً لغوياً، وليس مدلولاً جنسياً (رسياً)[2].

ويستنتج من كل ما تقدم، ومما لم يتسع المجال للاسهاب به أكثر، أن البربر - سكان المغرب الأصليين - استعربوا، واختلطوا بالعرب على مد الهجرات والموجات المختلفة، وبقي بعض من كلا الفريقين، العرب والبربر محتفظاً بقبيلته وجنسه، والعلويون الذين ينتسب بعضهم للامام علي كرم الله وجهه من ذرية الحسن، وبعضهم لجعفر بن أبي طالب (أي هاشميون) بقوا محافظين على أنسابهم تجمعهم كلمة - العلويين - تجوزاً رغم اندماجهم بالزوايا، أو حسان، أو بني حسن.

والذي يعنينا من كل هذا، إلقاء الضوء على البيئة السكانية، والطبيعية، والتاريخية، التي أنبتت محمد أمين الشنقيطي لتعليل ما امتاز به من علم، وتقى، وذكاء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مناقشة ما أورده في مذكراته الخطية من انتمائه الى سليمان بن عبد الله المحض كما سنبينه.

٦ - انتسابه إلى العلويين:

ورد في سلسلة نسبه أنه ينتمي إلى أعمر كداش الحسني، وقال في مذكراته الخطية موضحاً: «وأعمر كداش هذا، هو أبو بطن كبير يجمع

---

(١) جمهورية موريتانيا الاسلامية ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩.

عدة أفخاذ غير آل أحمد، وأما قولنا: الحسني فنسبة الى الحسن بن أبي الحسن، وليس هو ابن علي بن أبي طالب، وإن كان يقال إنه من ذريته، وإنما هو حسن آخر جد قبيلة كبيرة مشهورة، قديمة، تنزل في القسم الجنوبي من صحراء شنقيط، وناحيتهم التي هم فيها تسمى القبلة، ومياههم على الخصوص تسمى العُقل»[1].

واستند في ذلك إلى رواية ابن عبد الحميد العلوي الذي سمع بأنهم حسنيون، وذلك عندما اجتمع به في الحرم الشريف بالمدينة سنة ١٣٣٣ هـ. كما ذكر أنه منذ صغره كان يسمع من أهله أنهم أشراف حسنيون، وسمع من محمد محمود التندغي الشنقيطي الذي قال عنه أنه كان في عمان. وتوفي بالعراق، واعتمد شهادته اعتماداً صادقاً لما اتصف به من العلم والورع والنباهة وعدم الغفلة وسعة النظر في كل شيء، وذكر أنّ له خؤولة في بني حسن، وأن أهله كانوا يعدون ذلك رحماً بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]. وعزز ذلك بما رواه عن عالم آخر وهو باب بن أحمد بن مصطفى بن العربي الأبييري الشنقيطي الذي قال له بأنه

---

(١) مذكراته الخطية.

(٢) محمد محمود التندغي: نسبة الى تندغ، وهي قبيلة من قبائل الزوايا في شنقيط ويقال لهم العلويون وقد تقدمت الاشارة الى ان ادوعل من الزوايا علويون لأن كلمة - ادوعل - محرفة من آل علي، وقد اطلقت هذه الصفة على جميع الزوايا خلافاً للحقيقة، جاء محمد محمود هذا الى العراق، في معية الملك علي بن الحسين عندما كان فيصل الأول بن الحسين ملكاً على العراق، وذلك لاختلافه في الرأي مع الوهابيين اتباع محمد بن عبد الوهاب لميله الى الصوفية والأولياء، فأفرد له الملك فيصل داراً تليق بمقامه وأجرى عليه وعلى ولده معه مرتباً يكفيهما وراح يعظ الناس، ويرشدهم ويروي لهم حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في جامع الفضل في بغداد، وأكد لي كل من عاصره من العلماء والمستمعين لدروسه أنه كان آية في الحفظ والذكاء =

سمع أنهم من ذرية سليمان بن عبد الله المحض، وعقب على هذا قائلا: «قلت ولست على ثقة من هذا الكلام، وهو ممكن، فان سليمان الذي

= وسرد الحديث ومعرفة رجاله معرفة تامة، وممن أكد لي ذلك أستاذنا الشيخ كمال الدين الطائي إمام وخطيب جامع المرادية في الميدان والمدرس في مدارس الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي أبدى اعجابه به وأفاض في الثناء عليه، وقال: قد كان محمد محمود هذا مفتي المالكية في مكة المكرمة، وعند استيلاء عبد العزيز السعود على الحجاز نزح الى العراق لاختلافه في الرأي مع المذهب الوهابي الرسمي يومذاك، وذكر أنه كان آية في شرح الأحاديث وحفظها وترجمة رجال السند باسهاب وتمحيص، فحاز إعجاب جميع البغداديين الذين حضروا مجالس دروسه.

كما ذكر مثل ذلك الشيخ عبد الوهاب عبد القادر إمام جامع حسن بك في الاعظمية، وأضاف بأن الملك فيصل أراد ان يسند اليه جهة الافتاء، إلا أن بعض المتنفعين عارضوا في ذلك وتمنوا إزاحته لأنه غطى عليهم، وأصبحوا وكأنهم طلاب في حلقة درسه. أما سبب خروجه من بغداد فقد ذكر لي الحاج عبد الرزاق بن حسين المؤذن في جامع أبي حنيفة والذي كان يحضر مجالس دروسه في جامع الفضل هو عبد القادر الخطيب الذي كان يقرأ القرآن في ابتداء دروس الشيخ التندغي فيسرّ به ويعجب بقراءته، وهو يومئذ طالب علم ناشىء. وبعد هذا كان يطلب الى ابنه محمد أن يقرأ النص في الكتاب، ثم يأخذ هو بالشرح، فيفيض كالبحر الزاخر، لا يردد عبارة ولا يكرر لفظاً، وكأنه يتلو عدة أسفار، والناس من حوله آذان مصغية كأن على رؤوسهم الطير. وبعد أن طال به المقام في بغداد بدا له أن يتزوج، فدل على أهل بيت في محلة الفضل، وخطب اليهم ابنتهم الباكر، ودفع الصداق، وعقد النكاح، وأثناء الدخول وجدها غير تلك التي خطبها، بل كانت عجوزاً لا تصلح له. فردها، وطلق تلك التي تم عقده عليها، وامتعض من ذلك امتعاضاً شديداً، ولهذا وغيره من الأسباب ترك العراق وقصد الاردن حيث الملك عبد الله ابن الشريف حسين الذي رحب به أجمل ترحيب. وبقي هناك حتى توفي في عمان - رحمه الله - اما ابنه محمد فقد بقي في الأردن متعاوناً مع الملك عبد الله حيث تقلد في عهده عدة مناصب خطيرة، كوزارة العدل، والمعارف، وقاضي القضاة، وبعد وفاة الملك عبد الله ظل مخلصاً لحفيده الملك حسين بن طلال، الذي أناط به الاشتغال في السلك الخارجي سفيراً للمملكة الاردنية الهاشمية.

ذكره المؤرخون أنه دخل الى افريقيا بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية، وان له عقباً في المغرب والسودان، وأن أكثر ذريته خفي أمرهم فيحتمل أنهم من ذريته (أي بني حسن) والله أعلم».

وقال أيضاً:« إنه لما حج سنة ١٣٣٦ هـ اجتمع بأناس من أهل شنقيط ذكروا له أن الشيخ سيديا بن الشيخ سيدي الكبير بن المختار بن الهبة التندغي ألف كتاباً في أحوال القبائل الموجودة في شنقيط وذكر عن قبيلتهم (قبيلة صاحب الترجمة) أنهم من ذرية محمد بن الحنفية».

ومن كل هذا يتبين أن الروايات متضاربة في اتصال نسبه بآل علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - فاما قول محمد محمود التندغي بأن له خؤولة في بني حسن ويعدون ذلك الانتساب رحماً بينهم وبين رسول الله، فمعناه أنهم ينتسبون لآل فاطمة أي من ذرية الحسن، وأيد ذلك برواية باب أحمد بأنهم من ذرية سليمان بن عبد الله المحض، ومال الى امكان تصديق ذلك بقول المؤرخين - ولم يستند الى مصدر - بأن سليمان هذا دخل افريقيا بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية، وله عقب في المغرب والسودان ويحتمل أن تكون قبيلة بني حسن هذه من ذريته. وبعد التحقيق تبين أن سليمان هذا لم يأت افريقيا بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية الذي قتل في ثورته على أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ ولكنه بقي حتى سنة ١٦٩ هـ حيث قتل في وقعة فخ[1] منضماً الى ثورة ابن عمه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم التروية الثامن من ذي الحجة سنة ١٦٩ هـ وكان على رأس الجيش الذي حاربه

---

(١) تقع فخ على مسافة ستة أميال من مكة.

جماعة من بني هاشم منهم سليمان بن أبي جعفر ومحمد بن سليمان بن علي في أربعة آلاف فارس فقتل الحسين واكثر من معه وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير[1] وكان معه سليمان بن عبد الله المحض ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فأسر في هذا اليوم، وضربت رقبته بمكة صبراً، وقتل معه عبد الله بن اسحٰق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن وضربت عنقه صبراً، وأخذ لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان فحبسا، ثم قتلا بعد ذلك[2].

وأما الطبري فقد روى في حوادث سنة ١٦٩ هـ في خلافة موسى الهادي أن ثورة الحسين بن علي بن الحسن صاحب فخ كانت أول ما ظهرت في المدينة، ثم خرجوا إلى مكة، ولما بلغ الهادي خبر خروجهم انتدب لقتالهم محمداً بن سليمان بن علي والتقى الفريقان بفخ فقتل الحسين ابن علي، قتله رجل من أهل خراسان، وفيها قتل الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن المعروف بأبي الزفت، واحتزت الرؤوس من العلويين فكانت مائة رأس ونيفاً، فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وذلك يوم التروية (٨ / ذي الحجة)، وأفلت إدريس

---

(١) ورثى الشاعر دعبل بن علي قتلى فخ وباخمري وكربلاء بقصيدة طويلة ومنها قوله:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

الى أن يقول:

قبور بكوفان وأخرى بطيبةٍ ... وأخرى بفخ ما لها صلوات

وأخرى بأرض الجوزجان محلها ... وقبرٍ بباخمري لدى القربات

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٧.

ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من وقعة فخ في خلافة الهادي فوقع الى مصر.

قال الطبري: «وعلى بريد مصر - واضح - مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور، وكان رافضياً، فحمله على البريد الى أرض المغرب، فوقع بأرض طنجة بمدينة يقال لها - وليلة - فاستجاب له من بها وبأعراضها من البربر، فضرب الهادي عنق واضح وصلبه، ويقال ان الرشيد ضرب عنقه، وأنه دسَّ إلى إدريس الشماخ اليمامي مولى المهدي، وكتب له كتاباً إلى ابراهيم بن الأغلب عامله على افريقية، فخرج حتى وصل الى وليلة، وذكر أنه متطبب (يدعي الطب)، وأنه من أوليائهم، ودخل على إدريس فأنس به، واطمأن إليه، ثم انه شكا إليه علة في أسنانه، فأعطاه سنوناً مسموماً قاتلاً، وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر لليلته، فلما طلع الفجر استن إدريس بالسنون وجعل يردده في فيه ويكثر منه، فقتله، وطلب الشماخ فلم يظفر به وقدم على ابراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه، وجاءته بعد مدة الأخبار بموت إدريس، فكتب بن الأغلب الى الرشيد بذلك، فولى الشماخ بريد مصر وأخباره».

وذكر الطبري «أن من هرب من وقعة فخ يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن، فأما ادريس فلحق بتاهرت من بلاد المغرب، فلجأ إليهم، فأعظموه، فلم يزل عندهم إلى أن تلطف له، واحتيل عليه فهلك، وخلفه ابنه إدريس بن إدريس، وبقي بتلك الناحية هو وذريته مالكين لها»[1].

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٤١٠ - ٤٢٠.

فالنسب العلوي الذي يمكن أن يكون في المغرب، وموريتانيا هو إما من ذرية يحيى بن عبد الله المحض، أو من ذرّية إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض، وهذه كلها احتمالات غير مؤكدة، والدليل على ذلك تضاربها. وأما الانتساب الى محمد بن الحنفية نسبة الى كتاب ألفه الشيخ سيدي بن الشيخ سيدي الكبير فهو أيضاً وارد بطريق السماع، ولم يطلع صاحب الترجمة على هذا الكتاب ليتبين منه صحة البحث والدليل، وإذا صح ذلك فمعناه أنهم ليسوا من ذرية الحسن ولا من ذرية فاطمة لأن محمداً بن الحنفية ليس ابنا لفاطمة فهم علويون فقط، وليسوا حسنيين، وأما الذين يدعون الانتساب لجعفر بن أبي طالب، فليسوا علويين أيضاً، بل هم هاشميون فقط. وإذا كان الزوايا علويين، وبنو حسن (أدابَلْحَسَنْ) من الزوايا كما تقدم[1]، فيحتمل أن يكون بنو حسن علويين، غير أن صاحب الوسيط نفسه قال: «صار لفظ الزوايا علماً على قبائل كثيرة أغلب سيرها في تعلم العلم وتعليمه، وتعمير الأرض بحفر الآبار، وتسيير القوافل، وقري الضيف[2]. فيبدو من هذا أن ليس كل الزوايا علويين. والدليل على ذلك ان صاحب الوسيط اختص قبيلة - أدوعل - من قبائل الزوايا بأنها علوية، فلو كان جميع الزوايا علويين لما اختص ادوعل بهذا النسب، وبالقياس الى التسميات المحلية في شنقيط فيغلب على الظن أن الكلمة - أدوعل - تشير الى آل علي، أو بني علي، مثل - ادابلحسن - أي بنو الحسن، ولما راح صاحب الوسيط يترجم لعدد من العلماء والأدباء في شنقيط اختص قسماً منهم بقوله:

---

(١) الوسيط ص ٥٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧٨.

العلوي. فقال مثلاً عن عبد الله بن محمد من قبيلة أدوعل، قال ينتهي نسبه الى يحيى العلوي الجد الجامع لأكثر القبيلة في تلك البلاد، وهذا يشير الى انه من ذرية يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو موافق لما ذكرنا من رواية الطبري المتقدمة الذكر، وهكذا كان صاحب الوسيط عند ترجمته لمن يعتقد أنه علوي فيصفه بذلك، أما من سواهم فلم يشر إليهم بهذا اللقب، بل ينسب كلاً لقبيلته.
ويبـدو أن العلويين في شنقيط كانوا معروفين بطوائفهم رغم انضوائهم تحت قبائل كبرى مثل حسان، أو بني حسن، أو الزوايا، لعجزهم عن الانتجاع والحل والترحال، كما ورد لدى معظم من ألف عن شنقيط، وموريتانية، ولذا صارت كل قبيلة احتوت على عدد من العلويين ادعت أنها منهم، فكل الزوايا وحسان وبني حسن ادعوا هذا النسب، ومما يؤيد عدم الاعتماد على صحة انتساب الشيخ محمد أمين الشنقيطي الى ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب هو ما تقدم من أن بني حسن من عرب المعقل نسبة الى الحسن بن منصور بن محمد بن معقل وهو ربيعة بن الحارث حيث ينتهي نسبه الى مذحج. وأما حسان فهم أبناء عمومتهم، فهم بنو حسان بن مختار بن محمد بن معقل[1] ولا يبعد أن تكون بعض هذه القبائل اختلطت بالتزاوج بحكم البيئة، ولذا أشكل على معظم الباحثين الوقوف على جذور وتسلسل أنسابها.

٧ - شعراء بني حسن:

لو لم نلزم البحث بمسايرة صاحب الترجمة باختصاصه قبيلته - بني حسن - بكثرة شعرائها المجيدين لكان عنوان هذه الفقرة من البحث

(١) موريتانيا الحديثة ص ٧٦، ٧٧.

هو - الشعر والشعراء في شنقيط - وذلك لأن هذا العنوان بذاته يصح أن يكون عنواناً لكتاب كبير، أو لبحث يتقدم فيه باحثه لنيل درجة من درجات الدراسات العليا، وذلك لكثرة ما يجد الباحث من الاعداد المتزايدة من هؤلاء الشعراء الفحول المجيدين العريقين في الجزالة اللغوية، والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة في شتى الأغراض، حتى أن الدارس ليعجب من رقة أذواق وعواطف هؤلاء الشعراء العلماء الصوفية المتدينين، وهم يحلقون في وصف الخصور والنحور، والمطـل والوصال، والقـدود المائسة، والعيون الناعسة، والارداف الثقيلة، والخصور النحيلة، فلا تعدو أن تجعله عاشقاً مفتوناً يغالب بالورع والتقى، الحب والهوى. أقول لولا مسايرة البحث مع الشيخ محمد أمين الشنقيطي في اعطاء بني حسن السهم الأوفر من التعريج على شعراء بني حسن خاصة، ولولا الخروج عن موضوعية البحث لافتتنت أيما افتتان في عرض هذا الشعر من أدب وشعر الشناقطة الذي يستوجب الدراسة والبحث بصورة خاصة، ولكنني - ولأنني مأخوذ بسحر هذا الشعر وشعرائه- فقد لا أترك فرصة تعنّ الا وأخرج فيها عن الموضوع استطراداً لأعرض شيئاً من هذا الشعر الرقيق الجميل.

ولكن لنعد لذكر شعراء بني حسن الذين قال عنهم صاحب الترجمة إن هذه القبيلة اشتهر أبناؤها أكثر من غيرهم بوفرة الشعراء المجيدين، حتى كاد الشعر أن يكون فيهم طبعاً جِبِلّياً موروثاً، وأستدل على ذلك بقول أحدهم وهو: محمد بن سالم البنعمري[١]، الذي يفتخر بأنه يقول

---

(١) نسبة الى أعمر كداش جد بطن من بطون قبيلتهم.

الشعر سليقة ، من غير أن يدرس آلته وموازينه ، وفنونه ، ولأنه قد أرضع علم النحو ، وإحكام قوافي الشعر من أثداء أمهاته. فيقول:

النحو علم كفاني من تعلمه مُلج الثُّديِّ ،ثديّ الهيف من حسن[1]

ومما يستدل به على انتسابه لقريش - بزعمه - قوله:

مصداق أني كريم العيص[2] منتسب إلى قريش بيوت العز والجدل
نسجي القريض وإحكامي قوافيه ولا أميز بين العطف والبدل

وليس له من حجة في انتسابه إلى قريش سوى بداهته، وحسن سليقته في نظم الشعر والاجادة فيه ، وذلك من غير أن يدرس أغراضه وفنونه، كما قد كفاه من تعلم القواعد النحوية أمهاته العربيات من بني حسن اللائي أرضعنه إياه مع اللبن من ثديهن فنشأ شاعراً بليغاً ، وهو لا يميز في النحو بين العطف والبدل . وقد تصح حجته في مثل هذا المجال على صحة نسبه العربي عموماً، وليس على التخصيص بانتسابه إلى قريش، لأن هذا الادعاء خاضع الى الأدلة التاريخية، وسلاسل الأنساب ، وليس الى قول الشعر الصحيح بالسليقة ، والا لكان كل شعراء العرب أولى بهذا الادعاء ، وأما اختياره عدم التمييز بين العطف والبدل فليس دليلاً على جهله بالنحو جهلاً تاماً ، وذلك لعدم التفريق بين عطف البيان والبدل ، حيث يصح في عطف البيان أن يعرب بدل كل من كل لما فيه من البيان إلا إن امتنع الاستغناء عنه، وإذا صح الاستمساك بهذه الحجة فيصح أن نعتبر جميع شعراء العرب قبل وضع

---

(١) يشير الى جدهم الأعلى الحسن بن منصور بن محمد وربما الى الحسن بن علي بن أبي طالب.

(٢) العيص: الأصل.

القواعد النحوية قرشيين لأنهم لا يميزون بين العطف والبدل بأسلوب خاضع للقواعد النحوية الحالية. وهذا ما يؤيد ما تقدم ذكره من أن معظم القبائل في شنقيط تدعي انتسابها لآل علي، لاختفاء هؤلاء العلويين من ذراري إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن، أو من يحيى بن عبد الله بن الحسن، أو من محمد بن الحنفية أو حتى من ذرية جعفر بن أبي طالب، حيث كان اختفاؤهم في افريقية والمغرب على الأخص بسبب مطاردة الأمويين والعباسيين لهم، وتتبع آثارهم في كل مكان للقضاء عليهم، تخلصاً من ادعائهم بالخلافة، وقد سمي علوياً - في شنقيط - من كانت أمه علوية فقط، مع أن نسب الأم لا يلحق بنسب الولد، ومن هذا القبيل أورد صاحب الوسيط في ترجمة - محمد لحبيب - بن لمرابط، بن سيدي ببكر، بن الطالب من الأغلال، وهي قبيلة بكرية، قال في ترجمته في الصفحة (٩٠) إنه معدود في العلويين، لأن أمه علوية، واسمها - بيَّب بنت زَرُّوق، بن الطالب أحماد، كما أنه أشار الى قاعدة غريبة في باب النسب حيث يتأثر بالأكثرية، خصوصا بين قبيلتي أدوعل العلوية، والاغلال البكرية، فان العلوي إذا وصل - إركيب، وما بعدها، وهي منازل الأغلال، فلا ينتسب إلا غلاديا، وكذلك الغلادي إذا وصل - تكانت - أو - أدرار - وهي منازل العلويين، فلا ينتسب إلا علوياً، وهذا هو السبب في صعوبة التحقيق أحياناً في أصول بعض الأنساب[1]، وأدوعل منسوبة الى يحيى بن عبد الله، ولا يطلق هناك لفظ علوي الا على من كان من هذه القبيلة، «الوسيط ص ٨٩» ويعرف محمد بن سالم هذا في شنقيط بـ (محمذٍ) بذال

---

(١) الوسيط ص ٩٤.

معجمة مكسورة منونة، ويلتقي نسبه بالشيخ محمد أمين صاحب الترجمة بجدهم - أعمر كداش -، ووصفه صاحب الوسيط بأنه: أسمر اللون، وقد كف بصره في آخر عمره، وهو شاعر مجيد، رقيق الألفاظ، سلس التعبير، عاش في صدر القرن الرابع عشر الهجري، وكان مقيماً عند الشيخ سيديَّ الكبير بن المختار الابييري، وله شعر كثير جيد، ومنه القصيدة التي مدح بها الشيخ سيديَّ، فقال:

قفـا نستنطـق الدمن البوالي	ونبـكِ أعصر اللهو الخوالي
قفا بي لحظـة أسكـب دموعي	بأغـبر موحش العرصات بـال
بشق البيـت[1] غـيره السوافي	وأقـدم عهـده مَرُّ الليـالي
تكنسه[2] ذوات شوى ضئـالٍ	مكـان مهًى ذوات شوى خِدالِ
وكم غنيـت بساحتـه عَرُوب[3]	تبسم عن عوارض كاللئـالي
خَدَلَّجـة[4] المخلخـل عُـلَّ فوهـا	شآميـة كلون دم الغزال
تماطـل بالمؤمـل من جناهـا	بُغَـاتِ البُسلِ[5] هيِّنـةُ الحـلال

(١) شق البيت: موضع.

(٢) تكنسه: إتخذته كناساً وهو بيت الظبي، والشوى: اليدان والرجلان والأطراف. وخدال: ممتلئة ضخمة.

(٣) العروب: المرأة الضحوك الحسنة التبعل لزوجها، ومنه قوله تعالى ﴿عُرُباً أتراباً...﴾.

(٤) خدلجة المخلخل: ريانة الساق غليظته.

(٥) البسل: الحرام: ولو قال: تمانع بالمحرم من جناها، لكان أكثر مدحاً لها من قوله: تماطل بالمؤمل من جناها: لأن المماطلة لا تدل على الرفض والاستنكار، بل على التسويف والتأجيل وهو ليس من صفات الحرة العفيفة، ويؤكد ذلك قوله: بالمؤمل من جناها: حيث يأمل المراود لها أن تستجيب لطلبه ولو بعد حين، كما قال بشار بن برد:

عسر النساء الى ميـاسرةٍ والصعـب يمكن بعدمـا جمحـا

ويمضي قائلاً في مدح الشيخ:

إمـام في مصالـح ذي البرايا وفي كسب المحامـد غـير آل
يقصِّر عن مـداه أبو عـدِيٍّ[1] ويحيـى وابن مامـةَ في النوال
يـداه غمامتـان على البراسَا[2] عـلى التـدآب دائمتـا انهمال
فـذي عمَّـت بصيِّبها وهـذي تخـص بـه ذوي الهمم العوالي

واتفق أنه نزل عند امرأة ضيفاً ولم تكن تعرفه، فلم تفرش له، ولم تكترث به، فمر به رجل يعرفه، فلام المرأة، وعرفها بضيفها، فاعتذرت له فقال:

نزيلـك فأمـني أبـداً أذاه نزيـل غـير مرهوب المصال[3]
ضعيـف لا يخاف البطش منه عفيـف لا يسب عـلى النوال
قراه إذا ألمَّ بـأرض قوم مفاكهـة اللبيـب من الرجـال

ومن جيد شعره، وقد ارتحل عنه قومه، وبقي فريداً ليس معه غير كلب يقال له فيداح، فقال يخاطبه[4]:

أصخ لسرد قريض الشعر فيداح إن كنت ممن لسرد الشعر يرتاح

---

(١) أبو عدي: حاتم الطائي المشهور بالكرم، ويحيى: هو يحيى بن خالد البرمكي وشهرته في الندى معروفة، وابن مامة: هو كعب بن مامة الايادي الذي آثر رفيقه بنصيبه من الماء ومات عطشاً.

(٢) البراسا: بمعنى الناس، وقيل جماعة الرجالة. «الوسيط ص ٣٠٠».

(٣) المصال: الماصل القليل من اللبن أو العطاء أي يكفيه مثل ذلك ولعله أراد المصاولة وهي الصولة والقدرة.

(٤) ربما ارتحل عنه قومه لوباء ألم به كالجدري الواسع الانتشار بينهم يومذاك، ومن عادتهم في الصحراء أن يرحلوا عن المصاب ويتركوه داخل خيمة مع طعامه وشرابه وفي حماية كلب من كلابهم ويؤيد ذلك البيت الرابع أعلاه.

قد أصبح الشعر عمري لا رواة له ... إن لم يكن من رواة الشعر فيداح
نعم المرافق، لولا قبح منظره ... ينفي الذئاب، إذا يعوي فتنزاح
إن يطرحوني أرضاً لا يصاحبني ... إلا ألصُّ[1] هريت[2] الشدق نبَّاح
فقد يسامرني في مجلس عطر ... شم الأنوف لهم كتب وألواح
وقد أغازل جمَّاء[3] العظام على ... أنيابها العنبر الهندي والراح

وورد أنه كان يذاكر مع طلاب الشيخ سيديَّ الكبير وهو مقيم عنده، وهذا ينفي ما ورد بقوله أنه ينظم الشعر من غير أن يدرس آلته، حتى أنه لا يفرق بين العطف والبدل، واتخذ من ذلك دليلاً على انتسابه لقريش. ومرة كان يقابل مع بعض هؤلاء الطلاب ديوان الحماسة لأبي تمام ومر ببيتين أعجب بهما فضمنهما قصيدة له. والبيتان هما:

ما استحسن الناس من اكرومة سلفت ... إلا رأوها على استحسانها فيكا
ولا تحلوا بمعنى يستحب لهم ... إلا وكان معاراً من معانيكا

فقال في ذلك:

ودق الرواعد نزرٌ من أياديكا ... ونفحة المسك هبت من نواحيكا
ومن جَداك استمد البحر مادته[4] ... فما جرى البحر الا من جداويكا

ويمضي قائلاً:

نيل الأماني قليل من تفضلكم ... على جميع الورى في حق عافيكا

---

(١) الألص: المتقارب المنكبين والأضراس.
(٢) الهريت: الواسع الشدقين.
(٣) جماء العظام: كثيرة اللحم، سمينة.
(٤) هكذا في الأصل وأعتقد أنها - مدَّته - ليستقيم الوزن والمعنى.

وقد أرى الناس فيكم ينشدون وما منهم محيط بأدنى من أياديكا
« ما استحسن الناس من اكرومة سلفت إلا رأوها على استحسانها فيكا »
« ولا تحلوا بمعنى يستحب لهم إلا وكان معاراً من معانيكا »

ويختمها معتذراً:

فشأني الصمت، إن الصمت أبلغ من نطق الألى زعموا أن بالغوا فيكا
أقررت بالعجز عما فيك يا أملي إذ فيك ما فيك مما الله موليكا

وكأن صاحب الترجمة - الشيخ الشنقيطي - استعار معنى البيتين الأخيرين في أبيات له مدح بها الشيخ ماء العينين والتي منها قوله:

أفي ثنائي عن إطالتي الثنا وموِرثي عن مدحك التقصيرا
أني إذا حاولت مدحاً لم أطق عن بعض ما حاولته التعبيرا

ثم أقحم جريراً في هذه التجربة مما لا مجال لاقحامه في قوله:

يا من لو أن جريراً أصبح رائماً من مدحه المعشار فات جريرا

مع الفارق بين ركة شعر الشيخ ومتانة شعر البنعمري الذي يرسل الشعر من قريحة خصبة، وببلاغة رصينة، وخيال واسع، وقد ترجم له صاحب الوسيط ترجمة ضافية[1].

ومن شعراء بني حسن المجيدين : محمد بن حنبل وقد مرت ترجمته، ولو أنّا لم نوفه حقه من عرض الجيد الكثير من شعره، مما أورده صاحب الوسيط في ترجمته ابتداءً من الصفحة ٣١١ وما بعدها، وللطرافة الدالة على تواضعه، وظرافته نروي له الأبيات التالية من قصيدة له قال في مطلعها:

---

(١) الوسيط الصفحة ٢٩٩-٣٠٤.

لا تملي يا عين رعي النجوم   وانهلالات دمعك المسجوم
قد جنيت الهوى شهياً جناه   فاستحالت ثماره كالسموم

والطريف فيها قوله:

لا يظنُّ الظَّنُونُ أن مقامي   باليُنَيبيعِ لاطِّلابِ العُلومِ
بل لغَربيةٍ تَهُبُّ فأشفى   سقم القلب من حشاي الكليم
حبَّبَتْ كل شقرويٍّ إلينا   من حميم لها وغير حميم

أفهل أنت إمام عالم ورع فقيه ناسك أم إمام شاعر مغرم متحد؟

وما لي لا أختم البحث في شعره بعرض هذه الأبيات التي تصوره لك صائدا مقتنصاً روع ظبيته السانحة فضولي فنفرت ولم تعد وأعقبته حسرة وأسى فقال:

نفسي الفداء لظبي هاج أحزانا   وغادر القلب من نجواه حيرانا
ويسرد النغم يجري في مفاصلنا   جريَ السُّلافةِ في أوصال نشوانا
بيناه يظهر لي ليلاً على قمرٍ   على قضيبٍ كغصن البان ريَّانا
إذ قال من لا جزاه الله صالحةً   هذا فلان فعاد الوصل هجرانا
فناءَ عجلان مرتاعاً فثَبَّطَهُ   ردف يثبطُ من قد ناء عجلانا

أرأيت الى هذه الصور الجميلة، والمشاعر الرقيقة المرهفة، والحب العلوي الدفاق، الذي يعطيك صوراً رائعة عن شنقيط في العلم والأدب، والتصوف، والورع، والعاطفة المشبوبة الجياشة؟.

ومن شعرائهم أيضاً - المختار بن المعلَّى - الذي مدح العلويين بقصيدة تشتمل على ثلاثة بحور وأجابه شاعرهم محمد بن محمود الملقب بـ (أبَدَّ) بقصيدة تشتمل على عشرة بحور، فأجابها ابن المعلى بأربعة أبيات

تقرأ في كل البحور، فرد عليه أبدَّ ببيتين يقرآن في كل البحور. وساقا هذا الشعر في معرض المدح، وإنما المراد به التعجيز لما بين الحبين من المنافرة القديمة وحسم هذه المنافرة بينهما حرم بن عبد الله بن عثمان مجيباً المختار بن المعلّى قائلاً:

أبــــني أحمد بن أعمر كنتم — لمن اغـــتر مأمنـــاً وربيعـــا
إن يكن من صنيعكم ان رفعتم — عـالي النـاس فوقكم والوضيعا
لا يضـــركم ذاكم فأنتم الأعلـــو — ن اتضعتم تأدبـــاً وخشوعـــا
ضمن الــبر والتقــى لــكُمُ أن — لا تزالوا فوق الأنـــام جميعـــا
في مكـان لا يطمع الناس فيه — وكفاهم مـــا دونـــه ترفيعـــا
فمساميـــكم والمسابـــق كـابٍ — قاصرٌ عما لم يكن مستطيعـــا
فدعوا عنـــكم التأنـــق في المد — ح والاعجــاز فيــه والتنويعـــا
ليس بعـد النور المنزل إعجـا — زٌ، فما الحسن بعـــده ممنوعـــا
وعليـــكم منـــا السلام سلامٌ — كشذا المسك بعد هدءٍ أذيعا

ويشير الشاعر العلوي هنا الى شرف قبيلة بني أحمد بن أعمر گداش قبيلة صاحب الترجمة الشيخ الشنقيطي، الذي استشهد بها في مذكراته - التي سنبثها في آخر الكتاب - للاستدلال على شرف قبيلته. ولو أنه استعار معنى عجز البيت الأخير مرتين في أبياته التي مدح بها الشريف حسين - كما سيأتي -.

وأما عبد الله الملقب بالأحول، فهو من شعراء بني حسن الفحول، وقد اشتهر بقصائده الحماسية التي يصف فيها المعارك الحربية الدائرة بين قبيلته وقبائل العلويين، ومما قاله في هذا الصدد:

جـادت بطيف سرى لي أمُّ عمَّار — لله لله لقياطيفهـــــــا الساري

أهلاً به من مسلٍّ صوبنا قذفت … بيداً لبيد وأصحاراً لاصحار[1]

لا وصل من أم عمار أؤمله … ما لم تزر في منامي أم عمار

لو كنت زير نساءٍ كنت زائرها … بل زير حرب أخوها غير زوار

إنا بنو الحرب لا نشكو أظافرها … لو جرحتنا بأنياب واظفار

خضنا لواها وجنبنا بني حسنٍ … حمل المغارم من حملٍ وأوزار

والخيل فيها على الابناء نؤثرها … صوناً، فيا لك من صونٍ وإيثار

ومن قصيدة له أخرى في هذه الحرب:

تداعت حداة الركب من كل جانب … فودِّعْ سليمى قبل سير الركائب

فان ضعفت أسباب ذلك بينها … وبينك إلا سَرْق وَمْأ الحواجب

وكيف وداعُ الحِب آخرَ كلما … دنا منه صدته مخافة راقب

سلام عليها أين غابت بها النوى … عن العين من حِب عن العين ذاهب

ففاضت دموع العين حتى تناثرت … تناثر نظم اللؤلؤ المرّاكب

فقلت لصحبٍ أكثروا العيب في البكا … وليس بكاء الوجد بعض المعائب

دعوني وتسكابي الدموع فربما … يُقِلُّ الأسى فيضُ الدموع السواكب

فان كنتُم صحبي فموتوا معي أسى … ولا تتركوني هالكاً دون صاحب[2]

إلى أن يقول:

---

(١) ورد في الأصل: أهلا به من مسلم وهو لا ينسجم مع الوزن والمعنى. وروي أهلا به من ملم، كما عيب عليه جمع صحراء على أصحار وهو غير وارد. وروي أيضاً: «وأسمار الاسمار» وقال صاحب الوسيط «وهذا غلط أشد من الأول لأن الطيف لا يصح أن يقذف أي يرمي سمراً لسمر». «الوسيط ص ٣٠٥».

(٢) وفي الأصل «صاحبي» بالياء وهي بدونها أعم وأشمل.

لـدى مشهدٍ دارت رحاهُ فجرّعتْ صناديدهم حتفاً مريرَ المشارب
وولوا سراعـــــاً مدبرين كأنهم بُغاثٌ تهادى من صقورٍ دوارب
وقهراً طردناهم وخضنا حماهُم وهجنا همومَ المعولاتِ النوادب
فطوراً يلطِّمن الخدود وتارةً يُلطمن بالأيدي أعالي الترائب

والقصيدة طويلة يقول في آخرها:

وجلجل رعدٌ ينهمي عند هزمه نجيع العدى لا ماء غُرٌّ السحائب
بنو الحرب لا نعطي القويّ مقادةً ولا نشتكي فيها نزول المصائب
ولكننا نحمي الحمى ونحوطه ونزداد صبراً تحت كل النوائب
ومن شاء فلينظر عواقب مَعشرٍ جنى حربنا يزجرْهُ شؤم العواقب

ومما قال في الغزل:

شدوا المهارىٰ بأكوارٍ وأخداج وأدلجوا تحت ليل أليلٍ داجِ
وأصبحت دارهم قفراً معطلةً مبكى دواعي هديل شجوها شاج
تلوح آثار من بانوا بمعهدها مثل البُرودِ وشتها كف نسّاج
فما علمـــــت ولم أشعر ببينهمُ إلا بجون من الغربان شحّاج[1]
فظل يشحج فاهتاج الفؤاد له لله ما هاج شحّاج لمهتاج
تباً لعيسٍ نأت عني بناعمةٍ غيداء ريانة الحجلين مغناج
تسبي فؤاد الحليم المرعوي بدُجى ليل ووجه كضوء الصبح وهّاج

وهكذا يمضي الاحول متدفقاً في شعره تدفق الشلال في هديره وعذوبته.

---

(١) شَحَجَ شحيجاً وتشحَّج البغل أو الغراب: صوَّتَ، أو غلظ صوته.

ومات رحمه الله في صدر القرن الثالث عشر الهجري، في وقعة تندوج بين بني حسن والعلويين[1].

ومع ما جرني البحث إليه من الافاضة والاسهاب في شعراء بني حسن الفحول، فلست بِتارك واحداً من سراتهم في هذا الفن، وهو المعروف بـ - سيدي عبد الله بن أحمد دام - الذي عاش في صدر القرن الثالث عشر الهجري. وعلى كثرة ما روي له من الشعر الجيد، فلم أشأ الا أن أدوِّن هنا طُرفاً من شعره يستبين منها ظرافته ورقة طبعه وشدة حنينه، وسمو عواطفه.

ومن أبدع ما ورد في هذا الباب أبيات نظمها في صورة تمثلها فقال:

ما سَفَّهَ الحلمَ واستصبى أخا كِبَرٍ	كالكاعب الرُّود لم تَعْد اثنتي عشرَه
كأنها قَننٌ طوعَ الرياح فما	تنفكُّ مسفرة طوراً ومختمرَه
عجلى القيام ضحوكٌ عن مؤشَّرَةٍ	تُنسي ملاحتُها ذا لؤلؤٍ دُرَرَه
وفي الجواب وفي كل الذي نطقتْ	طيشٌ ترد به الاكباد منفطِرَه
يخال ذو الجهل أن الخَوْدَ ليس لها	لُبٌّ ويعجبه من ذاك ما اختبره

فلما سمعت امرأته هذه الأبيات غضبت وخرجت من بيته وقالت له: إبن لك بيتاً من الشعر، ويبدو أن زوجه قد فطنت الى التعريض بكبر سنها حتى راح زوجها يتصابى بابنة اثنتي عشرة. ولكن الشيخ أعرف باستمالة قلوب النساء فنظم هذه الأبيات يترضى بها صفية زوجه وهو يعدل في التغزل بينها وبين ابنة اثنتي عشرة فقال:

من يهجرُ الشعر جرّا عاذلٍ زجره	أم من يطيق صدود الحب إن هَجَرَهْ؟

---

(١) الوسيط ص ٣٠٤-٣١١.

أضحت صفية عن لقياكَ معرضة   والشعر يَعرض من مكنونه درره
لم أدر أيُّها أدهى مفارقةً   كلٌّ يحن فؤادي دائماً أثرَه
قد كنتِ يا ذي إلى نفسي محببةً   وربما صدَّقت حالُ امرئٍ خبرَه
طاشت عن القلب رميات الحسان سوى   سهميكِ قد قرعا اعشارَه العَشَره
فما عليك إذاً لو رحتِ عالمةً   أن القريض جنًى للفكر لن يذره
أم خلتني مثل أقوام عهدتهمُ   طوعَ الحلائل لا يعصونَ أمرَ مَرَه
كلا لعمرُ بناتِ الفكر نمَّقها   حرّانُ ذاد بها من همه شرره
بل ليت يوماً فتاةَ الحي إذ أمرت   أن ابتني من قريضي واسعَ الحُجُره
تدري حقيقته علم اليقين لكي   ترى البيوت سواه غير معتبرَه

أفهل رأيت الى هذه الصور الساحرة الجميلة، في هذه العبارات الرضية الجزلة الرقيقة التي تدل على شخصية شاعر مطبوع، وفنان موهوب؟ وظريف طريف؟.

وإذا عدونا هذه المشاعر المتميزة بالامتاع والمؤانسة، الدالة على المرح وخفض الجناح للأهل بتودد وقوة محجة، ورفعة اعتذار بحسن تخلص، إذا عدونا هذه الصور، فشد ما تستوقفنا صور الحنين الى الولد الصغار والأهل والوطن الذين خلفهم فيه بلا عون ولا رعاية في أقاصي بلاد السودان، وكان كلما أراد الرحيل إليهم ثبطه مثبط من قومه بحثاً عن الزاد والراحلة والرفيق، وأخيراً أقسم أن لا يتزود من زادهم، ولا يصحبه منهم أحد، ثم أنشد القصيدة التي نقتطف منها الأبيات التالية، وركب جمله وأمعن سائراً بين الوديان والمخارم والجبال والصحارى والوهاد، حتى حط رحاله بينهم: فاستهلها قائلاً:

تجلدت للتوديع والقلب جازع   وأخفيت ما كادت تُبين المدامع

ترقرق دمعٌ لو أطعت غروبه ذرفن كأجرى ما تفيض الدوافع

فيا عجباً أخشى الفراق وطالما حرصت عليه مكرهاً أنا طائع

أمَرُّ النوى منأىً حبيب إذا دنا لوتــك بمحبوب بــلادٌ شواسع

هما طرفا ميزان شوق كلاهما تطلقــني أهوالــه وتراجــع

أتيحت لغرب الأرض مني زيارة وفي الشرق أرض في المزار تنازع(١)

ومنها:

غدا إذ غدا فرخاه منه بمنظرٍ يثبِّط لو أن الشجيَّ يطاوع

أأصغي وأفراخي قد أعْرَض دونهم عِراضُ الفيافي والجبالُ الفوارع

دعاني إلى نسيانهم كل راقم على الماء صمَّتْ عن دعاه المسامع

إذا وعدوا بالمال ثُمَّ ذكرتُهم تلاشت إذاً لو يعلمون المطامع

الى أن يقول:

تكاسل إخواني الأقارب في الرَّخا لدن صدعت شملي الليالي الصوادع

فما استأجروا لي صاحباً من سواهمُ فرب أجيرٍ في المضايق نافع

ولكن كفتــني منَّــةً سيمنُّهــا فتىً لم تدم مني لديه الصنائع

جلادة نفسٍ بين جنبي مجرِّبٍ تهاب قتاد المنِّ منه الأصابع

ويصفر في عينيه ما استعظم الذي تهون لديه الداهيات القوارع

أما والموامي والهواجر والسُّرى وأنضائها منها رهيصٌ وظالع

لئن أسلموني للنوى لم يكن معي أخٌ لحُميًّا وحشة البين دافع

---

(١) يشير بهذا البيت والبيتين قبله الى ما ينازعه من الحنين من جراء عائلتين له إحداهما في شنقيط من بلاد المغرب والثانية في أقاصي السودان شرقاً ولا يستطيع الجمع بينهما ولذا فهو منقسم القلب موزع العاطفة بين أولئك وهؤلاء من الولد والزوجات.

لما أسلموا حيران يعين بأمره | إذا راح كل الناس وهو مقاطع
ولكن غنيَّ النفس أمضى عزيمة | من العضب جلَّاه الكميُّ المصارع

ويمضي قائلاً في الاعتداد بالنفس:

خليلَيَّ من يخشى آعتسافَ تنوفةٍ | لواهُ بِحَوْجا وهدُها والأجارع
فاني لمقدام على كل مهمهٍ | يتيه به لو كان يغشاه رافع[1]
جسورٌ على دُهم المخاوف في يدي | عُرى الحزم لا يلفى بها وهو ضائع
صبور على برح المشقات ينثني | عن أهوالها الزرقُ العيون السمادع
ولست لأمرٍ إن تعاصى بتاركٍ | ولست لِمَرءٍ في أموري أطاوع
أصيخ إذا قالوا واتبع ما أرى | وما سيفُ منقادِ القرينةِ قاطع
وما ضم ثوبي عاجزَ الهوء كلما | أشار عليه غيره فهو طائع

ويختمها بقوله:

ألا ليت شعري هل أراني بصبيتي | طليقاً من أيدي الناس والشمل جامع
عليَّ إذاً إطعام أضعافِ من مضى | وصومٌ بصيفٍ سبعةً متتابع[2]

أما قصائده في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وفي مدح الشيخ سيديَّ فهي غاية في الجزالة والإبداع والتصوير. وكفانا استشهاداً على

---

(١) رافع: هو رافع الطائي الصحابي، وكان من أشد الناس هداية، وهو دليل خالد بن الوليد لما أمره أبو بكر - وهو باليمامة - بالسير الى العراق فأراد سلوك المفازة بدلالة رافع الذي قال له: قد سلكتها في الجاهلية وهي خمس للابل، واقتحم به وبجيشه تلك المفازة فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع: انظروا، هل ترون سدراً عظاماً؟ فان رأيتموها، والا فهو الهلاك، فرأوا السدر وأخبروه، فكبر وكبر الناس، ثم هجموا على الماء.

(٢) قوله: أضعاف من مضى: يشير الى قصيدة له قالها في غربته يقول فيها:
«عليَّ إذاً إطعام ستين مسلماً»

سمو هذا الشاعر في التمكن من نواصي القريض من غير تكلف، والبراعة في دقة الصورة، وجزالة العبارة وقوة اليقين والاعتداد بالنفس ذات المثل العليا في الفخر والرجولة والاستقامة[1]، ولم يكن هؤلاء الشعراء من بني حسن الا صورة واحدة من صور الشعر والفن والأدب في شنقيط المتمثل بعلمائها وفقهائها ومتصوفيها من الزهاد، والنساك والمريدين، كما أشرنا الى ذلك ونوهنا به في ما تقدم من البحث، وقد لا نترك العودة الى هذا الموضوع عند سنوح المناسبة، حيث من حق الباحث أن يزيح الستار عن هذه المشاهد الرائعة، والصور الأخاذة بمناسبة وغير مناسبة ليدل الباحثين الآخرين على هذه الكنوز الدفينة في أرض شنقيط من بلاد موريتانيا العربية المسلمة التي، إن دلت على شيء فإنما تدل على الأصالة في اللغة والأدب والشجاعة والكرم والدين والتاريخ الشامخ بالفضائل والتراث والامجاد، فهو أدب غير متكلف وشعر غير مصنوع وخلق أصيل صميم، وأخيراً ما لي لا أكبح جماح القلم قبل أن يسترسل بي في مهاوي الاغراق والمبالغة، كما ذكرت ذلك وأشرت إليه من قبل.

٨ - عوامل النهضة العلمية والأدبية في شنقيط:

لقد مضى القول عن حدود شنقيط جغرافياً، كما ألمحنا عن بعض جوانب الصورة التي تتمثل بها شنقيط في مجدها العلمي حتى دعيت بمدينة العلماء، أو بلاد العلماء، ومرَّ النزر القليل من نماذج شعر شعرائها وما يوصف به من أصالة وفن أصيل، وفخامة، فهي إذاً بلد الشعراء

---

(١) وإن شئت الاستزادة فراجع ترجمته في الوسيط ص ٢٨٧ الطبعة الثالثة.

والأدباء أيضاً، وإذا علمنا أن نسبة الأمية تكاد تكون معدومة فيها بالنسبة للزوايا على الأخص رجالاً ونساءً، ومع هذا فلا مدارس نظامية ولا جامعات ولا كليات ولا حكومة تتولى الانفاق على هذه النهضة العالية حينذاك، فنحن أمام حركة علمية ذاتية تحتاج في تكوينها الى دراسة العوامل والأسباب التي دفعت بها الى هذا الرقي، وهذا التصاعد، من غير عون ولا امداد، ولا تشجيع، ولا كفالة في العيش والتوظيف والانفاق. ومع أننا لا نستطيع أن ندعي الإحاطة بكل أسباب هذه النهضة في العلم والأدب ولكن لا بد من الاشارة الى الخطوط العامة والنقاط التي نخالها رئيسية في هذا المجال والتي من أهمها:

أ - الإسلام:

الدين الاسلامي في أصل تعاليمه يدعو الى العلم والتعلم، ويصرح بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولما كان القرآن الكريم هو الدستور الاسلامي القويم، وقراءته وتدارسه فرض عين فهذا وحده وما يتفرع منه من مستلزمات لفهم أحكامه، ومعانيه، وبلاغته، وما يترتب على ذلك من دراسة للسُّنة النبوية والأحاديث، وما ينجم عن هذا كله من أصول وفروع في الفقه والتفسير واختلاف الفقهاء والأصوليين وما أشبه ذلك ليشكل علوماً مختلفة واسعة، تحدث في النهاية نهضة علمية دينية لغوية فكرية فلسفية لا حدود لها، وعلى هذا ارتكزت النهضة الاسلامية في عصورها الذهبية على هذه الدراسات وما تفرع منها من العلوم الطبيعية واللسانية والاجتماعية والبدنية والفكرية. واذا علمنا أن أهل شنقيط الذين نقصد بهم الآن - جمهورية موريتانيا

الاسلامية - كلهم مسلمون يقلدون مذهب الإمام مالك، وقد مرّ معنا عند بسط القول عن كيفية قيام نفر من أهل هذه البلاد في نشر الدعوة الى الاسلام خلال القرن الحادي عشر الميلادي والذي يوافق للقرن السابع الهجري وهو بدء تكوين قرية شنقيط عام (٦٦٠هـ) التي أنشأتها قبيلتا أدوعل (العلوية) والأغلال (البكرية)، وعرف هؤلاء الدعاة فيما بعد بالمرابطين. كما أتينا على تفصيله في ما تقدم من البحث، فالإسلام إذاً هو الباعث الأول على إذكاء نور هذه النهضة العلمية الاسلامية في موريتانيا الحديثة ودليلنا على ذلك ما يتمثل في نهضتها من علم وشعر وأدب فلا يعدو أن يكون مرجعه الى العلوم الدينية واللغة الاسلامية المتمثلة بلغة القرآن والنابعة من مفاهيمه، وبلاغته وأدبه.

ب - التنافس على الزعامة:

سبق أن ذكرنا أن السكان في شنقيط (موريتانيا) يتألفون من عناصر شتى، وأوضحنا في شيء من التفصيل أجناس وعروق تلك العناصر، وميزات بعضها عن بعض في الاتجاهات والرغبات، وكل مجتمع يتألف من عناصر مختلفة يحتدم فيه الصراع عادة للوصول الى الحكم، أو الشهرة، والاستئثار بشيء من الأشياء، وذلك حسب طبيعة تلك البيئة وما فيها من مؤثرات وعوامل ونزعات، فقد تكون تلك العوامل والمؤثرات دينية، أو علمية، أو اجتماعية أو الى غير ذلك وبحسب العقائد السائدة في ذلك المجتمع، وينشأ من جراء ذلك ما يشبه الصراع من أجل الوصول الى الزعامة وقد يتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة من طائفية، أو قبلية، أو قومية، أو دينية، أو فلسفية، وبناء على ذلك فقد تميز الصراع في شنقيط من أجل الوصول الى الزعامة بشكلين رئيسيين هما ديني وقبلي

وذلك لأن هاتين الوسيلتين أسرع أثراً في نفوس المجتمع الشنقيطي. ولذا فقد انصرفت طوائف من هذا المجتمع الى طلب العلم الديني وهي في الحقيقة وان كانت لا تشوبها شائبة في غايتها الدينية وتجردها المحض لنشر راية الاسلام والحفاظ على بيضة الدين، ولكنها في الوقت نفسه وجدت نفسها تمتلك ناصية الزعامة، وتنقاد لها الجماهير عن طواعية وبحب واحترام، حتى بلغ العالم الديني مجداً قد لا يساويه مجد أي حاكم من حكام تلك المناطق، كما كانت الأموال تنصب عليه انصباب المطر، والناس من حوله جثوم خشّع، فمدحه الشعراء بما لم يمدحوا به الأمراء، وأطاعه طلابه ومريدوه، والمتحلقون حوله اطاعة لا تقل عن إطاعة الجندي لأوامر قائده، إن لم تكن أشد إمعاناً واستجابة. فلم يبلغ أمير من أمراء الترارزة - مثلاً - من المجد والرفعة، مقدار ما بلغه الشيخ سيدي الكبير الأبييري التندغي، ولم يرفع أحد قدر قبيلته بشجاعته وكرمه مثل ما رفع هذا الشيخ قدر قبيلة تندغ بعلمه وورعه وتقاه، ولم يستطع أحد أن يناوىء الاحتلال الفرنسي في المغرب وشنقيط بقدر ما ناوأه، وقاد المجاهدين المتطوعين ضده الشيخ ماء العينين زعيم السلطة الدينية كما سيأتي توضيح ذلك في حينه، وقد مرّ القول معنا كيف أن دولة المرابطين ارتكزت على الزعامة الدينية حتى بلغت ما بلغت من المجد وسعة الملك وبسط السلطان.

وبناءً على ذلك فقد برز الصراع في شنقيط بشكليه الديني والقبلي، فظهر الشكل الأول بتلك المدارس والحلقات، والمجالس الدينية الواسعة وعرفت بها قبائل وعناصر مختصة أطلق عليها اسم - الزوايا - وإن كانت تضم اخلاطاً مختلفة من أجناس شتى بينها العرب والبربر والعلويون وغير العلويين. ووجد هؤلاء بالنسبة لتربيتهم ونشأتهم، وحياتهم

الخاصة أن طريق طلب العلم أعز، وأدوم، وأرضى لنفوسهم في الوصول الى الرفعة والمجد والزعامة من طريق شنّ الغارات والحروب القبلية على كسب المال، واجتياز الأراضي وهو الشكل الثاني الذي امتازت به قبيلتنا حسان وبني حسن، والأولى اكثر شهرة وامتيازاً بالحروب والغارات، وحتى هؤلاء كانوا يخضعون أخيراً في أمور دينهم ودنياهم في الأحكام الشرعية الى أصحاب الفريق الأول من أهل العلم والمعرفة، وهذا هو سبب إقبال الناس في شنقيط على طلب العلم والأدب إقبالاً منقطع النظير، ويدخل في ذلك تسابقهم في الشعر كسلاح آخر للمدح والفخر، والتوجيه، والزجر لما كانت تقتضيه طبيعة البيئة في حروبها وسلمها وموروثاتها.

ج - المدارس العلوية الأولى:

قلنا إن أول من سكن وعمر قرية شنقيط قبيلتا أدوعل (العلوية) والاغلال (البكرية)، وبحثنا سبب التجاء العلويين الى المغرب، وأول من التجأ إليها منهم. وإذا عدنا الى المدارس الأولى في شنقيط نجد أن شيوخها وأساتذتها كانوا من قبيلة أدوعل العلوية ومن أشهرهم: عبد الله ابن محمد العلوي، وحرم بن عبد الجليل العلوي، ومحمد بن عبد الله وباب ابن أحمد، ومحمد محمود بن اكتوشن وغيرهم كثير وكلهم علويون يعرفون محلياً بآل - أدوعل - فهؤلاء أول من تجرد للتدريس في شنقيط وعلى أيديهم تخرج علماء وعلماء وشعراء وأدباء بحيث لا يوجد عالم أو شاعر في شنقيط إلا ودرس على أحد هؤلاء، أو على تلميذ من تلامذتهم، أو على عالم من قبيلة - اديقب - المنتمية في نسبها الى جعفر بن أبي طالب. ولا غرو فهم معدن العلم الديني، والمعنيون بنشره وبثه. فهذا الشيخ

سيديَّ الكبير شيخ الطريقة القادرية والذي آلت إليه الزعامة الدينية أخيراً فقد طلب العلم على يد حرم بن عبد الجليل العلوي وكان يخدمه خدمة العبد الى مولاه، كما سيأتي بسط ذلك في حينه، فإلى هؤلاء وقليل غيرهم ممن ساهموا في دفع الحركة العلمية في شنقيط يرجع الفضل في هذه النهضة العلمية الفذة الممتازة.

ولو أردنا أن نستقصي الأسباب الكثيرة الأخرى لطال بنا البحث وهو ما لا نقصده في سيرة واحد من أبناء شنقيط فقط، ولكن لا بد لنا من إلقاء نظرة على كيفية طلب العلم في هذه البلاد، وما يلاقيه الأستاذ والطالب من صعاب يذللها الصبر والشوق، والرغبة الأكيدة.

٩ - طلب العلم وما يعانيه الطالب والمدرّس من مشاق:

لم يكن الدافع الأصلي لطلب العلم في شنقيط الوظيفة، ولا النفوذ، ولا المال، ولا الشهرة، وهي وإن كانت حاصلة ولكنها غير متوخاة بالذات، بل كان طلباً لمرضاة الله في معرفة أحكام الاسلام ونشره، والحفاظ على حدود ما أنزل الله من معرفة الحلال واتباعه، ومعرفة الحرام واجتنابه، وابتغاء رضى الله في الدنيا والآخرة، ويستوي في ذلك المدرس والطالب حيث يعاني كل من الفريقين المتاعب الكثيرة، والمصاعب الجمة. ولكن الرضى بما أمر الله به، وطلب الأجر والثواب يذلل الصعوبات ويحقق الفائدة، وعلى هذا فقد كان طلب العلم مقصوداً لذاته بوصفه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وبالرغم من أن هناك مصالح دنيوية كثيرة كانت تتحقق للعالم والدارس في النهاية ولكنها لم تكن في الأصل هي المقصودة بالذات حيث كان يمكن أن تحقق تلك المصالح

لسواهم من الجاهلين ومن طرق أخرى غير طلب العلم فهو وسيلة الشرف في الدنيا والثواب في الآخرة.

فأما المدرس فهو ذلك العالم المخلص الناذر نفسه لتعليم أبناء المسلمين، وتثقيفهم، وتوجيههم توجيه الناصح الأمين وتربيتهم تربية الأب الصالح الحريص على نجاحهم واستقامتهم في دينهم ودنياهم، كما أنه لا يدخر وسعاً في معاونتهم بكل ما يستطيع من عون مادي أو معنوي، فكأنهم أبناؤه الحقيقيون، وكأنه الأب الهمام المعني بكل شؤونهم. وتنشأ الصعوبات لديه من مراعاة مستوى وقابلية كل فرد منهم، حتى ليستغرق طول اليوم في التدريس مراعياً قابلية كل أحد منهم، مفضلاً انتفاعهم على راحته. فهو لا يصنفهم تصنيف الحصص، أو الصفوف، كما هو الحال في المدارس اليوم، ولا يهمل الطالب المقصر، ولا الضعيف الادراك، بل قد يقسمهم أفراداً إذا لزم الأمر، فهو في درس النحو مثلاً يدرس ألفية ابن مالك لعشرة طلاب، ولكنهم متفاوتون في الحفظ والفهم والادراك، فبعضهم في أولها، وبعضهم في وسطها، وآخرون في مواضع مختلفة منها، وهو يسير مع كل واحد منهم في الموضع الذي وصل اليه ولا يتركه حتى يتأكد من فهمه واتقانه بصورة جيدة جداً، ثم ينتقل مع كل منهم حسب ما يقتضي. ومثل هذا في دروس الفقه، أو التفسير، أو اللغة وغيرها. وقد يجمع عدداً من الطلاب متقاربي الفهم والمستوى في موضوع واحد من علم أو فن واحد، كما يجمع آخرين في موضوع آخر، ويطلق على كل جماعة من هؤلاء اسم: (دولة) حسب اصطلاحهم[1] وليس هذا فقط هو كل ما يعانيه المدرس من متاعب ومشاكل، بل هو في الحقيقة قليل

---

(١) الوسيط ص ٥١٩.

الموارد المالية، إذ ليس هناك من أوقاف، أو جهات تنفق عليه، سوى ما يتبرع به، أو يعتاده نفر من قبيلة حسان، أو أتباعها من اللحمة، أو المعتقين الذين يعرفون بالاحراطين، وقد لا تتعدى هذه الهبات الشاة الواحدة من الغنم من ذوي الأغنام، أو مقداراً من الزرع من كل ذي حرث. وفوق هذا فالعالم هناك محط للضيوف والمستفتين، وأصحاب الحاجات، والمتظلمين الذين قد يمكث أحدهم سنة على فراش ذلك العالم طلباً لاسترداد مظلمته بواسطته. كما أن المفتي والقاضي لا يأخذ أجراً على فتاواه، أو قضائه، ولا على تدريسه، بل دائماً يشترك الطالب معه في طعامه، وشرابه، ولباسه، ومسكنه[1].

أرأيت إذاً كيف كان التعليم في شنقيط خالصاً لوجه الله، وكيف أن المدرس هو الأب والمربي والموجه لتلميذه الذي يظل يكنّ لأستاذه الحب والاحترام، ويتعصب له، ويدافع عنه في حياته وبعد موته كما لو كان والده الحقيقي، وهكذا كانت روابط العلم كروابط النسب، ووشائجه كوشائجه لأنها مبنية على الاخلاص والتضحية والتوجيه الخلقي والروحي.

وأما الطالب، فهو لا يقل عناءً عن أستاذه، لأنه في الأصل فقير الحال غالباً، فليس له من يستطيع الانفاق عليه، كما أنه لا يتوخى بعد إكمال تحصيله العلمي أن يحقق له مورداً يعتاش منه، أو وظيفة تدرّ عليه رزقه حيث لم تكن هناك موقوفات - كما قدمنا - ولا جهات خير، في شنقيط تحقق للأستاذ والطالب موارد تكفل لهم أيسر ما يمكن الحصول

(١) المصدر نفسه ص ٥٢١.

عليه من أسباب الرزق، ولذا فهو يطلب العلم لذات العلم، ولادراك شرفه وفضائله. وكثيراً ما يكون هذا الطالب مضطراً لمفارقة أهله - ولو كانوا قريبين منه - وملازمة أستاذه، وذلك لأنهم يكلفونه برعي المواشي وتفقدها، كما يجب أن يواظب على خدمة الضيوف الذين لا ينقطع سيلهم. والعناية بهم، كما هو دأب البداوة وسكان الصحارى والأرياف، فهو يبتعد عن أهله ويلتحق بمدرسة شيخ يختاره، ويختص به، والعادة في الغالب أن يمنحه أهله في هذه الحالة بقرة حلوباً، أو بقرتين، إلى ثلاث بقرات، وإذا كان الشيخ صاحب إبل فيأتي الطالب بناقة أو ناقتين، أو ثلاث، ويجتمع عند الشيخ عدد من هؤلاء الطلاب يعيشون معه عيشة اشتراكية كعائلة واحدة، ولا فرق عندهم بين من عنده واحدة أو ثلاث، فيحلبون واحدة ويقتسمون لبنها احتساءً، كما يتناوبون رعي مواشيهم، فيخرج أحدهم يوماً يرعاها، ويأخذ كتابه أو لوحه معه، ويظل طول الوقت يقرأ، ويذاكر ويستظهر، وفي اليوم الثاني يخرج الآخر، وهكذا، وقليل منهم يتخذ عبداً يرعى له، وهذا نادر جداً.

أما مساكنهم، وفرشهم فهي في غاية الخشونة والبساطة، ويصدق عليهم قول أحدهم يصفهم:

تلاميذ شتى ألف الدهر بينهم   لها همم قصوى أجلُّ من الدهر
يبيتون لا كنٌّ لديهم سوى الهوى   ولا من سرير غير أرمدةٍ غبر[1]

فهذا هو حال الأستاذ والطالب في شنقيط، وعلى هذه الحال من

---

(١) أرمدة: جمع رماد، أي لونها كلون الرماد لتقادم عهدها، واغبرار لونها.

الفقر، والضنْك في العيش حققوا نهضة علمية عزّ نظيرها، حتى عرفت شنقيط ببلد العلماء.

١٠ - تأديب الطالب بالرفق والموعظة الحسنة:

يتبع الأستاذ في تأديب الطالب في شنقيط أساليب غاية في الأدب، والحكمة، والموعظة الحسنة من غير تبكيت، ولا تجريح، ولا تعنيف، فاذا بلغه أن أحد تلاميذه أساء، فإنه يأخذه بالمداراة، والأسلوب الهادىء، ومن غير أن يوجه له اللوم، أو العذل بصورة مباشرة، بل يعرّض به بأسلوب غير مباشر، حيث يعرف ذلك الطالب أنه يعنيه، وذلك بأن يُعرض عنه بعض الاعراض، فيفطن الطالب المسيء لذلك ويعرف سببه، ثم يلقي على الطلاب كلاماً عاماً، كي لا يعرف من هو المقصود به لئلا يحرجه، أو يخجله، ولكنه يدرك في قرارة نفسه أنه هو المعني بذلك فيرتدع، ويأسف على ما بدر منه، وهو أسلوب أبلغ أثراً في النفوس، وأدعى الى الاصلاح والامتثال، لأن العذل أقرب الى الولوع، واللوم أدنى الى الاغراء. وكان من أسلوب أحد هؤلاء العلماء وهو الشيخ محمد فال بن أحمد التندغي في التهذيب والتوجيه، عندما يبلغه عن أحدهم أنه قال قولاً لا يليق سواء كان تندغياً من قومه، أو من غير تندغ كالزوايا مثلاً، أو من غير الزوايا، فينتظر حتى يجتمع الجميع عنده، ويبدأ القول معرضاً بمعنى الكلمة الطيبة وأثرها الحسن في النفس، والكلمة الخبيثة وأثرها السيء في المقابل، ثم ينشد البيت الآتي:

وقول ما لا ينبغي لا ينبغي لتندغ ولا لغير تندغ

أما إذا كانت الاساءة المبلغة إليه فعلاً فإنه يختم كلامه قائلاً:

وفعل ما لا ينبغي لا ينبغي لتنـــدغ ولا لغـــير تنـــدغ

وهو اقتداء بسنّة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول في مثل هذا المجال: « ما بال أقوام يعملون... كذا » أو « يقولون... كذا » و« ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله »[1]. وما زالت أساليب التربية الحديثة تقرّ ذلك وتوصي به، لأنه أقرب للهداية والإقلاع عن الخطأ.

١١ - النساء في شنقيط يحدبن على تعليم الأطفال:

تتولى النساء في شنقيط تعليم الطفل منذ الخامسة من عمره برفق ولين، وذلك بتعليمه حروف الهجاء باللهجة المحلية ومبادىء القراءة والكتابة، والحركات والسكون، وكيفية تلفظها، كما يعلمنه العدّ والأعداد، ومبادىء الحساب، ثم يبدأن معه بتعليم القرآن الكريم حتى يتمه ويصحح قراءته جيداً، ولكل قبيلة أصولها في التعليم، ولكنهم على العموم يحرصون على قراءة القرآن، وتثبيت العقيدة الدينية، وذلك بتحفيظه وتعليمه بعض كتب العقائد الأشعرية، أو ما أشبهها، ثم يأخذن معه في تعليم الصفات ليكون مؤمناً راسخاً في الايمان حقاً، كما يقرأ بعض دواوين العرب وكل هذا قبل البلوغ. ثم يترك مدارس النساء الى مدارس ومجالس العلماء الرجال، وذلك بعد السن الثانية عشرة تقريباً. ويبقى متنقلاً من عالم لآخر، ومن كتاب لكتاب، ومن فن إلى فن، ومن قبيلة لقبيلة حتى يستوعب كل، أو معظم ما في محيطه من علم وأدب، وإذ ذاك يتطلع الى الهجرة، والتغرب في البلاد المجاورة والبعيدة لاكمال تحصيله، وإشباع نهمه من العلم والمعرفة.

---

(١) الوسيط ص ٥٢٠.

١٢ - نسبة الأُمِّيَّة في شنقيط:

إذا كانت نسبة الأمية في كثير من البلاد العربية تزيد على نصف مجموع السكان، وقد تبلغ الثمانين أو التسعين في المائة في بعضها، فإنك قد تعجب إذا علمت أن نسبتها في شنقيط لا تزيد عن الواحد في المائة، وذلك إذا استثنينا قبائل اللحمة والمعتقين من الرقّ، أما الزوايا فلا يوجد بينهم ذكر أو أنثى إلا يقرأ ويكتب، وإن وجد في قبيلة منها غير ذلك فانه نادر جداً، بحيث لا يوجد أكثر من واحد في المائة، وذلك على تقدير وجوده، وتستثنيها قبيلة حسان من هذه النسبة حيث يزداد عدد الأميين فيها لانشغالهم بالحروب وجمع المال أكثر من انشغالهم بطلب العلم[١].

ومع كل هذا فهي نسبة تدل على الشغف بطلب العلم لذاته، وحب المعرفة والكمال بوجه عام، وسبب ذلك انتشار مجالس العلم، وملازمة العلماء في كل مكان، فترى المدرس يلقي الدروس على طلابه وهو جالس في حلقة الدرس تارة، وأخرى في بيته، ومرة في المسجد، وقد يكون أثناءها ماشياً مسرعاً إذا عنَّ له أمر يستلزم ذلك. ويتفق أن يلقي الدرس عليهم أثناء الارتحال من جهة لأخرى سواء كان ماشياً، أو راكباً، وقد يكون على ظهر الجمل وطلابه يمشون على أقدامهم وهم يحفون به من ناحيتيه[٢].

أرأيت إذاً إلى هذا الحب الأصيل الفطري لطلب العلم لذات العلم، رغم الفقر، وشظف العيش، وكثرة الصعاب وانعدام النفع المادي؟

---

(١) الوسيط ص ٥١٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٥١٩.

وذلك على العكس مما هو عليه من حال العالم والمتعلم في عصرنا هذا، ودنيانا المادية هذه حيث أصبح العلم سبباً من أسباب الكسب والتجارة، والفخر والتعالي وأحياناً الغطرسة والجشع. واذا كان الأمر كذلك فقد لا تسعد الانسانية بالعلم، بل ربما ستشقى به حيث يسخر للدمار والفناء والاستعباد.

١٣ - تغرّبه في طلب العلم:

بعد أن بسطنا البحث في تاريخ وجغرافية شنقيط، وذكر أجناسها وقبائلها وعاداتهم في معاشهم وانتجاعهم وإقامتهم، وشغفهم الشديد في طلب العلم لذاته، وذكرنا أن الطالب عندهم لا يتسنى له أن يطلب العلم وهو في بيت أهله، لما يلزمونه به من خدمتهم، ومشاركتهم في أعمالهم كرعي الماشية، وخدمة الضيوف الذين لا ينقطع سيلهم ولذا فهو يعتزلهم ليعيش مع زملائه الطلبة، قريباً من شيخه وأستاذه في جو مشبع بالقراءة والمذاكرة والدرس على الصفة التي تقدم ذكرها. ويظل ينتقل من حلقة شيخ إلى شيخ آخر، حتى يستنفد كل ما في بلده من علم وفن يرغب في تحصيله، وهو في كل ذلك حرّ الارادة في اختيار شيوخه والتنقل من واحد لآخر بحسب ما تتحقق له الفائدة منه.

وبعدئذٍ يتطلع الى الهجرة الى بلد قريب من بلده، أو بعيد عنه، فيمعن في الهجرة والغربة محققاً رغباته في العلوم والفنون التي يجد نفسه في شوق إليها مختاراً الشيوخ الذين يحققون له ذلك، ويرعى هؤلاء الأساتذة طلابهم رعاية الآباء لأبنائهم وهم في غربتهم، فيساعدونهم على توفير المأكل والمشرب والملبس والكتب واللوازم الأخرى بكل ما لهم من وجاهة ودراية، مستفيدين من الجهات الخيرية في أموال الوقف وهبات

المحسنين، ومصارف الزكاة. فيجد الطالب ذلك ميسراً له في كل بلد يحل به، وهكذا كان طلب العلم مشاعاً للجميع، مهيئاً لكل راغب، حيث يجد التشجيع، والرعاية، والتوجيه. وكان الدافع لكل هذا خدمة الدين، ونشر المعرفة، وابتغاء مرضاة الله من قبل جميع الناس.

فالشنقيطي، بعد أن اقتطف ما لاح له مما رغب فيه من علم وأدب وفن في شنقيط، وجد أن الأفق لا يحويه، فتطلع الى آفاق أخرى ينال منها بقسط أوفر، ونصيب أوفى، كعادة أهل العلم في بلده، وتحدث عن هذا في مذكراته الخطية بأنه لم يرو ظمأه مما توخاه لنفسه من الامعان في طلب العلم، سيما وان بعض فروعه ذاوية في بلده كعلم الحديث، والتفسير، والمنطق، وما أشبه ذلك، لذا فقد أزمع السفر في أوائل سنة ١٣١٨هـ، أي حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره، حيث هو في عنفوان القوة والشباب الأمر الذي يمكنه من تحمل مشقات السفر، ومشاكل الغربة، فاندفع أولاً نحو بلاد المغرب القريبة منه، وزار عدداً من مدنها كالصويرة ومراكش، والدار البيضاء، ورباط الفتح، وطنجة، ولم يتلبث في كل منها الا يسيراً، عدا مراكش فقد أقام بها أشهراً، ولم يتسنَّ له الاتصال بأحد من علمائها خلال هذه المدة بل كان يخالط من عرفه من أهل بلده من العلماء الذين كان يزورهم اتفاقاً، ولأنه لم يكن قد وطّن نفسه لأن يتتلمذ على أحد منهم وقال إنه صادف في مراكش أحد أصدقائه وهو الشاب الشاعر الظريف محمد النشني أحد تلامذة الشيخ ماء العينين الذي سنأتي على التعريف به وذكر شيء من كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي. وذكر أن النشني هذا كان يلقب بـ(البسيطي) لأنه ما كان ينظم الشعر إلا في بحر البسيط، ويبدو أنه كان قد سئم

البقاء في مراكش كصديقه صاحب الترجمة وعند التقائه به ذات مرة أنشده سائلاً:

« مـا الرأي عندك في فتى تباعد عن أوطانه لمكان ليس فيه فتى؟ »(1)

قال: فأجبته على الفور:

ما الرأي عندي له غير الرجوع الى بلاده والى من حيث جاء أتى
ولا يكن لسوى الرجعى وإن ظفرت يـــداه بالفوز بالمطلوب ملتفتـا

ويبدو أن حنين الشنقيطي لبلده وأهله انعكس على هذه النصيحة في الحث على البسيطي للعودة الى بلاده من غير أن يلتفت ولو الى ما ظفرت يداه به من فوز وتحصيل ومعرفة. وهذا خلاف رأيه كما سيأتي بعد، ولكن يبدو أن الغربة فعلت فعلها في نفسه لأول مرة فزهد في طلب العلم واشتاق للعودة الى مرابع أهله وطفولته، ولكن حدث ما أقعده عن العودة الى بلده، أو الإمعان في السفر وهو:

١٤ - إصابته بالجدري:

كان وباء الجدري آنذاك واسع الانتشار خصوصاً في البلاد التي لا تتخذ فيها الحيطة من عدواه، ولم يكن التلقيح ضده معروفاً ولا

---

(١) هكذا ورد في نص مذكرات صاحب الترجمة، ويبدو أنه كان بيتاً من الشعر لتكرار كلمة - فتى - ولاشتهار صاحبه بالنظم من بحر البسيط فربما كان هذا من مخبون البسيط، أو مجزوئه، ولكن انتابته الزيادة أو النقصان بالتحريف فلم يستقم وزنه. كما ان جواب صاحبه الشنقيطي يبدو عليه اضطراب المعنى في قوله: «والى من حيث جاء أتى» لأن جاء وأتى بمعنى واحد، ولو قال: «والى من حيث كان أتى» لكان أقرب الى المعنى المقصود، هذا عدا ضعف التأليف الذي لا يصح أن يقارن بما تقدم من جزالة شعر شعراء شنقيط، وقد نأتي لبحث شاعريته.

ميسراً، ولذا فعندما كان الشنقيطي في مدينة الرباط أو (رباط الفتح)، كما قال، وهو ينوي الذهاب الى مدينة فاس التي كانت في ذلك الوقت حاضرة العلم في بلاد المغرب الأقصى، وحيث كان ينوي أن يؤدي فريضة الحج، ولكن وباء الجدري الفتاك هاجمه في شهر رمضان من تلك السنة وهو في الرباط، فأقعده المرض عن كل ما أراد، وكتب الله له الشفاء منه. فواصل سفره في ذي الحجة من السنة نفسها (١٣١٨هـ) ١٩٠٠م الى مصر بصحبة رجلين من أهل شنقيط، وعند وصوله القاهرة التقى بالشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي العلاّمة اللغوي المشهور(١)

(١) هو العلاّمة اللغوي، الشاعر الفذ والأبي الحر محمد بن محمود بن التلاميد (بالدال المهملة) الشنقيطي التركزي، ينتمي في انتسابه الى الزوايا، لازم العلامة عبد الوهاب الملقب بـ (أجدود) بن اكتوشن بن السيد العلوي وعليه تخرج، ولما رحل الى المشرق مرَّ بابن بلعمش الجكني بتندون (وهي من شنقيط) وتلقى عليه جملاً من الحديث، انفرد في المشرق باللغة والأنساب. ثم قدم مكة المكرمة واتصل بالشريف عبد الله أمير مكة (وهو عبد الله بن محمد بن عبد المعين عم الشريف حسين - كما سيأتي) وكان من أهل العلم والكرم، فأكرمه واختصه ولبث عنده زماناً، وكان يحرِّش بينه وبين علماء مكة حتى حصلت البغضاء بينه وبينهم، وكان محمد محمود يراوح في الاقامة بين مكة والمدينة المنورة، ثم حصلت بينه وبين أديب الحجاز وعالمه عبد الجليل برادة محبة وإخاء، وكان عبد الجليل يبالغ في الثناء على محمد محمود ويكرمه. فاستمر على ذلك مدة طويلة، ثم وقعت العداوة بين محمد محمود وعلماء المدينة كلهم عدا عبد الجليل، ومن ذلك ما وقع بينه وبين السيد علي ظاهر الوتري - الذي سنأتي على التعريف به - وذلك عندما كان الأستاذ الوتري يدرس البخاري، كان محمد محمود يجلس بحيث يسمع ما يقول، وهو لا يراه، فاذا شرع في التدريس صاح به: أخطأت، ثم يأخذ محفظته ويخرج فاشتدت العداوة بينهما، وحدث ما هو أدهى من ذلك مما يدعو الى العجب، وهو: عندما طلب السلطان عبد الحميد الثاني إليه أن يتوجه الى الآستانة للبحث عن الكتب العربية الموجودة في اسطنبول من كتب الأندلسيين، فقبل ذلك بشروط منها: ان يعزل ناظر وقف الشناقطة في المدينة المنورة ويوليه مكانه، وأن يعطيه طباخاً ومؤذناً، =

الذي رحب بهم، واصطحبهم الى الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية،

= وأن يعطيه المكافأة إذا رجع، فوافق السلطان على مطاليبه. وحمل الى الآستانة في مركب خاص، ثم كتب أسماء الكتب النادرة التي لا توجد في القسطنطينية، ولما طلب اليه أن يسلم قوائم الكتب، أبى أن يسلمها الا بعد أخذ أتعابه، ومهما قيل له إن أتعابه ستأتيه، فلم يقبل، ولكن السلطان استغنى عن تلك القوائم.

ثم اتفق ان - أوسكار - ملك السويد والنرويج طلب الى السلطان ان يرسل اليه وفداً من علماء المسلمين يسألهم عن أشياء في القرآن، وعن أشعار العرب، وأن يكون فيهم محمد محمود الشنقيطي، فأرسل اليه السلطان بأن يتهيأ للسفر. فقال لا، حتى تعطوني مكافأة أتعابي، فغضب عليه السلطان وأمره بالسفر الى المدينة. وما ان وصل المدينة حتى بدت البغضاء من صدور علمائها ضده، لما كان بينه وبينهم من خلاف - كما أسلفنا - مستغلين غضب السلطان عليه ومجافاته له. ولم يبق له بينهم من صديق غير عبد الجليل براده، الذي ظل بواليه، ويدافع عنه، واتفق ذات مرة أن دخل على جماعة ممن يعادونه وكان معهم عبد الجليل ولما سلم لم يقم إليه أحد حتى صديقه عبد الجليل، فغضب وقال: بال حمار، فاستبال احمره. فغضب عبد الجليل أيضاً وهجاه في عدة قصائد. ثم انهم طلبوا الى الوالي إخراجه من المدينة، فألزمه بالخروج منها، ولم يشيعه الا محمد بن عبد الرحمن القاضي الأديب الفاضل، وبعض الخواص. فاتجه نحو مصر ونزل عند نقيب الأشراف السيد توفيق البكري الذي استقبله بالتجلة والاكرام، واستأجر له بيتاً، وأجرى عليه خمسة جنيهات في الشهر، وبعث أحد رجاله لجلب جاريته وكتبه، وكان السيد البكري إذ ذاك آخذاً بشرح أراجيز العرب، فلما تم طبعها ادعى محمد محمود انه اغتصب شرحه ونسبه الى نفسه، ورفع عليه قضية ففشل فيها. فحدثت الجفوة بينهما، ثم اتصل بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية السابق فاستصفاه، وسعى له في راتب من الأوقاف وبقي الصفاء والولاء بينهما حتى ماتا رحمهما الله في عام واحد وهو عام ١٣٢٣ هـ(١٩٠٥م) الوسيط ص ٣٨١.

ومهما تحامل صاحب الوسيط على الشيخ محمد محمود في كتابه الذي ألفه بعد وفاة ابن التلاميد التركزي ببضع سنين حيث روج لتلك الدعاية الواسعة ضده في الهجاء المقذع والتجهيل وهو عاجز عن الرد عليه كما ردَّ على خصومه وكال لهم الصاع صاعين في حياته، فلم تلن قناته لهم بل قارعهم الحجة بالحجة وهجاهم بأشد وأشرف =

والذي كان صديقاً له وعرفهم به، وقدمهم له، وكان قد اقتعد ركناً في

= مما هجوه به. وعند استقراء ما مرّ له مع خصومه من المماحكات الواردة في الوسيط المتألب عليه نجد ان كفته أرجح في الغالب. فأما اختلافه مع علماء المدينة فلم يكن له من سبب سوى كثرة اعتراضاته عليهم، وصراحته الشديدة في الحق. وعدم ركونه الى المجاملة والتزلف. وما كان لهم أن يأتمروا على طرده وإخراجه مستعدين ذوي السلطة عليه، وأما عناده مع السلطان عبد الحميد فهو وإن كان في غير محله ولكن ربما كان سبب ذلك حاجته الماسة الى المال ولو بادره السلطان بتقديم شيء من ذلك له لما ركن الى هذه الطريقة الجافة التي يحبذها له اعتداده بنفسه وشخصه ومع هذا فكان على السلطان وهو في موقف السلطة والقوة أن يترضاه ويدفع له أضعاف ما يؤمل بالنسبة لموضوع العمل الذي قام به وبالنسبة للحاجة الماسة للدعوة الاسلامية والدعاية السياسية تجاه ملك السويد وشعبه في إزالة الغموض والشبه التي من يدري مدى نفعها وتأثيرها على الدين والسياسة العثمانية الاسلامية، كما كان يفعل الحكام المسلمون قبله تجاه رجال الدين والدعاة، وأما ردوده على خصومه في البحوث الدينية فكانت أرجح من ردودهم. وأما خلافه مع السيد توفيق البكري واتهامه اياه باغتصاب شروح الأراجيز التي طبعها البكري ونسبها لنفسه وإقامته الدعوى عليه، فمع عدم ثبوت ما ادعاه الا أننا نرجح صحته وذلك لأنه لو لم يكن صاحب حق لما التجأ الى اقامة الدعوى على الشيخ البكري الذي آواه، وانتصر له، وأجرى عليه مرتباً شهرياً. فلو لم يكن صاحب حق لما اضطر الى ذلك، كما رأى أنه بعمله هذا قد استغفله واعتدى على جهوده العلمية والفكرية من أجل أجر زهيد الأمر الذي جعله يستصغره، ويرى فيه إنساناً يتاجر بإحسانه ويسلب أكثر مما يهب ولذلك فقد هان في نظره وخاصمه، وأخيراً فقد دلت قرينة أخرى كشفتها مجلة العربي الكويتية في عددها (٢١٣) الصادر في شهر آب من سنة ١٩٧٦ من مقال للأستاذ أنور الجندي المنشور في الصفحة ١٤٦ بعنوان: «قصيدة شعر أحدثت أزمة في تاريخ مصر السياسي». ظهرت من ورائها تيارات مختلفة. فقد دلت هذه القرينة على صحة دعوى محمد محمود التركزي وتورط الشيخ البكري بأشد منها: وملخص المقال هو:

نشرت صحيفة «الصاعقة» التي كان يصدرها الصحفي أحمد فؤاد قصيدة بهجاء الخديوي عباس حلمي عندما عاد في الآستانة عام ١٨٩٧ م ومطلعها:

قـــدومٌ ولكن لا أقول سعيـــد ... وملكٌ وإن طال المدى سيبيد =

مؤخرة الجامع الأزهر، فسلموا عليه، واستقبلهم بالبشاشة والترحاب،

= وحكم من أجلها على صاحب الصحيفة أحمد فؤاد بالسجن عشرين شهراً، وعلى مصطفى لطفي المنفلوطي بالسجن ستة أشهر باعتباره صاحب القصيدة وكشفت التحقيقات ان للشيخ البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية يداً فيها، حيث ثبت انه نظم عدداً من أبياتها، وأشارت الصحف الى أن المنفلوطي اعترف بأنه نظم القصيدة استجابة لتكليف من السيد البكري الذي نظم الشطر الأول من المطلع وجرى المنفلوطي على نفس البحر والقافية، وورد أن الشيخ البكري أعجب بالقصيدة وأضاف لها بيتين من إنشائه وهما:

أعباس ترجو أن تكون خليفة ... كما ودَّ آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسود

وأشارت جريدة ممفيس قائلة: «إن هذا الشيخ اشتهر بكراهيته للجناب العالي ولا سيما منذ نزعت منه نقابة الأشراف» وأضافت قائلة: «أيد التحقيق أن مصطفى المنفلوطي هو المنشىء للقصيدة، عدا المطلع وبيتين في وسطها لكنه يأبى ان يقول إنها للسيد البكري كتماناً للسر الذي تعاهدا عليه، خاصة وان السيد قد وعده بتعيين محام للدفاع عنه وقت الحاجة، وموافاته بالمأكل والمشرب والمال أثناء سجنه».

ولكن السيد البكري أنكر في التحقيق معرفة المتهمين أصلاً، وتجاه ذلك أبرز المنفلوطي من جيبه مسودة قصيدة مدح في الحضرة السلطانية تتضمن إصلاح خطأ مطبعي بها بخط يده، الأمر الذي يدل على وجود رابطة سابقة بين البكري والمنفلوطي، فقال البكري: إن هذه المسودة لا بد أن تكون قد سرقت من المطبعة، وأوعز الى صاحب المطبعة أن يدعي هذا الادعاء اذا سئل، فأبى واعترف بكل شيء. وأشارت الجريدة الى تدخل الانكليز في هذه المسألة بقولها: «وهكذا استطاعت السلطات إخراج البكري من الاتهام وبرئت ساحته.» وعلقت تقول: «ومن الغريب أن سيداً مثله كان ينبغي أن يكون قدوة في مكارم الأخلاق ومثالاً للتقوى والهداية».

والذي يعنينا من الاشارة الى هذا المقال أنه لا يستبعد ان يكون الشيخ البكري قد اغتصب شروح أراجيز العرب التي أعدها، وأجهد نفسه فيها الشيخ محمد محمود التركزي، ثم طبعها السيد توفيق البكري باسمه، وهو عمل أكبره التركزي وعده =

ودعاهم جميعاً لتناول طعام العشاء في بيته، ثم بسط لهم مكاناً في الجامع، وظل يرعاهم ويتعهدهم بالزيارة والعناية وكل ما يحتاجون اليه، ثم أخذ

= استغفالا وإهانة له، والعرب تقول في الامثال «سرقة بنات الأفكار أشد من سرقة البنات الأبكار».

أما تبرئته من هذا الاغتصاب في الحاكم فهو أيسر من تبرئته وإنكاره حتى التعرف على شخص مصطفى لطفي المنفلوطي صديقه الذي أغراه وغرر به.

وأخيرا نقول: كم من العلماء، والمفكرين من ذوي النفوس الكبيرة، والعقائد الحقيقية الحرة الراسخة، تعرضوا لأشد مما تعرض له الشيخ التركزي، الذي لم تلن قناته، ولم يستكن لمناوئيه، ولم يداهن في رأي أو عقيدة، وسيأتي أن صاحب الترجمة الشنقيطي قد مرّ بمحنة كهذه المحنة التي تألب عليه فيها رجال الدين وأشعلوها فتنة من حوله، ولكنه كان أشبه بصاحبه التركزي في الشجاعة والصمود، أما مؤلفاته وشعره وأدبه فهي حرية بالبحث والاطراء، وهي مسجلة في الكتبخانة الخديوية، كما ذكر صاحب الوسيط في الصفحة ٣٨٣.

وترجم له خير الدين الزركلي في كتابه - الأعلام - فقال بالنص:

الشنقيطي التركزي ١٣٢٢ هـ(١٩٠٤م)

«محمد محمود بن أحمد بن محمد التركزي الشنقيطي، علامة عصره في اللغة والأدب، شاعر أموي النسب، اشتهر والده بالتلاميد فعرف بابن التلاميد وتركز اسم قبيلته، وكان آية في الحفظ، ولد في شنقيط بالمغرب، وانتقل الى المشرق، فأقام بمصر ورحل الى مكة فاتصل بأميرها الشريف عبد الله فأكرمه وأحبه لعلمه، فحسده شيوخ مكة، ونقموا عليه، فرحل الى المدينة، ومكث يسيراً ثم عاد الى مصر فاستمر الى أن توفي بالقاهرة. ومن كتبه: (١) الحماسة السنية في الرحلة العلمية (مطبوع) ضمنها شيئاً من أخباره وقصائده. (٢) عذب المنهل (مخطوط) أرجوزة. (٣) إحقاق الحق، حاشية على شرح لامية العرب لعاكش اليماني بيّن فيها أغلاطه. كما صحح بعض الأوهام الواقعة في الطبعة البولاقية من الأغاني فنشرت تصحيحاته بكتاب سمي «تصحيح الأغاني» مطبوع.

ومن تاريخ وفاته أعلاه يستدل أنه توفي قبل صديقه الشيخ محمد عبده الذي توفي بعده بسنة واحدة خلافا لما ذكره صاحب الوسيط، كما تقدم.

لهم كتاباً من المسؤولين في الحكومة المصرية الى محافظ السويس لايصالهم الى جُدَّة فأركبهم إليها، وتوجهوا الى مكة محرمين بالعمرة، وكان ذلك في أواخر المحرم من سنة ١٣١٩ هـ(١٩٠١ م) ثم عادوا إلى جدة.

١٥ - في المدينة المنوّرة:

ومن جدة ركبوا سفينة الى رابغ، ومنها الى المدينة عن طريق الغائر، وفي المدينة أصيب بحمّى يثرب، وطالت مدة إصابته بها، حيث ظلّ يعاني منها لمدة سنتين تقريباً، وبدا خلالها منهوك القوى، يبدو عليه الشحوب والهزال من أثر الملاريا التي يتعرض لها سكان المدينة، ومع هذا فقد كان يحضر أثناء ذلك دروساً في حديث البخاري على الشيخ علي ظاهر الوتري البغدادي الأصل، والذي قال عنه في مذكراته إنه حسن التقرير[1]. كما كان يحضر دروساً فقهية على أساتذة مغاربة ويتردد

---

(١) جاء في كتاب «آثار الوتري العلمية» للدكتور منير محمود الوتري المطبوع في بغداد سنة ١٩٧٤م تحت عنوان «السيد محمد علي ظاهر الوتري» على الصفحات (٤٩-٥١) نقلاً عن معجم الشيوخ ما نصه:

«الوتري ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) - ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م): محمد علي بن ظاهر الوتري الحسني المدني نور الدين، أبو الحسن، محدث المدينة في عصره، وممن انتعش بهم فن الحديث في المشرق والمغرب، رحل الى المغرب مرتين، وأقبل الناس على الأخذ عنه، مولده ووفاته بالمدينة، له كتب منها: التحفة المدنية في المسلسلات الوترية، اشتملت على خمسين حديثاً مسلسلاً. ورسائل في الأوائل، جمع فيها أربعين كتاباً من كتب الحديث. ورسالة في علم الكلام على قول الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان».

ونقل الدكتور منير محمود الوتري عن معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة في الجزء الحادي عشر، مكرراً نفس المعلومات باضافة مؤلف آخر لمحمد علي الوتري وهو: - تحقيق الكلام على الرحمن الرحيم - كما نقل عن كتاب - الأعلام - لخير الدين =

على الشيخ عبد الجليل برّاده، الذي قال عنه إنه أديب الحجاز،

= الزركلي ج٧ ص ١٩٤ نفس المعلومات. أما كتاب لب الألباب لمحمد صالح آل السهروردي فقد قال عنه في الصفحة (٣٥٦) عطفاً على ترجمة السيد يحيى الوتري:

«وقد حج في بعض السنين (أي السيد يحيى) مع جماعة من العلماء، وبالمناسبة أخذ علم الحديث من ابن عمه العلامة الشهير، والمحدث الكبير، المرحوم السيد علي ظاهر الوتري، شيخ مشايخ الحديث في الروضة النبوية، وكان قد أجازه في علم الحديث وسائر العلوم».

وذكر السيد أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه - الوسيط - ص ٣٨٢، عند كلامه عن الشيخ التركزي وما وقع بينه وبين السيد علي ظاهر الوتري الذي كان يدرس البخاري، ويقعد محمد محمود التركزي بحيث لا يراه، فاذا شرع في دروسه صاح به: أخطأت - ثم يأخذ محفظته ويخرج (أي التركزي) حيث اشتدت العداوة بينهما - كما تقدم.

أما سبب تسميته وأفراد أسرته بآل الوتري، فان ذلك يعود الى انتسابهم لعميد أسرتهم: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الشافعي الواعظ الشهير، ويلقب بـ (جمال الدين) و(مجد الدين)، واشتهر بالوتري لمدحه النبي محمداً صلّى الله عليه وسلّم بقصيدته الطويلة المعروفة بـ : «الوترية في مدح خير البرية» أو «الوتريات في مدح خير البريّات» على اعتبار أنها عدة قصائد ويذكر في سبب تسميتها بهذا الاسم: أنه لما رأى المادحين قد أكثروا من مدح النبي صلّى الله عليه وسلّم بقصائد على حروف المعجم، وجعلوها معشرات، وعشرينات، ولم يتعرضوا للوتر، مع أن الله تعالى وتر: «أي واحد» ويحب الوتر، فعمل قصائده على إحدى وعشرين بيتاً، في كل حرف قصيدة، وزاد قصيدة على الحرف «لا» اللام والألف ليكون عدد القصائد وتراً، فهي تسع وعشرون قصيدة، أو أنشودة، لأنها صارت تنشد في المناسبات الدينية المختلفة، وفي ليالي رمضان، وبالانغام المطربة من قبل حلقات الصوفية، وقد خمست وشرحت من قبل أكثر من واحد، ومن هنا جاءت شهرتها مقرونة بشهرته كواعظ عميق الايمان، غزير الدمعة، مشبوب العاطفة الدينية، متمكن من التأثير على جماهير المستمعين.

قال عنه ابن عبد الملك المراكشي في - الذيل والتكملة - إنه روى ببغداد عن أبي اسحق ابراهيم بن سعيد الأنصاري، أحد أصحاب ابن الجوزي. وبدمشق عن أبي عبد الله =

....

=ابن عبد الوهاب الواعظ، وبالأندلس عن أبي يحيى عبد الرحمن بن عبد المنعم، فهو من المختصين في هذه المهنة، وممن درس قواعد هذا الفن على أعلامه المشهورين، ومكانته في العلم مثلها في الوعظ، لذا فقد شهرت قصائده به، كما شهر هو بها. أما أصله وقبيلته فيكتنفها شيء من الغموض، إذ كل ما ذكر عنه فلا يتعدى الألقاب العلمية والأدبية والسكنية، ومما يزيد أمر أصله ونسبه غموضاً قول ابن عبد الملك في - الذيل والتكملة - المتقدم الذكر: «ويذكر أن أصله من قصر كتامة، فهو إذن مغربي الأصل، ومن هذه المدينة المغربية المعروفة بـ «القصر الكبير» في شمال المغرب، فانها هي التي كان يقال لها «قصر كتامة»، ولكن هذا الأصل قريب أو بعيد؟ ومن الذي انتقل من سلفه الى بغداد؟ وما سبب انتقاله؟ وبماذا كان يعرف في المغرب؟ والى أي عنصر من عناصر سكانه ينتمي؟ أسئلة قال عنها الاستاذ عبد الله كنون عضو مجمع اللغة العربية في مجلة البحوث والمحاضرات التي يصدرها المجمع العلمي العراقي، والتي تتناول مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين ببغداد لسنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) غير العادي سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) ص ٢٩٥ في ترجمة الواعظ البغدادي صاحب الوتريات، قال عنها: «أسئلة لا نستطيع أن نجيب عنها بشيء وربما هو نفسه لم يكن باستطاعته أن يجيب عنها». ثم يشير ابن عبد الملك في - الذيل والتكملة - وهو ممن عاصره وجالسه طويلاً ولزم شهود مجالسه ووعظه، وهو المؤرخ المعتدل الثبت يشير الى ورود الخبر بكارثة التتر واكتساحهم بغداد سنة ٦٥٦هـ وأثر ذلك في نفس الشيخ الوتري وحزنه الشديد، حيث يذكرها باللوعة والأسى في مجالس وعظه، كما ذكر أنه أقام بمراكش عندما عاوده الحنين لزيارة المغرب، ثم رحل الى الأندلس ودخل غرناطة وغيرها من بلاد الأندلس، ووعظ بها، ثم كرّ راجعاً الى مراكش، وبعد مدة فصل عنها مشرقاً، فحج حجة الفريضة وقفل الى المغرب مؤملاً الوفادة على مراكش الا أنه توفي بتونس عقب صلاة الجمعة لليلة بقيت من محرم سنة ثلاث وستين وستمائة (٦٦٣هـ) وقد قضى في المغرب ثماني سنين.

والذي يعنينا من كل هذا هو سبب تسمية أسرته بـ (آل الوتري) من جهة، وعدم الدليل على أنهم حسنيون من جهة أخرى، كما ورد في تراجم بعضهم. وقال عنهم ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون» ص ٧٩: «آل الوتري: أسرة عربية كانت تقطن المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وهي من أسر العلم والأدب في تلك الديار، هاجر قسم من هذه الأسرة الى العراق واتخذ بغداد مسكناً... الخ» وفي كتاب - آثار آل الوتري العلمية - المتقدم الذكر تفصيل عن أمجاد هذه الاسرة الكريمة التي خدمت الدين والعلم والأدب.

وشاعره، ولغويّه آنذاك بلا منازع[1] وكان يسمعه شيئاً من شعره لما كان

---

(١) أشرنا الى ما حدث أخيراً من الجفاء بين محمد محمود التركزي وعبد الجليل براده، الأمر الذي أدى الى الهجاء الشديد المقذع، واستعار حرب الشعر بينهما بأشد مما كان بين جرير والفرزدق، أو بما يماثله، وامتد ذلك الى تأليب فرقاء آخرين تناولوا التركزي بالسب والشتم والتجريح، الا انهم لم ينالوا منه أكثر مما قسا عليه عبد الجليل، وما نال منه بالثلب والتجني، ولأجل أن نروي ما نستدل به على مستوى شاعريته فليس لدينا من نماذج الا هذه القصائد التي هجا بها التركزي، وكما أوردها صاحب الوسيط بسبب ما كان يشنع به على القاضي عياض في كتابه «مشارق الأنوار»، ويلحنه ويغلطه في تفسيره لبعض الأحاديث. فاتخذ عبد الجليل برادة من ذلك ذريعة لهجائه بدعوى الانتصار للقاضي عياض والدفاع عنه فقال:

يا أبا الفضل إن يكن ساء قول ... لجهول من شأنـــه الازدراء
زور قول بـــه تبجّـح جهـلاً ... تركزي لـــه الحماقـــة داء
تركزيٌّ بكـــل خزي مـــليّ ... شأنـــه العُجْـب دأبـه الافتراء
ليس يـدري بأنـه ليس يـدري ... ولـــه الحمـق عـادة والمراء
ظنَّ من حمقـه بـأن عياضـاً ... عاكشٌ، خـاب ظنـه والرجـاء

وعاكش هذا، أو «عكاش» من أهل اليمن جاء مكة وافداً على أميرها الشريف عبد الله بن محمد بن عبد المعين عم الشريف حسين بن علي، وهو الذي ربّاه بعد وفاة والده. ثم زوجه ابنته عبديَّة خانم، وهي أم علي وعبد الله وفيصل، وتقدم معنا أن الشريف عبد الله هذا قد أدنى منه الشيخ التركزي وبالغ في إكرامه، واختصه بمصاحبته، فلما وفد عليه عكاش اليماني وقدم له شرح لامية العرب، فانتقده محمد محمود التركزي، وجهّله، وانتقصه بإشارة من الشريف عبد الله، فلم ينل من هبته شيئاً.

وبما هجا به برادة التركزي قوله أيضاً:

متى تسألوا شنقيط عن شر أهلها ... تجبكم بأعلى الصوت: تركزٌ، تركزُ
فتركز في شنقيـط شر قبيلـة ... لدائرة اللؤم المحيطـــة مركز

والقصيدة طويلة: كما قال في الموضوع نفسه ويهُجو أشد:

أوصـت بنيهـا تركز بوصيـةٍ ... يا بئس ما أوصت به أبناءها
شنقيـط فيهـا التركزي محقّر ... يـدري بذلك كل من قد جاءها

=

يدرس عليه كتاب المشكورة، والجلالين في رمضان، ويبدو أن الناحية

وابن التلاميد الخبيث التركزي   أخزى شناقطة البلاد وساءها
هو «لحمةٌ» لا من زوايا أرض شنـ   ـقيط، ولا حسانها امرائها
وعلى الذين لهم عليه منةٌ   متسلطٌ لا يأتلي إيذاءها

ثم تنتهي القصيدة بإقذاع لا يليق بمجتمع العلماء، سيما وأن الشيخ عبد الجليل كان يطنب في مدح صديقه الشيخ محمد محمود فما كان له أن ينقلب عليه هذا الانقلاب المزري، وعلّق صاحب الوسيط على البيت الرابع قائلاً في الصفحة ٣٩٦:

«اللحمة: جنس من الناس منحط في أرض شنقيط، وليس محمد محمود المذكور منهم، بل هو في عداد الزوايا، ولله در القائل:

«من أحوج الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل»

ويبدو أن لمحمد محمود شعراً كثيراً، إلا أن صاحب الوسيط - وهو المصدر الوحيد الذي بين أيدينا - تحامل عليه في كثير من المواقف لاختلافه معه أيضاً في الرأي في قضايا نحوية، وكلامية، ولغوية، أو لانتصاره لبعض من ناوأهم محمد محمود وناوأوه، ودخل معهم في معاركٍ فكرية مختلفة، فلم يرو له الا البيت أو البيتين من ردوده على من تعرضوا له بالسب والشتم، أو من قصائد أخرى يتبين أنها كانت طويلة يكتفي بالتنويه عنها، وكان من الانصاف أن يروي له في الرد على خصومه بقدر ما روى لهم، إلا أنه راح يتعقب ما يراه غلطاً في النحو، أو الفقه، أو اللغة بحسب رأيه، فمما روى له من قصيدته (الأولى) كما سماها البيت التالي:

لطيفة طي الكشح خمصانة الحشا   روادفها ملأى من اللحم والشحم

وأكثر من انتقاده نحوياً في هذا البيت: كما رد عليه في مسألة صرف «عمر» منددا عليه في ذلك كثيراً في الصفحة «٣٨٣». وكما انتصر للبرزنجيين في رد محمد محمود عليهم في اسم الله تعالى ونعته بـ«الذات»، لأنهم لقبوه بالذات المؤنثة والتي هي في الوزن كاللاّت والعزّى، ورد عليه صاحب الوسيط أيضاً، وليته فعل كل هذا في حياة محمد محمود لاستطاع أن يرد عليه أيضاً وينال منه كما نال من خصومه الآخرين، ولكنه كتب كل هذا بعد موته، فكيف يركن الى حكمه بينه وبين خصومه وهو أحدهم.

وبما روى له صاحب الوسيط في هجاء البرزنجيين قوله:

الأدبية: الشعرية واللغوية، أبلغ أثراً، وأشد تأثيراً في طبيعة الشيخ عبد

= يا عجم برزنج آذيتم أبا حسنٍ   إيذاء أبي الجهل عمروٍ، أو أبي لهب

وعلق عليها قائلاً: «إنها ليست بشيء، وهي طويلة» ومنها مخاطباً السيد أحمد البرزنجي:

رِباك في النسب المجهول زاد على   رِباك في فضةٍ بيضاء أو ذهب

ومنها حيث يذكر زرُّوق باشا، وعبد الجليل برادة:

زروق والذِّيخ براده قد ارتضيا   أن تدخل النار ذات الجمر والحطب
ويدخلا النار معك لاتفاقكمُ   على أباطيل من غي ومن شغب
إذ أنتمُ حزب شيطان ضعيف قوي   يقتادكم في فيافي الجهل والتبب

و«الذِّيخ» الذئب الجريء، وذكر الضباع الكثير الشعر.

وهجا محمد محمودالأزهريين عموماً لتألبهم عليه، وخص منها شيخ المالكية الاستاذ البشري ومما قاله في ذلك:

فأشلى عليَّ الأزهر اللدَّ بُسَّلاً   كأن لهم عندي دماء الطوائل
حلائب علم للسباق أعدَّها   سوابقها في الشوط خلف الفساكل

قال وهجا فيها البشري هجواً قبيحاً، وهي طويلة عدد أبياتها (١٣١) بيتاً، ولكنه لم يرو منها إلا هذين البيتين. كما ذكر أن له قصيدة في هجو عبد الجليل برادة، والسيد أحمد البرزنجي، وغيرهم ممن شارك في تلك الحرب الباردة وعدد أبياتها «١٤٢» بيتاً، ومطلعها:

أحنُّ الى الرسول فيعتريني   إذا ليلي دجا ما يعتريني

ولم يرو منها الا هذا المطلع، في حين ترك لعبد الجليل المجال واسعاً في الرواية للنيل منه بالفحش والاقذاع، وقال: إن له قصيدة أخرى في هجوهم وعدد أبياتها «١٢٠» بيتاً ومطلعها:

صراط العلم نستبق استباقا   وشأو الجهل نجتنب السباقا

واقتصر منها على هذا البيت فقط، ولم يشأ صاحب الوسيط إلا ان يدون جميع ما قيل في هجاء محمد محمود حتى من قبل الشامتين بموته من أولئك الامَّعات المتأثرين بكل حملة ظالمة تتبنّاها أكثرية حاقدة. فختم البحث في سيرته قائلا في الصفحة «٣٩٦»: «وقد أرّخ موته أحد الأدباء المصريين، يقال له كامل، وكان يعاديه، =

الجليل برادة، لما تبين من أصالته في قول الشعر وقوة بيانه في تلك الحملة الهجائية الشديدة على الشيخ محمد محمود، كما تبين منها ومن غيرها أن معظم العلماء ورجال الدين في تلك الفترة كانوا أدباء سابقين، وشعراء مجلّين، حتى ان بعضهم - في رأيي - لا يقل في شاعريته عن الشعراء الفحول كالمتنبي، وأبي تمام، أو كجرير والفرزدق وأضرابهم، حيث يبدو أن الشعر في تلك الفترة كان من مفاخر العلماء، كما كان سلاحهم في نشر مبادئهم، وفي الرد على خصومهم، وانتصارهم لأنفسهم في حروبهم ضد أعدائهم، ولا بد أن الكثير من شعر هؤلاء العلماء قد ضاع بسبب تكتم

= فلمّا بلغه موته، نظم أربعة أبيات، وبعثها الى بعض المجلات فنشرتها، ومطلع الأبيات:

« مات الإمام التركزي وانقضى　　وبموته مات السباب والشغب »

قال: « وضاع مني غيره، الا موضع التاريخ وهو آخرها:

« أماتَ الله سرّاق الكتب ».

ومن غريب المصادفات في هذا ان المجلة التي نشرت هذه الأبيات نشرت معها موت ناظمها الأديب كامل حيث مات في الليلة الثانية من نظمها ومن غير علة كما قال صاحب الوسيط: « وقد لقيته بعد المغرب فأنشدني الأبيات، ومات في الليلة القابلة من غير علة ».

ولا بد أن نقول إنه ما كان يجب أن يحدث مثل هذا النوع من العداء والسباب من أجل اختلاف في الرأي، لو لم تكن الدوافع حب الاستعلاء، وجر المغانم، وهي في أصلها صفات نقص تدل على تحرج الافكار، وضيق الصدور، وكم أدت مثل هذه الخلافات الى مآسٍ، وحروب سجلت على العلماء هنات، وعلى الفكر عثرات، ولو انه كان شحذاً للقرائح الشعرية الدالة على تمكن هؤلاء العلماء من نواصي الشعر واللغة والفن في تلك الفترة التي ظل الشعر فيها سلاحاً يصلح للدفاع والهجوم، للذود عن الحقيقة أو التجني عليها، إلا أن الاسلام حرم هذا النوع من الفحش، والهُجْرِ في القول، لما يغرسه في النفوس من عداء، وما يثيره من حقد وبغضاء، سيما وأن القائمين به أئمة يحتذى حذوهم، ويقتدى بهم.

الكثير منهم عن نشر ما قالوا في الأغراض العاطفية تحرجاً من نشره خوف اتخاذه مغمزاً ضدهم، ولم يصلنا منه الا النزر اليسير. ولنعد بعد هذا لأصل البحث في سيرة مترجمنا.

١٦ - في مكة المكرمة:

وفي أثناء ذلك عاود الشنقيطي الحنين الى مرابع الأهل، ومغاني الصبا، فأزمع العودة الى بلده، غير أن شيخه وصديق والده الشيخ أحمد سالم بن الحسن الديماني[1] أصيب بمرض خطير في تلك السنة، ومن واجب الوفاء أن لا يدعه وحيداً على تلك الحال. فأقام معه يمرضه، ويخدمه، ولشدة عناية الشريف زيد بن فواز بالعلم والعلماء، فقد دعاهما للنزول عنده، وهيأ لهما جميع وسائل العلاج والراحة، فكان غذاء الشيخ مقتصراً على لبن النوق والطعام الخفيف، الأمر الذي هيأ له أسباب الشفاء، كما أحضر لهما كل ما طلبا من كتب، ولوازم، فقرأ أثناءها على أستاذه الديماني جانباً كبيراً من كتاب - أقرب المسالك - في الفقه

= ومما يؤسف له أننا لم نطلع على شعر الشيخ عبد الجليل برادة في الأغراض الايجابية الأخرى لنتبين منها صدق نعته بأديب الحجاز وشاعرها في تلك الفترة.

(١) الديماني نسبة الى أبناء أحمد بن دامان من قبائل حسان، والذين قال عنهم محمد يوسف مقلد إن حسان تدعي في انتسابها الى الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه «موريتانيا الحديثة ص ١٣٧». وأبناء دامان لفظة تطلق على خمس قبائل وهم: أبناء أحمد بن دامان، وأبناء ساسي، وأهل عتام، وأهل عَبَّلَّ وأهل اكمتار، ويقال إنهم في الأصل أبناء رجل واحد وهو: دامان، أما أبناء أحمد بن دامان وفيهم الشيوخ فقد كان لهم مخصصات من دولة فرنسا من عهد رئيسهم أعلُ شندورة الذي أمد السلطان - مولاي اسماعيل - بقوة من العسكر أباد بها أبناء رزك، غير أن هذه المخصصات كثيراً ما تكون سبباً في النزاع والقتال بينهم، وهم من الترارزة من حسان، ومن رؤسائهم المشهورين: محمد لحبيب أمير الترارزة وهو حفيد أعلُ شندوره «الوسيط ص ٤٨١» و«موريتانيا الحديثة ص ١٣٨».

ومنظومة البدوي الشنقيطي في أنساب العرب[1] ومنظومة في المغازي النبوية[2] وعند حلول موسم الحج استأذن الشريف زيداً لأداء شعائره، أما الشيخ الديماني فقد توجه الى المدينة، إلا أن صحته تردت هناك، فعاد الى مكة، ثم قصد الطائف للراحة والاستجمام، إذ لم يكن باستطاعته مواصلة التدريس، ثم انتقل إلى منى فتوفي فيها سنة ١٣٢٥ هـ(١٩٠٧ م). وبعد مغادرة الشيخ الديماني الى المدينة انضم تلميذه الشنقيطي الى حلقة درس الاستاذ العلامة الشيخ أبي شعيب بن عبد الرحمن الدّكالي المراكشي[3] فدرس عليه ألفية ابن مالك كلها من تلخيص المفتاح ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بتمامها، وشيئاً من مختصر خليل، وبعض مختصرات ابن الحاجب في الأصول[4]، وسمع منه شمائل الترمذي

---

(١) البدوي صاحب المنظومة هو: أحمد البدوي المجلسي ثم البوحمدي، وقد مر التنويه بذكر « مجلس » أو « مدلش » عند التعريف بأحد أساتذة مترجمنا وهو الشيخ عبد القادر المجلسي وقبيلته في الصفحة(١٦)فراجعه. وقال صاحب الوسيط عن البدوي هذا « هو العالم الكبير والنسابة الشهير، وهو الذي أحيا أنساب العرب بنظمه «عمود النسب» وقد أجاد فيه ولم يغلطه أو يقدح فيه أحد: « الوسيط ص ٣٥٠ ».

(٢) للناظم نفسه الذي نظم جميع غزوات النبي صلّى الله عليه وسلّم واستهلها بقوله:

حمداً لمن أرسل خير مرسل ... لخير أمة بخير الملل

وأفضل الصلاة والسلام ... على لباب صفوة الانام

وهكذا يمضي في نظم جميع الغزوات « المصدر نفسه ص ٣٥١ ».

(٣) أبو شعيب: هو العلامة المراكشي الشهير، والذي درس عليه صفوة العلماء وخيرة الاصفياء ممن خدموا العلم والدين في شتى الاقطار العربية والاسلامية. قال عنه الشيخ عبد الله بن محمد الرابح أستاذ المعهد الاسلامي في البصرة: إنه الشيخ شعيب وليس أبو شعيب الدّكالي المراكشي نسبة الى مدينة «دِكال» بكسر الدال، وهي إحدى مدن مراكش.

(٤) ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس المصري المالكي، كان والده

ثلاث مرات[1] والشفاء للقاضي عياض[2] كاملاً، وصحيح مسلم عدا كتاب الصلاة، والنصف الأول من سنن أبي داوود، وكثيراً من سنن النسائي، ودراية شمائل الترمذي بتمامها، ومعظم صحيح البخاري، وموطأ مالك من غير توالٍ، وشرح البيقونية للزرقاني، وكثيراً من التدريب والاختبار، كما درس عليه شرح العضد في الوضع، وجملة من أوّل المطوّل للسعد[3] وجملة من الشاطبية في التجويد، ثم قرأ السلَّم في المنطق،

= حاجباً للأمير عز الدين موشك الصلاحي بقوص وكان أبوه كردياً. ولد ابن الحاجب بأسنا من قرى الصعيد في أواخر سنة سبعين وخمسمائة (٥٧٠ هـ) فاشتغل بالقاهرة، ثم انتقل الى دمشق، ودرس في جامعها في زاوية المالكية، ثم عاد الى القاهرة فأقام بها، ثم انتقل الى الاسكندرية فتوفي بها في شوال سنة ست وأربعين وستمائة (٦٤٦ هـ). «حاشية الشيخ محمد الامير على مغني اللبيب ج١ ص ٢٢».

(١) شمائل الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، والترمذي من أصحاب الصحاح في الحديث.

(٢) كتاب في سيرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم للقاضي عياض بن موسى اليحصبي الاندلسي، وهو جزآن.

(٣) هو سعد الدين التفتازاني، المتوفى سنة (٧٩١ هـ). وجاء في الوسيط ص (٩١) عند الكلام على عبد الله بن أحمد الفلاوي البكري أنه سهَّل عليهم الرسالة لابن أبي زيد لأنه نظمها نظماً سلساً وأوله قوله:

قال أبو محمد عبد الاله ... لينظم النثر الذي حُلا حُلاه

الى أن يقول:

ولم أكن جُذيل هذا الفنّ ... وما عليَّ لومُه لأنّي
شغلت بالنحو وبالبيان ... وإنَّ هذان لساحران

ويقول في صفة نظمه:

وربما أخلت فيه الناظرا ... أني وزّان ولست شاعرا
فتارة يرقص من تذكير ... بابن نباتة وبالحريري
طوراً أخو جد وطوراً عابث ... حتى كأني للأنام وارث

كما نظم «الأخضري» تأليف عبد الرحمن الجزائري صاحب السلَّم. وبدأ بنظم =

وكثيراً من ألفية السيوطي في النحو على الشيخ أحمد التكروي، كما كان يتردد على الشيخ عبد الجليل براده فسمع عليه قليلاً من الحديث وأجازه في مروياته فيه محرراً له إجازة بذلك، كما قرأ عليه شيئاً من كتب الأدب بما في ذلك دواوين عدد من الشعراء كالبحتري، والمتنبي، وعدداً من المعلقات، ومعظم كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي، ورسالة الملائكة للمعري، ومن هذا يتبين غزارة ما قرأ من مختلف الكتب المفضلة في الحديث، والتفسير، والفقه وأصوله، والنحو والأدب والتجويد، والمنطق على أساتذة أعلام. وأشهر من اختص به، ولازمه، وأخذ عنه: هو الشيخ شعيب بن عبد الرحمن الدكالي كما درس الشيء الكثير من كتب الأدب، ودواوين الشعراء، والرسائل الأدبية، والنقد الأدبي، كما قرأ كثيراً من كتب التاريخ والأنساب والسير، ولو قورنت دراسته تلك بالدراسات الجامعية المختصة في هذا الباب اليوم، لما قلت في تعادلها عن الشهادات العليا المعترف بها في عصرنا هذا، وربما فاقتها في مجالات الاختصاص الأخرى.

١٧ - احتلال فرنسا بلاد شنقيط، وعزمه على المقام بمكة[1]

لما علم الشنقيطي تثبيت قدم فرنسا في شنقيط، واحتلالها لتلك

= مختصر خليل في الفقه فنظم منه بيتاً واحداً من كتاب البيع، ثم انصرف عنه حتى توفي في أوائل القرن الثالث عشر الهجري. «ص ٩٢ من المصدر نفسه».

(١) كانت فرنسا تتطلع الى احتلال موريتانيا منذ ان احتلت الجزائر سنة ١٢٤٦هـ(١٨٣٠م) وقد استطاعت أن تمد نفوذها الاستعماري على هذا الاقليم الواسع الغني بثرواته المعدنية الدفينة، وذلك ما بين سنتي ١٣١٨هـ - ١٣٢٣هـ(١٩٠١-١٩٠٥م) وكان بدء ذلك على يد مستعرب فرنسي يدعى «زافييه كبولاني» الذي استطاع أن يوطد صداقته مع الشيخ سيديَّ بن المختار بن الهيب:

البلاد نهائيا، أزمع المقام بمكة، صارفاً النظر عن العودة الى وطنه مع

= الأبيـيري التندغي زعـيم الطائفـة القادرية، وأن يستفيد منه لتحقيق مآربه الاستعمارية، مستغلاً خلافه مع الشيخ ماء العينين، ليساعده ضده، وسنأتي على ترجمة كل منهما في مكانه. وحكم الفرنسيون موريتانيا باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من السنغال، وفي سنة «١٩٠٣م» أعلنت فرنسا حمايتها عليها، ولقي هذا الاعتداء على حرية الشعب الموريتاني السخط والثورة في جميع الجهات من البلاد، وفي سنة «١٩٠٤م» صدر مرسوم جمهوري بالحاق موريتانيا برمتها كمنطقة تابعة للسنغال ومقرها - سانت لويس وأنيط حكمها بـ «زافييه كبولاني» الذي اتخذ لنفسه لقب «مفوض حاكم افريقية الغربية الفرنسية العام بموريتانيا». ولكنه عندما انتقل الى «تجكجة» لتنظيم المستعمرة سنة «١٩٠٥م» قتل على يد بعض الوطنيين، وكان ذلك إيذاناً باندلاع نار الثورة ضد الاحتلال الفرنسي على يد الزعيم الكبير الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن مأمين الملقب بـ «ماء العينين» والذي نفخ في المجاهدين روح الثورة، وراح يخطب بهم، ويحثهم على الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والوطن، فجمع جيشاً كبيراً وأمده سلطان المغرب - مولاي عبد العزيز، ومن بعده مولاي الحفيظ (عبد الحفيظ) بالمال والجند والسلاح، فأعلن الجهـاد في الشمال، وتمكن من استرداد منطقـة - الادرار - سنـة ١٣٢٤هـ(١٩٠٦م) وعين نفسه حاكماً على الادرار، وفي سنة ١٣٢٥هـ(١٩٠٧م) عين الفرنسيون حاكماً فرنسيا على موريتانيا كلها، وفي ١٣٢٦هـ(١٩٠٨م) تجدد القتال بين جيش الأهلين المجاهدين بقيادة الشيخ ماء العينين أيضاً، وبين جيش الاحتلال الفرنسي فاخترق ماء العينين موريتانيا جنوباً حتى بلغ قلعة (تجكجة) وحاصرها، ولكن نجدات فرنسية سريعة خفت لانقاذها وتخليصها من الحصار. واستمرت المعارك الدموية حتى توفي الشيخ ماء العينين - رحمه الله - مجاهداً في سبيل الله سنة (١٣٢٨هـ-١٩٠٩م). وبعدها تمكن الكولونيل «كوفين جورو» من احتلال دائرة الادرار لنفاد سلاح المجاهدين ورداءته، وموت زعيمهم ماء العينين بعد أن فنيت مواشيهم وكابدوا الأهوال والشدائد، فاختلفت كلمتهم، وتغلب عليهم اعداؤهم من الفرنسيين حيث واصل غورو زحفه نحو سبخة - ايجيل - ومع هذا فان الأهلين ظلوا يقاتلون زهاء ربع قرن بما استطاعوا من قوة وسلاح حتى سنة ١٣٥٣هـ(١٩٣٤م) حيث وطد الفرنسيون أقدامهم جنوبي المغرب وأصبحت موريتانيا تحت سيطرتهم الاستعمارية، ثم أخذت استقلالها التام عام =

شدة ما يعاوده من حنين الى الترب والأتراب، والأهل والأحباب الذين كان يكاتبهم وهم يحثونه على العودة والعيش الى جانبهم في تلك المحنة، محنة احتلال البلاد بالمستعمر الأجنبي، غير أن بغضه للعيش تحت وطأة الاستعمار، وفرط حبه للحرية، والضرب في الأرض طلباً للعلم، كانت الدواعي التي حببت له البقاء فكتب بذلك لأهله وذويه معتذراً بالأبيات التالية:

أخلاي إني جازم باصابتي ... وبما خلفتموني فيه غير مصيب[1]

فلا تنكروا لطلابي العلم نائياً ... فما النأي في تطلابه بعجيب

ولا سيما علم الحديث فانه ... بهاتيكم الأقطار جد غريب

فذاك الذي في البحث عن أمهاته ... بإسنادها باعدت كل قريب

وفارقت في تطلابه طالباً وفي ... محبته فارقت آل حبيب[2]

وأسأل ربي أن يوفقني وأن ... يسدد أمري وهو خير مجيب[3]

ومنه يتبين أن الشيخ لم يدرك في الشعر شأو أولئك الشعراء الفحول في شنقيط، وربما عرجنا على شعره وشاعريته.

= ١٣٨٠هـ(١٩٦٠م) باسم - جمهورية موريتانيا الاسلامية وأصبحت عضوا في الأمم المتحدة سنة ١٣٨١هـ(١٩٦١م): «الوسيط ص ٣٦٧ وجمهورية موريتانيا الاسلامية لعبد الباري عبد الرزاق النجم ص ١٦٢ ومجلة العربي مقال لعبد الله عنان العدد (٢٥) سنتها الثانية ص٢٤».

(١) هكذا ورد في مذكراته الخطية ولعل فيه تحريفاً لعدم استقامة الوزن والمعنى.

(٢) آل حبيب: يريد بهم آل حبيب الله وهو والد جده فال الخير كما تقدم حيث يلتقي به نسب أبيه بنسب أمه.

(٣) ولو قال: «يسدد خطوي» لكان أولى، لأن التسديد فيه معنى التصويب والانطلاق نحو الهدف ولا يستعمل ذلك للأمر على وجه العموم.

١٨ - وفاة الشريف عون وتولي الشريف حسين[١]:

وفي تلك الفترة توفي الشريف عون وتولى ابن أخيه الشريف علي[٢]

---

(١) الشريف عون: ويلقب بالرفيق المصلح، وهو ابن محمد بن عبد المعين بن عون وعم الشريف حسين بن علي بن محمد الذي أعلن الثورة العربية على الأتراك العثمانيين والتي عرفت باسم - النهضة العربية - كما سيأتي. وكان الشريف عون هذا يميل في عقيدته الى الوهابية، فحمل حملته المشهورة على الأولياء، وأمر بهدم القبور والمقامات، وكاد أن يذهب حتى بقبر حواء أم البشر لولا تدخل قناصل الدول وقولهم له: «لك ما تشاء في الأولياء، ولكن حواء أم الناس أجمعين، ونحن نحتج على هدم مقامها». فاقتنع بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر الذي هو في جدة وطوله خمسة وسبعون قدماً. وأمنا حواء مدفونة فيه: «ملوك العرب لأمين الريحاني ج١ ص ٦٢-٦٣».

(٢) هكذا ورد في أصل مذكراته الخطية، وأعتقد أنه أراد ابن أخيه الشريف حسيناً ابن علي، وانما حدث ذلك سهواً، إما من النسّاخ - وهو الأصح - أو منه نفسه، وذلك لأن الشريف علياً المذكور فهو إما أن يكون أخاه، وهو الشريف علي بن محمد ابن عبد المعين والد الشريف حسين وهذا توفي سنة ١٢٨٧هـ أي قبل ولادة مترجمنا - الشنقيطي - وإما أنه أراد الشريف علياً بن الحسين وهذا لم يتول إمارة مكة في ذلك التاريخ، فلم يبق الا من ذهبنا اليه وهو الشريف حسين بن علي الذي ولد في الآستانة سنة (١٢٧٠ هـ) ونشأ بها وبعد وفاة والده رعاه عمه الشريف عبد الله بن محمد بن عبد المعين وزوجه بابنته - عبدية خانم - وهي أم أولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل، وبعد وفاتها تزوج من ابنة رئيس وزراء تركيا فانجبت له زيداً. عاش الشريف حسين في الآستانة مدة خمس عشرة سنة تربى خلالها تربية حميدية استبدادية، وصار عضواً في مجلس الشورى، وكان يجاري الاتحاديين فعند إعلان الدستور سنة (١٩٠٨ م) عينوه لشرافة مكة وإمارتها. وكان ممن تولى إمارة مكة قبله من أعمامه (١) الشريف عبد الله بن محمد الذي أدنى اليه الشيخ محمد محمود التركزي - كما تقدم - وكما ذكرنا من رعايته لابن أخيه الحسين ابن علي. (٢) الشريف الحسن الصالح بن محمد بن عبد المعين الذي تولى إمارة مكة بعد أخيه الشريف عبد الله وقتل في جدة. (٣) الشريف عون الملقب بالرفيق المصلح - المتقدم الذكر - الذي تولى إمارة مكة - كما يبدو من مذكرات =

وبما أنه كان يعرفه يوم كان في ضيافة الشريف زيد بن فواز وهو يمرِّض أستاذه الديماني - كما تقدم - فأشار عليه أستاذه الشيخ شعيب بأن ينظم قصيدة في مدحه كما فعل الآخرون من طلاب العلم وغيرهم فنظم أبياتاً وألقاها بين يديه وقال إن الشريف استحسنها وأورد منها في مذكراته الأبيات التالية:

سلام أريج المسك من دون نشره ... وينسي نديم الخمر صهباء خمره
وينسي من المحبوب وردة خده ... وأجفانه المرضى ودقة خصره

واختتمها بقوله:

خذوها على علاتها وعليكم ... سلامٌ أريج المسك من دون نشره

وكأنه أحس بركتها عندما قال: «خذوها على علاتها» ومنه يتبين أنه لم يكن معدّاً لأن يكون في عداد الشعراء من أهل شنقيط.

= الشنقيطي - بعد مقتل أخيه الشريف الحسن الصالح. وبعد وفاته تولى الامارة ابن أخيه الشريف حسين بن علي - ويعرف هؤلاء بالطبقة الرابعة التي تولت سدانة الكعبة منذ سنة ٥٩٨هـ(١٢٠١م): «ملوك العرب لأمين الريحاني في ج١ ص ٦٢-٦٣» و«من الثورة العربية الكبرى - مذكرات ابراهيم الراوي ص ١١٢». ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الذي تولى إمارة مكة في ذلك الوقت بعد الشريف عون ما ذكره الشنقيطي أيضاً من أن أستاذه شعيباً سافر الى تركيا سنة ١٣٢٦هـ وتصادف بالتاريخ الميلادي (١٩٠٨م) وهو نفس التاريخ الذي تولى به الشريف حسين إمارة مكة وفي ٩/ شعبان/ ١٣٣٤هـ(١٠/ حزيران/ ١٩١٦م) أعلنها ثورة عربية على الأتراك «مذكرات الراوي ص ٦٨». وفي ترجمة الشيخ محمد النبهاني الخطية - كما سيأتي - أن الشريف حسيناً بن علي أمر باجراء امتحان لطلبة العلم من قبل الشيخ محمد سعيد بن محمد بابصيل سنة ١٣٢٧هـ بقصد ترفيعهم وانتظامهم في سلك العلماء. وكل هذا يؤيد رأينا في أن المقصود هو الشريف حسين بن علي.

١٩ - سفره إلى الهند وعُمان والبحرين والأحساء:

وفي سنة ١٣٢٦ هـ(١٩٠٨ م) وهي نفس السنة التي تولى بها الشريف حسين إمارة مكة، وبعد إلقاء الشنقيطي قصيدته بحضرته - كما تقدم - بعد هذا سافر شيخه شعيب[١] الى تركيا، وكان يقرأ عليه طلاب من قازان، مقامات الحريري، فعهد الى تلميذه محمد الشنقيطي بالاستمرار معهم حتى إكمالها، ففعل، كما أن الطلاب طلبوا اليه بعدئذ أن يقرئهم ألفية العراقي في مصطلح الحديث[٢] فأنجز لهم جملة من أولها،

---

(١) قال الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الرابح - المتقدم الذكر - إن الشيخ شعيباً قد توفي - رحمه الله - خلال سنة ١٩٤٣م أو سنة ١٩٤٤م خلال الحرب العالمية الثانية.

(٢) ألفية العراقي في مصطلح الحديث: «تأليف الحافظ - أبو الفضل - زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن الملقب بالعراقي ولد في ٢١/ جمادى الأولى من سنة ٧٢٥هـ في (رازانا) من أعمال اربل، وكان كردي الأصل شافعي المذهب، رحل أبوه به صغيراً الى مصر وبها تعلم ونبغ، ونظر في الفقه وأصوله على شيوخ منهم: الاسنوي، وابن عدلان، وكانت إليه رئاسة الشافعية، وسمع الحديث على جماعة منهم: العلاء التركماني، واستظهر الحاوي، والالمام لابن دقيق العيد، وتصدى للتصنيف والخطابة، ثم رحل الى الحجاز والشام، وجاور بمكة، وبيت المقدس زمناً، وأخذ عن شيوخها. وحج مراراً، وولي قضاء المدينة المنورة، وإمامة مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم نيفاً وثلاث سنين، وأملى هناك، وعاد الى مصر، وولي تدريس الحديث بالكاملية، والظاهرية، وجامع ابن طولون، فأملى ستة عشر واربعمائة مجلساً، وكان كثير الصيام، قوّام الليل، وكان عالماً بالنحو، والغريب، واللغة، والقراءات، والفقه وأصوله، والحديث وغلب عليه واشتهر به. ومن شيوخه: شيخ الاسلام العز بن جماعة، ومن أصحابه: الهيثمي، ومن تلامذته، شيخ الاسلام الحافظ بن حجر العسقلاني وحيد عصره وإمام الدنيا بأسرها في أيامه في علوم الحديث والفقه والجرح والتعديل، وجميع فنون العلم. قالوا لما حضرت العراقي الوفاة قيل له: من تخلف بعدك؟ قال: ابن حجر، ثم ابني أبا زرعة، ثم الهيثمي. =

ثم سافر الى الهند وهناك اجتمع بالشيخ عبد الوهاب الزيّاني من أهالي البحرين والذي نزل عنده عند مروره بعد ذلك بالبحرين فأكرم مثواه - كما سيأتي - وبعد أن ترك الهند قصد عُمان ومنها الى البحرين، ثم توجه الى الاحساء ونزل في مدرسة الشيخ أبي بكر وواظب على حضور دروس الشيخ عيسى بن عكاس[1] وقرأ عليه جانباً من كتاب

= ومن تصانيفه: (١) المغني عن حمل الأسفار في الاسفار، في تخريج أحاديث الاحياء. (٢) نكت منهاج البيضاوي في الأصول. (٣) ذيل على الميزان. (٤) الألفية - منظومة على مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث. (٥) التحرير في أصول الفقه. (٦) نظم الدرر السنية في السيرة النبوية. (٧) الألفية - منظومة في غريب القرآن. (٨) تقريب الاسانيد وترتيب المسانيد. (٩) ذيل على ذيل العبر للذهبي. (١٠) شرح التقريب. (١١) شرح الترمذي تسعة مجلدات، ولم يكمل، شرع فيه من أوائل كتاب الصلات حيث انتهى ابن سيد، وهو شرح نفيس، ممتع، فوائده جمة لا توجد في سواه. (١٢) التقييد والايضاح - ألفه الامام العراقي - رحمه الله - شرح فيه كتاب علوم الحديث المشهور بمقدمة ابن الصلاح، والمقدمة المذكورة هي نفسها التي نظم الامام العراقي مضمونها شعراً في ألفيته المعروفة، فجاءت أعجوبة في فن مصطلح الحديث حتى ناهزت شروحها بأقلام جهابذة العلماء عشرة شروح، أحدها كتاب - فتح المغيث - للامام السخاوي رحمه الله، ويقع في ثلاثة أجزاء. وتعد مقدمة ابن الصلاح خير كتاب ألّف في هذا الفنّ، وما كتب كاتب في علم المصطلح فأحسن وأجاد الا وكان لابن الصلاح عليه الفضل والسابقة، والألفية هذه هي المقصودة بقول الشيخ الشنقيطي بوصفها ألفية العراقي.

وابن الصلاح: هو الامام الحافظ مفتي الشام، شيخ الاسلام، تقي الدين أبو عمرو: عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر الكردي الشهرزوري الشافعي المعروف بابن الصلاح. المتوفى في دمشق سنة ٦٤٣ هـ ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر - رحمه الله - ومولده سنة ٥٧٧ هـ بِشَرَخان وهي قرية من أعمال إربل، قريبة من شهرزور «التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان».

(١) الشيخ أبو بكر مؤسس المدرسة في الاحساء هو: أبو بكر بن عمر الملا الاحسائي =

بلوغ المرام[1] وكتاب منتقى الأخبار، وشيئاً من الفرائض، ونبذة من كتاب أقرب المسالك في الفقه على الشيخ عبد العزيز بن مبارك، ثم طلب الى عمه الشيخ ابراهيم أن يخصص له دروساً في ما يشاء من العلوم، ولكنه اعتذر قائلاً: «يكفيك الشيخ عيسى». وقال الشنقيطي: «لأن آل مبارك يبغضون ابن عكاس بغضاً شديداً» كما في مذكراته.

٢٠ - التوجه الى الزبير في العراق:

وفي شهر صفر من سنة ١٣٢٧ هـ(١٩٠٩م) أثناء وجوده في الاحساء، جاءته رسائل من أستاذه الشيخ شعيب يطلب إليه فيها التوجه الى مدينة الزبير من أعمال البصرة في العراق، حيث ابتنى فيها الشيخ مزعل باشا السعدون مسجداً ومدرسة وطلب الى الشيخ شعيب أن يتولى ادارة جهتيها، ولذلك فقد كلّف شعيب تلميذه الشنقيطي بالذهاب الى البصرة وتولي هاتين الجهتين بدلاً منه، لأنه مزمع العودة الى المغرب، فلم يجد بداً من قبول أمر أستاذه ولو على غير رغبة منه لعزمه على مواصلة دراسته[2] فسافر بصحبة أستاذه الشيخ عبد العزيز بن حمد آل مبارك الاحسائي من الاحساء الى البحرين - في طريقه الى الزبير -[3]. نزل

= الحنفي نزيل الاحساء المولود سنة ١١٩٧ هـ والمتوفى سنة (١٢٧٠ هـ) وقد رحل الى أقاصي البلاد لطلب العلم، وله اليد الطولى في التأليف وبلغت مؤلفاته ما بين صغير وكبير ما يقارب الاربعين مؤلفاً وأغلبها في مختصر المؤلفات المطولة، ومنها اختصاره لتبصرة ابن الجوزي المطبوع في بمبي سنة (١٣٠٤هـ) وفيه ترجمته وأسماء مؤلفاته بالتفصيل عن كتاب «أعيان البصرة للشيخ عبد الله باش أعيان العباسي المتوفى سنة ١٣٤٠هـ والناشر الشيخ جلال الحنفي سنة ١٣٨٠ هـ(١٩٦١م).

(١) بلوغ المرام في أدلة الاحكام في الحديث لابن حجر العسقلاني.

(٢) مذكراته الخطية.

(٣) مارس عبد العزيز بن حمد آل مبارك التدريس في المدرسة المباركية في الكويت =

الشنقيطي على الشيخ عبد الوهاب الزياني الذي تقدمت الاشارة إليه والذي تعرف عليه الشنقيطي عند زيارته للهند[1]، ونزل صاحبه عند

= إبان تأسيسها وروى له عبد العزيز الرشيد أبياتاً مدح بها أحد علماء الكويت هو الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان فقال:

ألا أبلغا عني فتى المجد اطلاقا	ومن سبق الاقران في العلم إطلاقا
وأربى على نهر المجرة فقهه	لذا زُهرها لاحت لعلياه أخلاقا
أديب على حبه أطوي جوانحي	وأجعله في موقف الحشر ميثاقا
سلاماً تمطى نسمة بات ركبها	بروض من النسرين والند قد راقا

وذكر له أبياتاً في وصف القهوة حيث قال:

قم يا رفيقي فاسقني يمنية	أذكى من الورد الجني وأضوعا
وأدر علينا من جناها قهوة	حمراء تستصبي العفيف الأورعا
بكراً تصير الكأس لون متيم	فتخاله بجمالها متولعا

وقال وهو في أبي ظبي:

أخذ الدلة من كانونها	بشمال وأدار الكأس بيمنى
طال ليلي بأبي ظبي ولا	ظبي لي فيه يحاكي البدر حسنا

« تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٩٤ ، ٢٧٤ ، » وعلى ما في هذا الشعر من ضحالة وهنات فقد أورده له صاحب تاريخ الكويت .

(١) قال عنه مؤرخ الكويت الاول الشيخ عبد العزيز الرشيد في كتابه - تاريخ الكويت - ص ٣١٢ ما يلي:

« توفي مصلح البحرين وزعيمها العالم الشيخ عبد الوهاب الزياني في بمبي سنة ١٣٤٣ هـ ، فرثاه الشاعر الكويتي عبد اللطيف بن ابراهيم آل نصف فقال مستهلاً قصيدته:

بطل الجهاد ضحية الأوطان	لك في الشهادة رتبة الرضوان

ومنها:

ضحيت بالعلق النفيس لأجلها	بالأهل ، بالأموال ، بالخلان

ويختتمها قائلاً:

ابن عم له هناك، ثم قصدا الكويت، وفيها بلغهما خبر وفاة الشيخ مزعل السعدون[1] فهمَّ بالرجوع، الا أن الشيخ عبد العزيز ألح عليه بمواصلة السفر معه الى الزبير فوافق، وعند وصولهما وجدا أن وصيي الشيخ مزعل وهما أحمد الصانع وابراهيم بن مزعل قد وظفا في المسجد والمدرسة رجلاً مغربياً يدعى محمد بن رابح[2] فحل الشنقيطي ضيفاً على علي بن

= هطلت على ذاك الضريح برحمة   مزن الرضى وسحائب الغفران
حيث النعيم من الجنان حنوطه   تغدو اليه ملائك الرحمن

(١) توفي الشيخ مزعل باشا بن ناصر باشا السعدون في شهر محرم من سنة ١٣٢٧ هـ(١٩٠٩م) وهي السنة التي وصل فيها الشنقيطي الزبير في البصرة - كما تقدم - وكانت وفاته بالغموقة أو «الغموكه» كما تعرف محلياً، وهي محرفة من العمق، التابعة لقضاء الشطرة في لواء المنتفك، ويعرف اليوم بمحافظة ذي قار، ودفن بجوار ضريح السيد احمد الرفاعي في الجزيرة «التحفة النبهانية - تاريخ المنتفق ص ١٧٠ في جدول الوفيات - تأليف الشيخ محمد النبهاني».

(٢) محمد بن رابح: هو العلامة الفاضل محمد بن رابح المغربي المقيم في الزبير، والذي كان بصحبته أبناء أخوي مبارك الصباح محمد وجراح اللذين قتلهما مبارك أخوهما، فغادر أبناؤهما الكويت الى البصرة بمعية السيد عبد الوهاب الطباطبائي مدير ناحية الزبير يومذاك والشيخ محمد الرابح المذكور، والذي كان قد كتب عن الوقائع التي حدثت بين مبارك وأخويه وأبنائهما والشيخ يوسف آل ابراهيم كتابة مستفيضة، ولكنه - ويا للأسف - أتلفها أخيراً، ولم يرد نشرها حسماً للفتنة، وابقاءً على وشائج القربى: «تاريخ الكويت ص ١٢١». وهو والد عبد الله الرابح المدرس بمدرسة الدويحس الدينية الأهلية في الزبير ثم باشر التدريس بالمعهد الاسلامي في البصرة التابع لوزارة الأوقاف.

أما جامع مزعل باشا فقد أهملت جهة التدريس فيه، وكذلك مدرسة الدويحس، كما أهملت كثير من جهات التدريس الدينية في البصرة، وفي النية تأليف كتاب عن هذه المدارس والمساجد المندرسة، أما جهة الامامة والخطابة في جامع الشيخ مزعل فلا زالت قائمة وقد أشغلها أخيراً عبد القادر بن محمد صالح بن الشيخ محمد الدليشي من آل عربو من بني خالد وهو عم كاتب هذه الاسطر، حتى توفي - رحمه =

عبد الله بن عبد الرحمن البسام واخوته، وكان مزمعاً التوجه الى مكة، ولكن بعض الطلبة والأهلين طلبوا إليه أن يعقد لهم دروساً في تلك الفترة قبل أن يرحل الى مكة بنية الحج، ففعل، ولما رأوا من علمه، وفضله، وتجديده في الفكر الديني الصحيح، مما هم في أمس الحاجة إليه، فألحوا عليه، مع الكثرة الغالبة من الأهلين الذين استمعوا الى دروسه ووعظه، وعرضوا عليه بالحاح أن لا يبرح بلدهم، وأن يقيم بينهم، خدمة للعلم والدين، فعدل عن رأيه استجابة لرغبتهم. واستمر على التدريس والوعظ والارشاد، وما لبث دائباً حتى تسابق الناس لحضور مجالسه، وازدحم المسجد بالسامعين المتلهفين الى الاستزادة من العلم والمعرفة، والتوجيه الديني، لعدم عهدهم بواعظ ومرشد ومدرس من هذا النمط، ولضيق المسجد على رحبه بالقاصدين. كان الكثير منهم يجلسون تحت أشعة الشمس خلال صيف البصرة المحرق، فذاع صيته ليس في الزبير فقط، بل في جميع أرجاء البصرة، كما تناقل الناس، أخبار علمه، ووعظه، وأسلوبه المفعم بالمعرفة وآرائه الدينية المجددة، مشيعاً بالثناء والاطراء والاعجاب، في كل مكان، حتى اتصل ذلك بالكويت والخليج العربي كله ومكة والمدينة والرياض.

٢١ - زواجه وأولاده:

لما رأى أهل الزبير ما رأوا، وسمعوا ما سمعوا من علم هذا الرجل ونشاطه، وإخلاصه في دعوته الى سبيل ربه، وصراحته في الجهر بالحق، رغبوا فيه، وبدا لهم أن الحاجة ماسة إليه، وأن الناس أصابهم نشاط

= الله - في ٣/ ذي القعدة سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢/٢/١١ م) وبعد وفاته صار يشغلها الشيخ عبد الكريم بن الملا سلطان من أحفاد الشيخ علي بن محمد صالح البدران.

ديني فكري، فأقبلوا على المساجد بقلوب ملؤها الايمان، ونفوس مشتاقة للاستزادة من العلم والمعرفة، والتربية الدينية الخالية من شوائب البدع، والأوهام، والجهل، ففكروا في وسيلة لاقامته الدائمة بينهم، وذلك بتوثيقه بسبب يجعله مرتبطاً بالبقاء بينهم، فلم يجدوا رابطة أقوى من الزواج، لذلك عرضوا عليه الأمر، ورغبوه فيه، وأعانوه عليه. وتجاه إعجابه بطيب البلد وأهله، والحاجة الماسة لنشر الوعي الديني الصحيح، والقضاء على الأفكار الجامدة، والجهالات المضللة، وافق على الزواج، ليتخذ من الزبير بلداً لاقامته الدائمة فتزوج في نفس السنة من الآنسة - لولوة - بنت سلطان السلطان الملقب بالطويل، وقالت السيدة عائشة بنت الشيخ الشنقيطي إنَّ أمها حين تزوجت والدها كانت يتيمة، وقد انقرضت عائلة والدها، ولم يبق منهم أحد آنذاك، ولم يتزوج الشيخ الشنقيطي غيرها وهي أم أولاده كلهم وهم كما أخبر ابنه يوسف:

(١) عائشة: وتزوجها الدكتور أمين الهلالي، وأنجب منها ابنته خولة الحائزة على شهادة بكلوريوس بدرجة امتياز من كلية الآداب في بغداد، وكانت الأولى على منتسبي دورتها.

(٢) حسن: وتوفي بالكويت.

(٣) مريم: وتوفيت بالزبير.

(٤) ميمونة: وتزوجها السيد يوسف الفداغ، والد الدكتور داود الفداغ، وهي زوج أبيه وليست أمه.

(٥) أمين: وتوفي قبل الزواج عن عمر يناهز الثلاثين سنة.

(٦) يوسف: متزوج وله أربع بنات، وكان يشغل منصب معاون مدير المصرف التجاري في البصرة، ثم انتقل الى الكويت، وكان قد حصل على شهادة الدراسة الاعدادية في البصرة لسنة ١٩٥٠-١٩٥١م. وهو الذي أدلى بهذه المعلومات الخاصة بالأولاد.

(٧) طيبة: توفيت صغيرة.

وبعد أن تزوج واستقر به المقام، تفرغ للتدريس والوعظ والارشاد بأسلوب لا عهد للسامعين بمثله، أسلوب جريء صريح، ينزع لنشر الاسلام الصحيح الذي جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مجرداً من البدع والخرافات والأوهام.

٢٢ - منهجه في البحث وتأثره بمدارس الفكر الديني:

كان الشيخ الشنقيطي مالكي المذهب، كمعظم سكان شنقيط في المغرب، والمعروف عن الإمام مالك أنه يأخذ بالكتاب والسنة، وهو إمام أهل المدينة في ذلك العصر، ولكنه لا يهمل الرأي، شأنه شأن فقهاء الحجاز، ولو لم يكونوا كأهل العراق في الاعتماد على الرأي، إلا أنهم يردون بعض الأحاديث لمعارضتها للقرآن، أو لحديث آخر أكثر اعتماداً، أو لأصلٍ كلي. ولتوضيح ذلك نقتطف فقرات مما ورد في كتاب - الشافعي - للامام محمد أبي زهرة في قوله:

«ولقد عقد لذلك الشاطبي في - الموافقات - فصلاً قيماً ذكر فيه أن عائشة وابن عباس وعمر بن الخطاب، ردوا أحاديث لمخالفتها لبعض الأصول الاسلامية، كقاعدة رفع الحرج. وكانت تلك المخالفة سبباً في تكذيب نسبتها الى الرسول عندهم. وذكر أن مالكاً اعتمد ذلك

الأصل، ثم قال: ألا ترى إلى قوله « أي الإمام مالك » في حديث غسل الاناء من ولوغ الكلب سبعاً: « جاء الحديث ولا يدرى ما حقيقته ». وكان يضعه ويقول: « يؤكل صيده، فكيف يكره لعابه؟ »[1] فمالك يرد الأحاديث لمخالفتها الأصول العامة، لأن الأصول قطعية، وخبر الواحد ظني.

ولما كان الشنقيطي قد درس مذهب الامام مالك دراسة متتبع، على أيدي علماء أعلام، في مكة والمدينة، إضافةً إلى أساتذته الآخرين من محدثين وفقهاء، ومتكلمين ومفسرين يؤلفون بمجموعهم مدرسة إسلامية رصينة، تتناول الفكر الاسلامي من أصوله، وتلم به من جميع أطرافه. يضاف الى ذلك تتبعه في دراساته الخاصة، وذكائه اللامع، وبيئته الفكرية الحرة. لذا فقد خرج بعلم صحيح، وفكر شامل دقيق في موارد الدين الاسلامي من الكتاب والسنة، والاجماع والقياس معتمداً في ذلك آراء أكابر المسلمين المفكرين، الذين لا ترقى التهم الى سلامة عقائدهم الاسلامية. لذا نراه ينزع في كثير من آرائه الى الأخذ بآراء تقي الدين ابن تيمية، الذي قال عنه أبو زهرة في مقدمة كتابه « ابن تيمية » بالنص:

« ولم يكتف أن يثير عليه خصومه من الفقهاء، والمتكلمين فقط، بل أثار صوت الحق الذي كان ينطق به طائفة أخرى أشد لجباً، وأقوى على العامة سلطاناً، تلك هي الصوفية، جاهر بمخالفتها، وندد بطرائقها، وأعلنها عليهم حرباً شعواء، ورماهم بالشعوذة، وإفساد النفوس، وأنكر عليهم ما ينشرونه بين أتباعهم من التوسل بالأولياء والصالحين، وعدَّ

(١) ص ٧٩.

ذلك من قبيل اتخاذ المخلوقين شفعاء للخالق ليقربوهم إليه زلفى ». وإلى أن قال:

« بل إن هداية العامة ألزم، لأن العالم مسؤول عن إرشادهم وإن ضلوا، وهو يستطيع الارشاد، وإنارة السبيل، فعليه وزر من وزرهم، فانه كان يأخذ بقول علي « رضي الله عنه »: « لا يسأل الجهلاء لِمَ لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لِمَ لم يعلموا »[1].

وسار الشنقيطي على هذا المنهج الذي سار عليه من قبله أكابر المفكرين من المسلمين أمثال ابن تيمية هذا، وابن القيم وابن كثير، وابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ، مؤلف كتاب - مصرع التصوف -[2]. وأخيراً محمد بن عبد الوهاب الذي قال عنه أبو زهرة في شرح الوهابية - استطراداً:

« واستمرت موجات التاريخ تسير بذكرى ابن تيمية، وآثاره، وعلومه، في ريحٍ رخاءٍ، سهلة غير مضطربة، حتى ظهر في القرن الثاني عشر الهجري، والقرن الثامن عشر الميلادي، في بلاد نجد من البلاد. العربية محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٧ م) فقد عكف على دراسة كتب ابن تيمية في الاعتقاد، والفقه، وأمعن في فهمها، وآمن بما جاءت به، وتحمس لها، بل تعصب، واشتد في تعصبه، ودعا من حوله الى اعتناق هذه الآراء، بل تكوَّن من هؤلاء الأنصار دولة صغيرة، ذلك بأن محمد بن عبد الوهاب كان من أشد أنصاره صهره محمد بن سعود، جد الأسرة الملكية السعودية، وكان فارساً مغواراً، فقام بمغامرات حربية

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة ص ٧.

(٢) مصرع التصوف - تحقيق عبد الرحمن الوكيل ص ١٧.

لنشر مذهب ابن تيمية وحمايته »[1]... وإلى أن يقول:

« وقامت بذلك تلك الدولة الصغيرة، وفيها التحقيق العملي لآراء ابن تيمية في ما يتعلق بزيارة الأضرحة، وقبور الصالحين، بل قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد شنوا غارة على البدع - في نظرهم - وحاربوها بكل قوة، وأحيوا - في نظرهم - السنّة بأعمالهم... ومنعوا الحاق المآذن بالمساجد، واستعمال المسابح »[2] ويتابع قائلاً: « ولقد قاموا في وجه الدولة العثمانية التي كانت البلاد العربية بنجدها وسهولها ولاية من ولاياتها، وحاربوها، واشتدوا في حربها، حتى أنها لم تقدر على صدهم، فاستعانت بمحمد علي الذي كان والياً على مصر، وعنده العدة والعتاد، والقوة المصرية القوية، فخرجت الجنود المصرية إليهم، وصدتهم، وأنزلت بهم الخسائر الشديدة في الرجال، وآبوا الى مثابتهم من حيث خرجوا »[3].... ويختم قوله: « وإذا كان السعوديون حنابلة فانهم

---

(١) حين اتصل الخبر بأمير الدرعية الإمام محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بأن محمداً بن عبد الوهاب قد حل ضيفاً على أحد تلامذته الشيخ أحمد بن سويلم، وهو منزوٍ في داره، خفّ للقائه والسلام عليه وقابله بالحفاوة والاكرام، وآمن بآرائه واعتنق مذهبه.

(٢) جمع مسبحة وهي العقد النظيم من الخرز المعروف الذي يستعمله المتنفلون عند ذكر الله والصلاة على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم لضبط عدد أذكارهم وتسابيحهم، ومن هنا جاء لفظ المسبحة كونها اسم آلة للتسبيح، غير أنها اتخذت بعد ذلك للتباهي واللهو والزينة، حيث اختيرت حبات بعضها من مواد نادرة غالية كالذي يعرف بالكهرب، أو خشب الكوك، أو العقيق، أو الذهب أو اللؤلؤ، كما استعملتها النساء حلياً في نحورهن، واتخذت أحيانا للترانيم في الحلقات الصوفية، أو الاذكار المشابهة وذلك لتنظيم الايقاعات الشعرية، وبعض الناس لا تنفك أصابعه عن اللهو بها.

(٣) وذلك باحتلال عاصمتهم الدرعية عام ١٨١٨م وأسر أميرهم عبد الله بن سعود بقيادة ابراهيم باشا المصري ابن محمد علي. وورد في مقال لوزير المعارف السعودية =

يعتبرون ابن تيمية الامام بعد أحمد. ونضرع الى الله أن يأخذ أمراؤهم بسنة العدل، وأن يكونوا مظهراً حياً للاسلام في تقواه واستقامته »[1].

فأقول على هذا النهج سار الشنقيطي في تعليمه، ووعظه، وإرشاده في مدينة الزبير، متأثراً بدراساته العميقة للمدارس الاسلامية الفكرية المتقدمة الذكر، وغيرها من آراء العلماء الناحية هذا المنحى، منطلقاً من القيود المذهبية الملزمة، معتبراً مذهب الامام مالك أمثل المذاهب الاسلامية، وأقربها الى الصواب، كما كان ابن تيمية منطلقاً من هذه القيود أيضاً، معتبراً مذهب الامام أحمد القدوة الأصلح، كما نهج على ذلك محمد بن عبد الوهاب في اقتفائه أثر ابن تيمية - كما تقدم.

فالشيخ الشنقيطي لا يعدو أن يكون متأثراً بآراء ابن تيمية، والبقاعي، ومحمد بن عبد الوهاب، وبآراء أساتذته في مكة والمدينة، والاحساء، وكل هؤلاء يسيرون على خط واحد، وسبيل مستقيم، وهو اتباع سبيل المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يعرف بنهج السلف الصالح.

٢٣ - محنته في آرائه ومنهجه:

بسطنا في ما تقدم القول في المذاهب والمدارس والآراء الاسلامية

= حسن عبد الله آل الشيخ المنشور في مجلة العربي الكويتية في العدد (١٤٧) لشهر ذي الحجة من سنة ١٣٩٠ هـ(شباط/ ١٩٧١ م) ذكر أن ولادة محمد بن عبد الوهاب كان في بلدة - العيينة - من بلدان العارض بنجد سنة ١١١٥ هـ(١٧٠٣ م) وتوفي في سنة ١٢٠٦ هـ(١٧٩١ م) عن عمر يناهز التسعين عاما ويؤيد ذلك ما ورد في كتاب - عنوان المجد - لابراهيم فصيح الحيدري في الصفحة ٢٢٨ وفيه اختلاف عما ذكره الشيخ أبو زهرة - كما تقدم أعلاه -.

(١) ابن تيمية - لأبي زهرة ص ٥٣٠.

التي تأثر بها الشيخ الشنقيطي، وصاحب الرأي السديد، والعقيدة الصحيحة الراسخة لا يستطيع كتمانها ولا المواربة فيها، والا فقد كان بامكانه أن يسير على النهج الديني التقليدي الجامد الذي كان سائداً ومقبولاً في مدينة الزبير ويعيش في أمن ودعة، ويجنب نفسه المشاكل والاثارات، وغضب العامة. ولكن أنّى له ذلك، وهو العالم بمعنى قوله تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...﴾ وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1]. وبما تقدّم من قول الإمام عليّ - رضي الله عنه - لا يسأل الجهلاء لِمَ لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لِمَ لم يعلموا - إلى غير ذلك من الآثار الواردة بهذا المعنى.

وعلى هذا فعندما استقر به المقام في مدينة الزبير راح يؤكد على هذه التعاليم بوجوب اتباع الكتاب والسنة النبوية ملمحاً تارة، ومصرحاً أخرى، مشيراً الى عدم وجوب التقيد بالمذهبية التي لم تكن سائدة في صدر الاسلام، ناهياً عن التوسل بقبور الأولياء والصالحين لشفاء المرضى، وقضاء الحاجات، وتقديم القرابين والنذور لأرواحهم، منكراً، منددا، ناسباً كل ذلك الى الجهل بتعاليم الاسلام، والابتعاد عن دراسة الشريعة الغراء التي جاء بها محمد بن عبدالله (ص)، ملقياً اللوم على العلماء من جهة لتقصيرهم في تفقيه الناس، ونهيهم عن التمسك بالبدع والضلالات، كما كان يرميهم - من طرف خفي - بالجمود، والجهل بدراسة أصول الفقه وفروع الدراسات الاسلامية والفكرية الأخرى، وعلى الحكومة العثمانية - من جهة أخرى - لعدم الأخذ بأيدي هؤلاء العلماء، وتشجيع المدارس الدينية، والانفاق عليها، الأمر الذي تسبب عنه أن

(١) سورة الحِجر: من الآية ٩٤، وسورة القلم: الآية ٩.

يعم الجمود وينتشر الجهل متى قلَّ العارفون بكتاب الله وسنة رسوله، واتخذت البدع والضلالات ديناً يقتدى به، كما صبَّ لومه على الحكومة العثمانية أيضاً في إقرارها الفواحش، وتعطيلها إقامة الحدود الاسلامية الرادعة(١).

فكان لتعاليم الشيخ الشنقيطي الحقيقية وآرائه الاسلامية الصحيحة المعززة بالقرآن والحديث، صدى عميق في نفوس الناس المزدحمين على مجالس وعظه، وحلقات درسه، كما سرى ذلك الصدى الى البعيدين عنه في أنحاء البصرة، والكويت والخليج العربي عامة، مما أثار حفائظ بعض أئمة المساجد في الزبير، ممن وجدوا أنفسهم دون هذا المستوى، وأصبحوا أقل اهتماما في نظر العامة، الأمر الذي جعلهم يشعرون بشيء من عدم الموازنة، والمساواة، بينهم وبين هذا العالم الجديد، الذي اقتحم عليهم حماهم، ونافسهم في مجال رزقهم، واعتباراتهم الشخصية والاجتماعية والثقافية، والذي جعل الناس لا يملون الحديث عنه بالمدح والثناء، لذلك راحوا يلتمسون له المعايب، بدافع الغيرة والحسد «وقديما كان في الناس الحسد» - كما يقول عمر بن أبي ربيعة - وكما قيل أيضاً من أن العلماء يتغايرون تغاير التيوس إذا أطري أحدهم بالمدح تجاه الآخر. فأعجزهم أن يجدوا فيه عيباً، ثم اعتمدوا البحث عن الزلات في آرائه وما يصرح به من مخالفات لما كان عليه الناس من تقاليد في اعتناق المذاهب، وزيارة القبور، والتوسل للأولياء بالنذور، كما وجدوا ضالتهم في تحديه للدولة العثمانية، والتشهير بها، والتنديد بسياستها المخالفة للشرع الاسلامي، ولم يجدوا باباً يسلكونه في هذا الصدد أوسع وأرحب من

---

(١) مذكراته الخطية.

العامة، وفيهم الجاهل، والمنتفع، والمتعصب. وقديماً كان هذا الباب مجالا راصداً لاشهار السلاح في وجه العلماء الاعلام المخلصين، وفي التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك، ولذا فقد أشاعوا فيهم أنه يغمز سيدنا الزبير بن العوام، ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغض من قدره، ويندد بزواره، وينال من قدر الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة. كما اندفعوا يستعدون عليه الحكومة العثمانية بشخص مدير ناحية الزبير، ناسبين اليه التشهير بها، والتقليل من هيبتها لدى العامة، بكثرة انتقادها، والتحامل عليها، ناسباً إليها سبب جهل الناس بالدين والى ما أشبه ذلك. فشحنت بعض الأذهان بالريبة منه، وترددت أقوال تؤكد أن هذا المغربي يجب إبعاده لأنه يثير الفتن، ويقدح بالحكومة، ويحرض الناس على الثورة عليها، فوقر في ذهن مدير الناحية شيء من هذا، إلا أنه كان رجلاً مدركاً لأسباب هذه الحملة الظالمة فلم يرد أن يكون أداة في أيدي هذه الزمرة من الجهلة الحاسدين، كما لم يرد أن يتعجل بالحكم على هذا الرجل المخلص الجريء في الحق، ولذا فقد أراد أن يستطلع الحقيقة عن كثب، وأن يستكنه الصواب ممن يتوخى فيهم الصدق والحكمة والعدالة من أهل العلم في الزبير، فقصد الشيخ محمد بن عوجان، وكان عالماً متضلعاً في علم الفرائض، وإماماً في مسجد الباطن، متصفاً بالعلم والحلم والورع وحسن الخلق[1]. فلما زاره وسأله عن الشيخ الشنقيطي وعن حقيقة الضجة القائمة ضده، فأثنى عليه، وأيد غزارة علمه، وإخلاصه لربه،

---

(١) كما عرفه أحد تلامذة الشيخ الشنقيطي صديقنا وزميلنا في الدراسة عبد الله محمد الشبل والذي كان مديراً لشرطة لواء الكوت ثم مدرساً في كلية الشرطة وهو ممن تخرج بالكلية العسكرية في بغداد سنة ١٩٣٧م وقد توفي رحمه الله في أواخر سنة ١٩٧٦م وكان مثالاً للتقى والورع.

وسلامة نيته، وحرصه على نشر الاسلام الصحيح، ومحاربة الضلالات والبدع التي ليست من الاسلام في شيء، وهو لا يقصد الا الخير، وتعليم الناس دينهم مجرداً عن الخرافات والأساطير، كما يرى أن ذلك من أوجب الواجبات عليه، وأنه آثم إن أمسك عن نشر العلم، وهداية المسلمين بل والناس أجمعين، وقد حصل منه نفع كثير للبلد باقبال الناس على الدين، وترك المحرمات. فاقتنع مدير ناحية الزبير بذلك، وعرف القصد من هذه الاثارة[1].

٢٤ - استدعاؤه إلى الكويت:

بالرغم من كل ما كان يحاك حول الشنقيطي من دسائس، وما يثار ضده من ضجيج، وما ينسب إليه، افتئاتاً وزوراً من انحراف عن النهج الاسلامي، وما يقابل به من تشهير من قبل حاسديه الذين نوَّه بأسمائهم في مذكراته الخطية التي نثبت ما لخصناه منها في آخر هذا الكتاب. أقول بالرغم من كل ذلك، فقد مضى سائراً على طريقته المثلى لا يضره من ناوأه، وهو فرد أعزل إلا من الايمان، فأشربت القلوب المؤمنة بحبه، وأثمرت أبحاثه، ودروسه، ومواعظه، وإرشاداته ثمارها الطيبة، فاهتدت القلوب، وارتدعت النفوس عن غيها شاعرة بلذة الهداية، وحرارة الايمان، واستمر على ذلك منذ مجيئه في سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) حتى سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م). وفي هذه السنة جاءته دعوة من السيد فرحان الفهد الخالد الخضير أحد مؤسسي الجمعية الخيرية في الكويت، وكان الغرض من تأسيسها هو إرسال طلاب العلوم الدينية الى الجامعات الاسلامية في البلاد العربية الراقية كالقاهرة وبيروت ودمشق وغيرها من أمهات المدن العربية، وصرف ما يقتضي لهم من الانفاق من

---

(١) مذكرات الشنقيطي الخطية.

صندوق الجمعية، واستدعاء واعظ ومحدث فاضل يرشد الناس ويعظهم، ويفقههم في الدين، وتتوسل في استدعاء طبيب وصيدلي مسلمين حاذقين لمعالجة ومداواة الفقراء مجاناً، وتوزيع الماء الذي هو من أهم الحاجات في الكويت، والى ما أشبه ذلك من الخدمات الدينية والاجتماعية والانسانية. فافتتحت هذه الجمعية في ربيع الآخر من سنة ١٣٣١ هـ(١٩١٣م) وأقيم لافتتاحها حفلة كبرى ألقيت فيها الخطب والقصائد وفي السنة نفسها دعي اليها الشيخ الشنقيطي واعظاً ومحدِّثاً، لما عرف عنه من العلم والاخلاص والجهر بالحق، والدعوة الى نشر الاسلام الصحيح الذي ينهض بالمسلمين كما نهض بهم في سالف العصور، فعهد اليه مهمة تعليم الحديث الشريف، والقيام بالوعظ والارشاد، كما دعي إليها من البصرة الطبيب التركي الدكتور أسعد وأحد الصيادلة الذي جلب ما يحتاج اليه من أدوات وأدوية. واستمرت هذه الجمعية دائبة على تحقيق رسالتها بعزم وحزم واصرار وكان من جراء ذلك أن التف الناس حول الجمعية وحول مجالس ومواعظ وارشادات الشيخ الشنقيطي، واتفق أن زار الكويت في تلك الآونة رواد من أهل العلم، والذين كانوا يعقدون الحلقات تلو الحلقات في شرح فضائل طلب العلم، والتمسك بأهداب الدين الاسلامي الذي يوحد الكلمة، ويدعو الى الخير، ويحارب الجهل والضلال. وكان من جراء ذلك أن انتبه الناس من غفلة الجهل، ونشط الوعي في العلم والدين نشاطاً ملحوظاً، كما تغذي هذه البادرة كتب ومجلات تنحو هذا النحو فدفعت كل هذه الى بواكير حركة علمية وأدبية، والى طلائع نهضة فكرية مباركة. وكان من أشهر هؤلاء الرواد الذين أيقظوا الهمم، وشحذوا الأفكار والنفوس باليقظة العلمية، والحرية في الرأي الزعيم التونسي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي،

والشيخ رشيد رضا، والشيخ حافظ وهبه، والشيخ نجم الدين الهندي، والشيخ محمد الخراشي الأزهري والأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي وغيرهم كثير ممن درس وحاضر وحدَّث ووعظ وأرشد حتى أصبحت الكويت أثناء ذلك طريقاً للعلماء، أو دار هجرة للدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة[1]. وهناك من كان يشغل التدريس في المدرسة المباركية من أبناء الكويت أو الخليج العربي، والبلاد العربية الأخرى، ومن أشهر هؤلاء المدرسين هو الشيخ حافظ وهبه الذي تقدمت الاشارة اليه، والذي أشاد بفضله وجهوده العلمية الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف تاريخ الكويت - كما سيأتي - وقد تعرف الشيخ الشنقيطي على الشيخ وهبه في الكويت ونشأت بينهما صداقة متينة، والتقاء في الأهداف الفكرية الدينية مما كان له أثر في الاشتراك مع الشنقيطي في مناهضة فكرة الشيخ مبارك الصباح لحمل الكويتيين على مساعدة الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو حاكم المحمرة لاخماد الثورة القائمة ضده - كما سيأتي -.

كانت المدرسة المباركية قد تأسست في الكويت وتم افتتاحها في سنة ١٣٣٠هـ(١٩١٢م) وهي من أوائل المدارس الكويتية، ومن تاريخ افتتاحها يتبين أن الشيخ الشنقيطي لم يكن من مؤسسي هذه المدرسة خلافاً لما ذهب إليه بعض من كتبوا عنه وأشادوا بفضله، ومن هؤلاء تلميذه الشيخ ناصر الأحمد وغيره ممن ينسبون تأسيس المدرسة المباركية الى الشيخ الشنقيطي، ومن هؤلاء صديقنا في البصرة الأديب ابراهيم الرويح ،فان الشنقيطي حين زار الكويت كان قد مضى على تأسيس

---

(١) تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢٩٤.

هذه المدرسة ما يزيد على سنة من الزمن، كما أنه لم يشترك بالتدريس فيها، وقد أكدنا على ذلك استطراداً دفعاً للالتباس.

بقي الشيخ الشنقيطي في الكويت دائباً على إلقاء الدروس في الفقه والحديث، والوعظ والارشاد بهمة ونشاط، وهو لم يتخل عن منهجه في شجب البدع، والضلالات، والتنديد بالمنكرات والمحرمات، داعياً الى نبذ عبادة ما سوى الله، وعدم الخضوع لغير الله، مؤكداً على حرية المسلم الفكرية، والعقيدية، وانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. كان الجو السياسي أثناء ذلك ينذر بالتوتر، حيث العالم على بوادر حرب مدمرة، وكان حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح لا يريد أن يرتفع صوت فوق صوته، ولا أن تعلو كلمة على كلمته، فلم يرق له هذا الاسلوب من الوعظ ومن دعوة الناس في الكويت الى مثل هذا التحرر الفكري والديني، فأراد أن يضع حداً لمثل هذه الاتجاهات قبل فوات الأوان، كما أن مباركاً كان يخشى الدولة العثمانية على إمارته ولحمايته منها عقد معاهدة سرية مع بريطانيا سنة (١٨٩٩م) كما سيأتي وهو يعلم أن مثل هذه المواعظ الداعية الى توجيه الشعب الكويتي - ضمناً - الى الدفاع عن الدين ومحاربة الكافرين تستفيد منها الدولة العثمانية بوصفها دولة مسلمة ضد حليفته بريطانيا الدولة الكافرة، كما أنه توجس خيفة من الطبيب التركي أسعد الذي استدعته الجمعية الخيرية الذي لا يأمن قيامه بالدعاية للدولة العثمانية وتأليب الناس على حلفائه الانجليز، ولذا فأول عمل قام به الشيخ مبارك هو: طرد الطبيب التركي وإصدار أمر بوجوب مغادرته الكويت، وكانت هذه البادرة تمهيداً لاغلاق الجمعية الخيرية وإضعاف صوت الشنقيطي، وفعلاً صدر الأمر بإغلاقها سنة

١٣٣٢هـ(١٩١٤م) والحرب العالمية الأولى على الأبواب. ولكن مباركاً لم يتعرض للشنقيطي بعد بسوء، بل ظل غير مرتاح منه، إلا أنه استمر على إلقاء دروس في الحديث والفقه ومحاضرات في الوعظ والارشاد في المساجد، يسانده نخبة من العلماء والمرشدين حتى حدث للشنقيطي ما أكرهه على الفرار من الكويت ناجياً بنفسه تاركاً أهله وعائلته برعاية وذمة المسلمين الطيبين المحسنين من أبناء الكويت الكرام - كما سيأتي - ولكن قبل أن ننتقل الى شرح الحادث المباشر الذي تسبب عنه خروج الشنقيطي من الكويت على الكيفية التي ذكرناها، فلا بد أن نشير الى ما كتبه أحد أدباء الكويت معلقاً على سبب إغلاق الجمعية الخيرية وطرد الطبيب التركي ومضايقة الشيخ الشنقيطي بأن نقتطف منه ملخصاً كما يلي:

نشر في مجلة - مرآة الأمة - الكويتية في عددها الخامس والعشرين وبتاريخ ١٥/ رمضان/١٣٩١هـ(نوفمبر ١٩٧١م) على الصفحة (١٤) مقال للأستاذ سيف مرزوق الشملان بعنوان: القضاء على الجمعية الخيرية سنة ١٩١٤م. جاء فيه:

«الصحيح أن الشيخ مبارك قضى على الجمعية الخيرية لأسباب سياسية، وتتركز في هاتين النقطتين، وهما:

(الأولى): كانت ميول أصحاب الجمعية من رجال الكويت تتجه نحو الدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة الاسلامية، وهذا الاتجاه لا يرضي الشيخ مبارك الصباح الذي كان يميل الى بريطانية لمصالحه الخاصة، خوفاً من الدولة العثمانية، حيث عقد معاهدة مع بريطانية عام (١٨٩٩م) لحمايته، فكان يعمل ما يرضي السياسة البريطانية في منطقة الخليج

العربي وفي العراق من مناوأة الدولة العثمانية وإضعافها بالاشتراك مع الشيوخ والزعماء الذين يدورون في فلك السياسة البريطانية، كالشيخ خزعل خان، صديقه الحميم، والسيد طالب النقيب.

(الثانية): في العام الذي قضى فيه على الجمعية عام ١٣٣٢هـ(١٩١٤م) حدثت أحداث جسام لا سيما في منطقة الخليج العربي والعراق، زد على ذلك أن العالم نفسه كان مضطرباً، وكان على أبواب حرب ضروس، وهي الحرب العظمى، وكانت السياسة البريطانية تعمل عملها، والذي زاد الطين بلة أن الجمعية استقدمت من البصرة والزبير شخصين من غير المرغوب فيهما لدى الشيخ مبارك والانجليز، وهما: الدكتور أسعد، وهو طبيب تركي كان يعمل في البصرة، أناطت به الجمعية الاشراف على مستوصفها الصغير، فجاء الكويت وجلب معه الأدوية والأدوات الطبية، وأحضر معه صيدلياً، ولا أعلم هل الصيدلي هذا عربي أو تركي؟.

لم يكن الشيخ مبارك مرتاحاً من الدكتور أسعد، فليس من مصلحته أن يكون طبيب الجمعية تركياً، خشية تأثيره على الأعضاء، وعلى المراجعين بجعلهم يميلون الى الدولة العثمانية، فلهذا أمر الدكتور أسعد بمغادرة الكويت، فغادرها الى البصرة، وبعد ذلك أغلقت الجمعية أبوابها، وقضي عليها.

٢ - الشيخ محمد الشنقيطي كان يميل الى الدولة العثمانية من ناحية اسلامية، وظل الشنقيطي في الكويت حتى بعد اغلاق الجمعية ببضعة شهور، فكان يعظ الناس، ويرشدهم في المساجد، ولما اشتعلت نيران الحرب العظمى، وخاضت الدولة العثمانية غمارها في شهر نوفمبر/ تشرين

الثاني سنة ١٩١٤م، أخذ الانجليز يلاحقون أنصار الدولة العثمانية، وطبعاً لم يكونوا مرتاحين من وجود الشنقيطي في الكويت، فلهذا أبعده الشيخ مبارك عن الكويت الى الزبير، وقد اشترك في معركة الشعيبة الطاحنة، التي وقعت بين الدولة العثمانية والانجليز (وأسفرت عن هزيمة الدولة العثمانية)· فغادر الشنقيطي الزبير الى نجد، ومكث بها طيلة أيام الحرب، وبعد الهدنة غادرها الى الكويت، فأبعده حاكمها الشيخ سالم المبارك، فرجع الى الزبير، وفي أول حكم الشيخ أحمد الجابر زار الشنقيطي الكويت وأقام له النادي الأدبي حفلة شيقة للترحيب به ».

هذا ما جاء في مقال الأستاذ الشملان حول إقصاء الشنقيطي عن الكويت، وما تبع ذلك من أحداث باختصار وتلميح، ولأجل أن نذكر الأسباب المباشرة التي دعت الشيخ مباركاً لاخراج الشيخ الشنقيطي من الكويت بالارهاب والوعيد وما وقع في الكويت من عصيان فنقول:

٢٥ - عصيان الكويتيين ومغادرة الشنقيطي الى الزبير:

قد تأتي أحداث التاريخ متلازمة، متسببة بعضها عن بعض، فكان لا بد للشنقيطي أن يغادر الكويت كما يريد مبارك، وكان لا بد لذلك من سبب، فحدث السبب الذي قد لا يلام مبارك بموجبه في الطلب الى الشنقيطي بمغادرة الكويت حالاً، وقد يعذر الشنقيطي في إقحام نفسه لإثارة ذلك السبب، وهو المتصدي للدعوة الى الله، ووعظ المسلمين وإرشادهم للدفاع عن دينهم ومعتقداتهم. ولكن كيف حدث ذلك؟

كان الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو، وهو الحاكم المطلق في عربستان يدين في الظاهر بالتبعية للحكومة الايرانية، ولكنه كان يتصرف في سياسته الخاصة حسب ما يراه ملائماً لتثبيت حكمه، وإبقاء

السيطرة في يده. غير أن أحداث الحرب العالمية الأولى كانت المحك الذي ظهرت بواسطته ميول كثير من حكام العرب والكشف عن نوازعهم كما سيأتي عرضه مباشرةً أو استطراداً عند متابعة سيرة الشيخ الشنقيطي الذي كان لا يقرّ له قرار عندما يرى الدعوة الاسلامية تتعرض للخطر حيث يندفع لتعريض نفسه للخطر بدلاً عنها، ومثال ذلك ما حدث له في الكويت على الوجه التالي:

في ٢٩/ تشرين الثاني/ سنة ١٩١٤م، أي بعدما احتلت القوات البريطانية قلعة الفاو في السابع من نفس الشهر وبعدما قتل آمر حاميتها التركي - برهان الدين - في هذه الأثناء اهتز الشعور الاسلامي في العراق، حيث كانت البصرة مهددة بالغزو الانجليزي، فأرسل بعض علماء النجف الى الشيخ خزعل (بوصفه من أتباع المذهب الجعفري) برقية باسم الشريعة المحمدية يحثونه فيها على الاتفاق مع المسلمين في درء خطر هذا الغزو، لأن حكم الدين لا يفرق بين الايراني والعثماني، وفي نفس الوقت هبطت عليه برقية أخرى، تحمل نفس المعنى، من جماعة من العلماء الآخرين في النجف الأشرف، فلم يصغ لذلك، بل علل موقفه بمالأة الانجليز دفعاً للخطر، واتباعاً للحكمة والدهاء، وتحقيقاً للمصلحة في تلك الظروف، وبالرغم من أنه كان ذا علاقة وثيقة بأحد علماء النجف وهو الشيخ عبد الكريم الجزائري، الذي كان يعد من مقلديه، ومن أشد الناس إخلاصاً له وإطاعة لأمره، وبالرغم مما كتب له الشيخ الجزائري يأمره بالاشتراك في الحرب الى جانب الدولة العثمانية ولكنه لم يصدع بما أمر، وكأنه كان يتمثل بقول البوصيري:

محضتني النصح، لكن لست أسمعه   إن المحب عن العذّال في صمم

أجل كان هوى الشيخ خزعل مع الانجليز، ويقال إنه حاول بعد انتهاء الحرب إعادة علاقته القديمة مع الشيخ الجزائري إلا أنه رد عليه قائلاً: « فرّق ما بيني وبينك الاسلام »[1] وقد لا يغيب عن الذهن ما في هذا الرد من حكم ومعنى.

وكان على أثر ذلك أن اندلعت نار الثورة في عربستان ضد الشيخ خزعل، حيث وصلت في أواخر كانون الثاني من سنة ١٩١٥ قوة تركية من العمارة بقيادة توفيق بك الخالدي، وعسكرت على ضفاف نهر الكرخة، على بعد عشرين ميلاً من بلدة الأهواز (الأحواز) غرباً تعضدها قوة كبيرة من المجاهدين، قدمت من العمارة أيضاً من عشائر بني لام برئاسة غضبان البنيه، وبني طرف، وربيعة، والزرقان، وغيرهم، وفي صحبتهم عدد من علماء الدين، واستجاب لذلك عدد كبير من عشائر عربستان، كعشائر البادية، وعشائر بني كعب، حيث اتهم الشيخ خزعل بأنه حليف لبريطانية. وفي ٢٥/ شباط اتخذت الثورة شكلاً جدياً يهدد بالخطر، فخربت أنابيب النفط، وأشعلت النار فيها، ونهبت مخازن الشركة، وسيطر الثوار على بلدة الفلاحية، ونصبوا عليها حاكماً من العلويين هو السيد جابر بن السيد مشعل، فاعترف الشيخ خزعل بأنه فقد السيطرة على العشائر[2].

وكان بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك الصباح أمير الكويت صداقة متينة جداً، تدعمها المصالح المشتركة، ووحدة الاتجاه واتفق أثناء اندلاع هذه الثورة أن الشيخ مباركاً كان في زيارة وضيافة صديقه

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٤ ص ١٤١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٢.

الحميم الشيخ خزعل، ولما شاهد ما شاهد من حراجة موقف صديقه، والخطر الذي يتهدده، أراد أن يهب لنجدته، ولذا فقد كتب إلى ابنه جابر في الكويت لارسال قوة مسلحة من الكويتيين إسناداً لموقف الشيخ خزعل، وصداً للثائرين.

وهنا تتجلى شجاعة الشيخ الشنقيطي، وقوة إيمانه في الدفاع عن عقيدته الدينية، مستهيناً بكل ما يترتب على ذلك من ضرر وأخطار، ولندع هنا مؤرخ الكويت الأول الشيخ عبد العزيز الرشيد يحدثنا عما كان من نتائج أمر مبارك إلى الكويتيين في محاربة الثائرين على خزعل، واسناد موقفه ضد العشائر العربية المسلحة، وقادتهم من رجال الدين والشيوخ، فقال:

«ولكن الكويتيين، وقد علموا أنهم سيقاتلون إخوانهم، أظهروا العصيان، وجاهروا بالامتناع، سيما والعلامة المحدّث الشيخ محمد الشنقيطي، والشيخ حافظ وهبه المصري[1] (والذي تقدم معنا ما كان بينه وبين الشيخ الشنقيطي من صلات ودّ وصداقة والتقاء في أهداف الجهاد الفكري في الاسلام)، فكانا يطوفان المجالس، ويغشيان الأندية لتحذير الناس من الطاعة[2] وان من انقاد فقد يحكم عليه بالردة عن

---

(١) من رجال العلم والدين، وصفه مؤرخ الكويت بأنه من الوافدين المصلحين الذين شاركوا في نهضة الكويت العلمية والدينية واستدعاه أخيراً سلطان نجد الشيخ عبد العزيز السعود ليعمل في السلك الدبلوماسي، ولا زال مرضياً عنه هناك.

(٢) وروى لي الشيخ محمد الصافي أحد العلماء المعنيين بمثل هذه الأمور التاريخية والعلمية، أن زميلاً ثالثاً لهما هو الشيخ عمر الأزيري أحد مدرسي المدرسة المباركية، كان يطوف معهما ويعضدهما في الرأي والتحذير، وسيأتي إثبات ذلك في حوار مبارك مع الشنقيطي.

الدين. فأثار ما قالاه الحماس في النفوس، حتى صمم القوم على الاباء مهما نزل بهم من بلاء، وذهبوا الى جابر وقد تأبطوا مسدساتهم، فقالوا له عندما أمرهم بالمسير: لا نسمع ولا نطيع.

فقال جابر: لماذا؟ فقالوا: لأن الطاعة في هذا الأمر معصية، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فبهت جابر من مفاجأتهم له بذلك، وأردف قائلاً: «وقد أخلد جابر الى السكوت، غير أنه بادر باخبار أبيه في - الفيلية - بما جرى، وهناك ساور مبارك غضب شديد كاد يتميز منه، سيما على من ظنهم من مدبري العصيان من الرؤساء». وأردف... «وقد حاول الرؤساء بعد أن بلغهم غضبه إقناع الناس بما يراد منهم، فلم يقنعوا، ولا رضوا، فاضطروا إذ ذاك إلى أن يذهبوا بأنفسهم لعرض الطاعة عليه، ولكنهم، وقد اجتمعوا به في الفيلية، أسمعهم من التأنيب واللوم ما أطار النوم من أعينهم، ولكنه من جهة أخرى خامره شيء من الخوف للحماس الذي انتشرت جذوته بين أحياء الكويت، والذي لم يعهد له نظير في أيامه كلها، فغير لهجته أمامهم وقال: «أنا لم أرد رجالاً لقتال، وإنما طلبت سفناً لنقل أثاث أخي خزعل، وأمواله، وعائلته الى الكويت إذا احتاجوا إلى ذلك، فارجعوا الى الكويت وبادروا بارسال ما أريد». فرجعوا وقد وقعوا بين أمرين عظيمين: إرضاء العامة بسخط مبارك، أو إرضائه بسخطهم، وهما خطتا خسف يصعب عليهم التخلص منهما، وأخيراً تمكنوا من تجهيز (١٨٠) رجلاً في ست سفن شراعية»[١].

---

(١) تاريخ الكويت - الطبعة الثانية - ص ١٧٥.

وقد رابطت هذه السفن أمام قصر الشيخ خزعل في الفيلية ما يقارب الشهرين ثم عادت الى الكويت[1].

أما ما كان من نتائج ذلك، فبعد أن استطاع الشيخ خزعل القضاء على الثورة لأسباب لا يتسع المجال لبسطها أقول، بعد ذلك، عاد مبارك الى الكويت، وقد استقرى أخبار وأسباب العصيان في الكويت، ولم يكن له عهد بمثل ذلك وقد وقر في نفسه أن العلماء ورجال الدين، وعلى رأسهم الشنقيطي، وزميله حافظ، وثالث معهما لم يذكر اسمه، هم الذين حرضوا الناس، وأثاروا فيهم روح الحماس الديني، فعاد وملؤه الغضب، والحنق على هؤلاء، ولأنقل للقارىء الحوار الذي دار بين مبارك من جهة، وبين الشنقيطي وحافظ وهبه من جهة أخرى، وبحضور المعتمد السياسي البريطاني في الكويت - الكولونيل كري - كما قال الدكتور علي الوردي[2]:

مبارك: «مخاطباً الشنقيطي وحافظاً». من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأردف قائلا: أنا مسلم عثماني أغار على ديني، وعلى دولتي، ولا أحب من يتعرض لهما بسوء غير أني اتفقت مع الانكليز على أمر فيه نفع لي ولبلدي ولهذا لا أرضى بالطعن فيهم، وإن كنت لا أحبهم، وديني غير دينهم[3]... واستمر قائلا: ورد لي كتاب بأنكما وثالثاً معكما اسمه عثمان العازم

---

(١) لمحات من تاريخ العراق الحديث. ج ٤ ص ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر ما في كلام مبارك من تناقضات ومغالطات تبريراً لاقناع الشعب الكويتي في زعمه بالموافقة بين الدين والسياسة.

من أثاروا الناس في الكويت، وحرضوهم على العصيان ضدي، والكويت بلدي، وأنا الحاكم فيها، والذي ينازعني فيها فليس له عندي الا القتل.

الشنقيطي: إن من أخبرك فقد أخطأ، ولم يتحرَّ الحقيقة.

مبارك: لا بل هو صادق في ما قال.

الشنقيطي: من هو الرجل الثالث الذي ذكر لك في الكتاب؟

مبارك: لا أعرفه، ولكني سأبحث عنه حتى أعرفه.

الشنقيطي: هذا أدل شيء على كذب الخبر، فانه لا يعقل أن يوجد في الكويت من يؤخذ برأيه، ويسمع لقوله وأنت لا تعرفه، وأمر البلد وأهلها راجع إليك، وقد علمت بكل ما يجري فيها من صغير وكبير، وأما أنا فلم أسمع بشيء مما نسب إلي، أنا أحد طلبة العلم وظيفتي الوعظ والارشاد، والتربية والتعليم[1].

مبارك: هذه الوظيفة عالية، ولا لوم عليك فيها.

ثم التفت إلى الشيخ حافظ قائلاً:

---

(١) يبدو أن في القول إبهاماً واضطراباً، فقد سبق أن قال مبارك: «وثالثاً معكما اسمه عثمان العازم» وقال بعد ذلك إنه لا يعرف الشخص الثالث الذي كان معهما وسيبحث عنه حتى يعرفه، ويتبين أن في عبارة المؤلف ارتباكاً في نقل الحوار، ولكن سبق أن ذكرنا رواية عن الشيخ محمد العسافي أن الشخص الثالث الذي كان يطوف المجالس معهما هو السيد عمر الأزيري أحد مدرسي المدرسة المباركية، وممن تولى ادارتها، والذي قال عنه عبد العزيز الرشيد في تاريخ الكويت ص(٢٩٠) أنه غير نهج التعليم الابتدائي في هذه المدرسة الى طريقة حديثة ولا بد أن الشنقيطي ووهبه أرادا أن يتسترا عليه لئلا يناله ضرر، أما عثمان العازم الذي قال عنه الشيخ مبارك أولا فلم يرد له ذكر بين المعنيين بالعلم والثقافة والفكر في الكويت آنذاك.

إن أبناء المدارس في الكويت يجهرون في الشوارع والأسواق بسب الانكليز ومدح الألمان، ولا ريب أنهم لصغرهم لا يعرفون الا ما يلقنهم معلمهم، فصاحب المثل يقول: «خذ رأي القوم من أسفهها»[1].

حافظ: أنا لم أعلم شيئاً من هذا القبيل، ولم ألقنهم من أمور السياسة ولا كلمة واحدة، ومع هذا فسأزجرهم عما يقولون.

وفي النهاية أمرهما مبارك بمغادرة المجلس وانتظاره في إحدى حجر القصر، ثم جرى بين مبارك والمعتمد السياسي البريطاني الكولونيل كري الحديث التالي:

مبارك: أسمعت ما قاله الرجلان من الأعذار؟

كري: نعم سمعته... والذي يظهر لي أن المصري مقتنع وأنه صادق في ما قال، وأما صاحبه فأنا من صدقه في ارتياب.

مبارك: ماذا ترى إذاً؟

كري: بعد ثلاثة أيام سأعلمك برأيي.

وعند ذلك أرسل مبارك كاتبه الخاص - الملا صالح - ليأذن للاثنين بالانصراف، ويضرب للشنقيطي وحده موعداً بالحضور بعد ثلاثة أيام.

ارتاب الشنقيطي من هذا البلاغ وخشي أن تكون وراءه مكيدة[2].

---

(١) والمثل العامي الاكثر انطباقاً يقول: «إخذ فالها من اطفالها». الامثال الشعبية في البصرة - للمؤلف - ج١ ص٣٤.

(٢) تاريخ الكويت - لعبد العزيز الرشيد ص ١٧٦.

وفي الحقيقة فقد كانت نية المعتمد البريطاني - كما روى لي محمد العسافي - أن يعتقل الشنقيطي وينفيه مع المنفيين الى الهند، كما كانت تفعل بريطانيا يومئذ مع معظم من تخشى الضرر منهم من العسكريين ورجال الفكر والدين، وكان سبب الانتظار هو الى حين مجيء باخرة البريد من الهند والتي كانت تصل البصرة كل يوم خميس من كل أسبوع، وكان الناس في البصرة يطلقون عليها لقب - فالتوه -[1] كي يحمل الشنقيطي على ظهرها منفياً. وقد تبين له أن أحداً يراقبه في تلك الآونة، وخشي أن يكاد له على حين غرة، فرأى أن من الحزم أن يتدبر الأمر للخروج من الكويت قبل أن يقع في المصيدة. وهنا تختلف الروايات في كيفية خروجه، وإفلاته من حبائل الانكليز. فيروي عبد العزيز الرشيد في تاريخه، أن الشنقيطي لما أحس بالخطر، اختفى عن العيون، وظل يترقب الأخبار بواسطة بعض أصدقائه ومحبيه الذين نقلوا له ما أشيع من أخبار عن دائرة القنصلية البريطانية بأنها عازمة على القاء القبض عليه ونفيه أسيراً الى الهند؛ كما فعلت مع من كانت تخشى تأثيرهم في إثارة الرأي العام الاسلامي والأهلي ضد بريطانيا . وكما أرادت ذلك مع السيد طالب النقيب الذي أفلت من شباكها في الكويت، قبل اسبوعين تقريباً من هذا التاريخ[2]، ثم وصف مؤلف

(١) كنا صغاراً نرقب مجيء هذه الباخرة وما كانت تفعله في القوارب الصغيرة من الاضطراب لشدة ما تسببه بسرعتها من أمواج عارمة في شط العرب الامر الذي يتسبب عنه تخريب السدود وصراخ النساء والأطفال وهم في الزوارق والامواج تصعد بهم وتهبط بعنف شديد يهدد بالانقلاب والغرق لولا مهارة النوتية ورباطة جأشهم، ولهذا اطلقوا على هذه الباخرة لقب - فالتوه - لشدة انطلاقها وانفلاتها، كما صارت هذه الكلمة تطلق على كل شخص كثير التجوال ولا يلتزم بالمواعيد.

(٢) في غمرة النضال - لسليمان فيضي ص ١٩٤.

تاريخ الكويت كيفية خروج الشنقيطي من الكويت على أثر ما تأكد له من نية المعتمد السياسي البريطاني فقال: « الى أن أقبل في اليوم الثالث مركب من البصرة فيه - رجال من العشارة[1] فقبضت عليهم الحكومة، فبعث مبارك بأحد خدامه يبحث عن الأستاذ، ولكن الخادم لم يستقص في التفتيش، ولعله كان بأمر من سيده الذي لم يشأ أن يشارك المعتمد في الأمر ومهما يكن فان الأستاذ علم مما جرى صدق ما أشيع عن دائرة القنصل من عزمها على القبض عليه، فنأى بجانبه عن محيط الكويت، وزم مطاياه الى الزبير، وحضر هناك واقعة الشعيبة المشهورة »[2].

وثمة رواية أخرى تستخلص من الحوار الذي جرى بين الشيخ سالم ابن مبارك والشيخ الشنقيطي - يتبين منها كيفية خروجه من الكويت حيث ذكر سالم وهو يصب جام غضبه على الشنقيطي وعلى رفيقه السيد مرزوق الداوود البدر لأنه تسبب في إفلات الشنقيطي من القبض عليه زمن والده، وهيأ له سفينة نقلته من الكويت الى كاظمة وهو الذي حرضه على الفرار[3]، ومن هذا يتبين أن خروج الشنقيطي وهروبه من الكويت كان بغير رضى مبارك بل كان يود لو أنه استطاع تسليمه الى السلطات البريطانية لتفعل به ما تشاء - كما سيأتي بسط ذلك -.

وهناك رواية ثالثة وأعتقد أنها أصح من تلكما الروايتين، أو مكملة لهما، وهي رواية الشيخ محمد العسافي، تلميذ الشيخ الشنقيطي. ومن

---

(١) لعله أراد بالعشارة: المهربين.

(٢) تاريخ الكويت ص ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

أصدقائه المخلصين، وهو من أهل الزبير، ولا بد أنه اجتمع به حين وصوله الى الزبير فاراً من الكويت، وسمع منه الخبر الصحيح، ونحن نذكر هذه الرواية للتاريخ، ولبيان حسن نية الشيخ مبارك الصباح ومداراة رجال الدين، والحرص على سمعته من الاشتراك مع السلطات البريطانية في اعتقال عالم من علماء المسلمين ونفيه الى مصير مجهول فيبقى ذلك وصمة عار في سيرته التاريخية، ونحن نعتمد على هذه الرواية كل الاعتماد لما قدمنا من أسباب وكذلك لأن الشيخ العسافي كان يتحرى مثل هذه الأخبار ولا يغرب عن باله ذكر أحداثها بصدق وأمانة. وبناءً على ذلك أقول: روى لي العسافي أنه: في منتصف الليل أرسل الشيخ مبارك الى الشيخ الشنقيطي رسولاً وهو السيد أحمد الخالد يخبره بأن الأولى به أن يغادر الكويت سراً - إن استطاع - قبل أن يقبض عليه الانكليز، الذين ربما أرادوا نفيه إلى الهند، وأضاف العسافي: بأن الشنقيطي غادر الكويت بمصاحبة أحد الأدلاء الى الزبير.

ونحن إذا ناقشنا رواية العسافي، ورواية عبد العزيز الرشيد، وحوار الشيخ سالم مع الشنقيطي وصاحبه يتبين لنا ما يأتي:

أولاً: كان الشيخ مبارك لا يريد تسليم الشيخ الشنقيطي للسلطات البريطانية وذلك بالنسبة لسياسته ودهائه الذي لم يرد أن يسخط الشعب الكويتي، وربما العالم الاسلامي عليه وذلك بالقبض على أحد علماء الاسلام في بلده وتسليمه للسلطات البريطانية المحتلة الكافرة. لذا فقد أراد أن يتخلص منه، ومن سوء الدعاية التي تلحقه بسببه، ولذا فقد أرسل اليه في منتصف الليل من يخبره سراً للمبادرة الى الخروج من الكويت قبل إلقاء القبض عليه. ثم تظاهر بالبحث عنه بارسال بعض

خدمه للتفتيش عنه في السفن القادمة من البصرة إرضاءً لحلفائه الانكليز واتقاء غضب المعتمد البريطاني.

ثانياً: ان هروب الشيخ الشنقيطي كان على مرحلتين، إحداهما بسفينة من الكويت إلى كاظمة، والثانية من كاظمة الى الزبير بصحبة أحد الادلاء المعتمدين مشياً على الأقدام، ومما يدل على مبالغة مبارك في السريَّة أن ابنه سالماً ما كان يعلم باشارة والده الى الشنقيطي بالهروب للتخلص من الأسر.

ومما يجعلنا نعتقد بصحة دهاء مبارك في تدبير أمر خروج الشنقيطي من الكويت وإفلاته من قبضة الانكليز، فقد سبق أن دبر مثل ذلك مع السيد طالب النقيب قبيل ذلك بقليل وكأنه ابتلي بالتوفيق بين رضى شعبه وسمعته من جهة وبين إرضاء حلفائه الذين يريدهم لساعة الشدة من جهة أخرى، ولسان حاله يقول:

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وما زلنا قد سقنا الدليل على خروج الشنقيطي بإيعاز من مبارك وذلك بإيعازه الى السيد طالب النقيب بالخروج من الكويت أيضاً متظاهراً بعدم علمه، وذلك للإفلات من قبضة المعتمد البريطاني نفسه - الكولونيل كري - أقول ما دمنا قد استطردنا الى ذلك فلا بد من الاشارة الى كيفية إفلات السيد طالب أيضاً، وللتوضيح نقول:

٢٦ - وصول السيد طالب النقيب الى الكويت وخروجه منها مغاضباً:

في عصر يوم ٥/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م (١٣٣٢هـ)، خرج السيد

طالب النقيب والمحامي سليمان فيضي مع جمع من حاشيته من الزبير متوجهاً نحو الكويت فوصلها صباح يوم السابع من هذا الشهر، وذلك لأسباب سياسية لا مجال لشرحها هنا، وفي مساء ذلك اليوم، عندما كان السيد طالب ضيفاً في قصر الشيخ مبارك الصباح زاره المعتمد البريطاني الكولونيل كري - وعرض عليه مقترحات مختلفة مقابل مساعدته القوات البريطانية في احتلال البصرة، ولم يوافق السيد طالب على ذلك، وكرر المعتمد الزيارة في اليوم التالي (٨/ منه) فرفض السيد طالب أيضاً، وفي مساء ذلك اليوم أرسل المعتمد البريطاني في طلبه وأبلغه أن لديه تعليمات بأخذ السيد طالب الى الباخرة الراسية قرب الفاو[1] والتي تحمل على ظهرها - السر پرسي كوكس - كممثل للحكومة البريطانية للمفاوضة مع السيد طالب النقيب، فأجابه بأنه لو جرى ذلك حقاً لكانت وصمة عار شنيعة في حقه، وجريمة وطنية لا تغتفر، ولما راخ المعتمد يلح في ترغيبه أراد أن يتخلص منه بلباقة وذكاء خشية أن يحتال في القبض عليه، فاستمهله ريثما يفكر في الأمر، وبعد ذلك اجتمع بالشيخ مبارك في قصره، وكان مصراً على رفض مطاليب المعتمد السياسي البريطاني، وأنه ينوي الخروج من الكويت، فلمح له مبارك بأنه سيمنعه من الخروج، وهنا ثارت ثائرة السيد طالب وخاطبه وهو يتميز غضباً - قائلا:

- كنت الى الآن أدعوك بعمي، أما الآن فأقول لك: يا مبارك...

---

(١) بتاريخ ١٩١٤/١١/٦م (١٩ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ) بدأ الهجوم على قلعة الفاو، وفي ١٩١٤/١١/٧م (٢٠/ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ) تم احتلال الفاو، وقتل أمير حاميتها التركي برهان الدين الذي استلم قيادتها حديثاً.

إذا منعتني من الخروج من الكويت. وهنا أخرج مسدسه من جيبه - فسأطلق من مسدسي هذا طلقتين تستقر الأولى في رأسك، والثانية في رأسي.

فبهت مبارك لهذه المفاجأة، واستدعى سليمان فيضي القريب منهما، وطلب إليه أن يتوسط في الأمر ليهدىء من غضب صاحبه النقيب، وذكر له أنه في موقف حرج، لأن الانكليز يريدونه أن يمنع السيد طالب من مغادرة الكويت بالقوة، وبعد أن فكر مبارك في تدبير ما هو أدعى لحسم الموقف من غير عنف، أشار للسيد طالب أنه بعد تناول الطعام وعندما يأوي الشيخ مبارك الى قصر الحرم - كعادته - فإذ ذاك يستطيع السيد طالب أن يغادر الكويت مسرعاً وكأن لا علم له بذلك وأثناءها يترك لمضيفه الشيخ مبارك رسالة يخبره فيها أنه غادر الكويت معتذراً عن استئذانه وتوديعه.

وتم ذلك فعلاً واتجهت قافلة النقيب نحو بريدة عصر يوم/ ٩ تشرين الثاني/ ١٩١٤م[١] المصادف ٢٢/ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ. ذكرنا هذه الحادثة لتعزيز الرأي بأن الشيخ مبارك اتبع نفس الاسلوب مع الشيخ الشنقيطي الذي غادر الكويت بعد مغادرة السيد طالب بفترة وجيزة، وذلك للسبب نفسه تخلصاً من الضغط الواقع عليه من الانكليز، ومن الحرج الذي كان يشعر به تجاه مواطنيه الكويتيين وبني جلدته ودينه العرب والمسلمين.

٢٧ - الشنقيطي يصل البصرة ويحث الناس على الجهاد:

خرج الشنقيطي من الكويت على الحالة التي ذكرناها تاركاً بها زوجه

(١) في غمرة النضال لسليمان فيضي ص ١٩٤.

وأولاده - كما روت ذلك ابنته عائشة - فاراً بنفسه، ولم يترك لعائلته الا صبابة من نقود استطاع أن يوفرها لهم، ولا يعلم ما مصيرهم بعد ذلك، إلا أن ابنته أكدت أن أهل الكويت الكرام من محبيه ومريديه، قاموا بالانفاق عليهم بيسرٍ ورخاء، ولم يتركوهم للحاجة طيلة مدة غيابه التي استغرقت أكثر من ست سنين - كما سيأتي -.

ونحن وإن كنا لا نعرف بالضبط تاريخ خروج الشنقيطي من الكويت، إلا أننا عند تحري الأحداث في تلك الفترة، ومقارنتها ببعضها، قد نستطيع التوصل الى التاريخ التقريبي لزمن خروجه منها، وبالرغم من اختلاف مؤرخي هذه الفترة في نوع التاريخ الذي يتخذونه أساساً لضبط الأحداث، حيث يؤرخ بعضهم بالتاريخ الهجري، وبعضهم الآخر بالميلادي، وآخرون سواهم بالرومي، وبعض آخر يسرد الوقائع سرداً ولا يشير الى تاريخ حدوثها، أقول بالرغم من كل هذا فقد أمكن إجراء مقارنة بين هذه المقاييس على النحو التالي:

إذا كانت الثورة على الشيخ خزعل في عربستان في ربيع الثاني من سنة ١٣٣٣ هـ كما ورد في تاريخ الكويت[1] وهي على أشدها في ٢٥/ شباط/ ١٩١٥ حيث استولت عشائر كعب والباوية على مدينة الفلاحية وخربت أنابيب النفط[2] وأن السفن الست الشراعية المحملة بالرجال والسلاح بقيت مرابطة في الفيلية استعداداً لنقل الشيخ خزعل وعائلته وأمواله الى الكويت مدة شهرين تقريباً كما تقدم، أي أن هذه السفن بقيت حتى شهر نيسان من تلك السنة أي حتى شهر جمادى الآخرة من

---

(١) ص ١٧٤.

(٢) لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٤ ص ١٤١.

السنة الهجرية نفسها، ولا بد أن مباركاً لم يعد الى الكويت إلا بعد القضاء على هذه الثورة، إسناداً لصديقه خزعل وتحسباً لما عسى أن يحدث عليه من خطر لمساعدته في محنته، فيتبيّن أن الشنقيطي لم يخرج من الكويت الا بعد هذا التاريخ أي في نيسان من سنة ١٩١٥م، وذلك بعد عودة مبارك الى الكويت واستدعاء الشنقيطي وصاحبه - كما قدمنا -

ولما كانت موقعة الشعيبة الشهيرة قد وقعت خلال (١٢-١٥/ نيسان/ ١٩١٥م) حسب رواية مؤرخيها بالتاريخ الميلادي، وخلال (١٨-٢٠/ من جمادى الآخرة/ سنة ١٣٣٣هـ) حسب رواية النبهاني[1] فيكون وصول الشنقيطي الى الزبير في البصرة قبيل أو إبّان هذه المعركة، ولذا فقد أكد جميع من عرفوه، ورووا عنه أنه اشترك في هذه المعركة على النحو التالي:

ما إن وصل الشنقيطي البصرة حتى راح يدعو الى الجهاد في سبيل الله، دفاعاً عن الدولة العثمانية المسلمة، ودعماً للخلافة الاسلامية، ولمحاربة الانكليز الغزاة الكفرة، وكانت هذه المشاعر قد سرت في جميع انحاء العالم الاسلامي، خصوصاً عندما علم بأن المشيخة الاسلامية قد أصدرت فتوى قرئت في جميع الممالك الاسلامية، وفي جوامع بغداد كلها في ٢٣/ من المحرم من سنة ١٣٣٣هـ تدعو الى الجهاد في سبيل الله، ويؤيد ذلك قول تلميذه وصديقه محمد العسافي - وهو شاهد عيان - الذي قال: وصل الشيخ الشنقيطي الى الزبير بمصاحبة أحد الأدلاء،

---

(١) التحفة النبهانية - للشيخ محمد النبهاني - تاريخ البصرة من هذه التحفة ص٣٤٥.

تاركاً زوجه وأولاده في الكويت، - وكما أكدت ذلك ابنته عائشة زوج الدكتور أمين الهلالي - سالكاً طريق الصحراء من كاظمة الى الزبير، وعند وصوله - قال العسافي - كانت رحى الحرب دائرة في مناطق مختلفة من البصرة.

وهنا تتضارب الآراء بالنسبة لاشتراك الشنقيطي في معارك البصرة الأخرى عدا الشعيبة، سنأتي على تفصيل هذه النقطة. أما اشتراكه في معركة الشعيبة فقد أجمعت الروايات على صحته، حيث كان مع الجماعة المحاربين المتطوعين مع الشيخ عجمي بن سعدون المنصور، ومن مقارنة تواريخ الاحداث يتبين صدق ذلك بالتأكيد والتواتر، حيث ثبت أن الشنقيطي كان يقاتل في معركة الشعيبة ببندقيته قتال المستميت في سبيل الله، كما كان لا يفتأ يحث المجاهدين على نيل إحدى الحسنيين، إما الانتصار، وإما الشهادة، شأنه شأن فريق كبير من رجال الدين الذين أفتوا بالجهاد، واشتركوا بالمعركة، ولقي بعضهم أذى كثيراً من جراء ذلك، وقد أسهب معظم المؤرخين في وصف هذه المعركة، فاشتراك الشنقيطي في معركة الشعيبة مقاتلاً ومفتياً ومشجعاً أمر ثابت بالتواتر تدعمه الأحداث والروايات وكما سيأتي في تسلسل هذه الأحداث.

ولكن الشيء الذي أثار انتباهي، وجعلني في حيرة بأن لم أنته الى نتيجة حاسمة فيه، هو ما رواه لي أحد المجاهدين المتطوعين من أبناء قريتنا قرية - حمدان -[1] وهو السيد عبد الرحمن بن الحاج غانم

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ج٢ ص ٣٠١ ما نصه: «حمدان فعلان، من الحمد. قال العمراني: مدينة حواليها مئة وعشرون قرية» قرية تقع في منتصف الطريق بين مدينة البصرة وقضاء أبي الخصيب على نهر يسمى باسمها يتفرع من =

المحفوظ، أنه كان أثناء اشتراكه في المعارك الدائرة بين جيوش الاحتلال البريطانية، وبين الجيوش العثمانية المدافعة يساندهم المجاهدون من أهل البلد بدافع شعورهم الديني نحو الدولة العثمانية المسلمة حاملة لواء الخلافة الاسلامية، فقد أكد أنه شاهد الشيخ الشنقيطي يقاتل مع المجاهدين في معارك الجنوب، ولتحقيق هذه الرواية نورد المعلومات التالية:

٢٨ - هل اشترك الشنقيطي في معركة كوت الزين الضارية؟

يشير بعض المجاهدين من الأهلين ممن اشترك في المعارك الدائرة بين جيوش الاحتلال البريطانية وبين الجيوش العثمانية المشار إليها، يشير بعض هؤلاء أنه شاهد الشيخ الشنقيطي وهو يحث المجاهدين على الصبر والصدق في القتال في موقعة - كوت الزين - وسيحان[1] وكان الأتراك قد اتخذوا مواقعهم الى الجنوب من كوت الزين على خط طويل محاذ للشاطيء يبلغ طوله زهاء ثلاثة أميال، وحشدوا فيه (٤٥٠٠) جندي وفي ١٧/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م (٣٠/ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ) وقعت هناك معركة ضارية بين الانكليز والأتراك، وهي المعركة التي

= شط العرب على الجانب الغربي منه وهي مسقط رأس المؤلف وموطن أسرته النازحة من الاحساء في الجزيرة العربية على أثر المعارك بين عشيرته من آل عريعر من بني خالد وبين الوهابيين حيث نزح عميد هذه الاسرة الشيخ محمد بن محمود بن أحمد بن مطر الدليشي من الاحساء فإلى مدينة الزبير ثم الى قرية حمدان فقيهاً وإماماً ومدرساً ومرشداً منذ سنة (١٢٠٠هـ). ومن علماء هذه القرية الشيخ حسين الحمداني والشيخ علي البدران وأفردنا لكل منهما ترجمة خاصة.

(١) سيحان: قرية على الشاطيء الأيمن من شط العرب جنوب قرية الزيم بالقرب من السيبة المقابلة لعبادان، أما قرية الزين فتقع مقابل المحمرة (خرم شهر) شمالي سيحان. «خارطة شط العرب للدكتور محمد طارق الكاتب».

عرفت في المصادر التركية باسم «معركة الساحل»[1] ومما يرويه محمد رؤوف السيد طه الشيخلي وهو ضابط بغدادي شهد المعركة ووقع فيها أسيراً بيد الانكليز قال في مذكراته: إنه بتاريخ ١٤/ تشرين الثاني/ ١٩١٤ وهم في قرية - سيحان -، قال وبينما هم يخبزون ويطبخون بعد جوع استمر خمسة أيام، إذ وصل إليهم واعظ من رجال الدين يشجعهم ويحثهم على القتال، والثبات عند الزحف، وبدأ يتلو عليهم الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2] وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». ثم قال الشيخلي: وصار الجنود يتضاحكون ويقولون: ما هو الغرض من هذا الوعظ، ونحن مستعدون للموت، ولكن أين القوّة؟[3].

فمن هو هذا الواعظ إن لم يكن الشيخ الشنقيطي؟ حيث لم نسمع سواه أحداً ممن كان يحث على الجهاد ويستميت في سبيل الذود عن الاسلام المتمثل في تلك المعارك خصوصاً بعد صدور فتوى المشيخة الاسلامية بذلك كما قدمنا. وهذا يقوي رواية السيد عبد الرحمن بن الحاج غانم المحفوظ المشار إليها في ما سبق، وقد روى لي بتاريخ ٢٥/ ذي الحجة/ ١٣٩٥هـ(٢٩/ تشرين الثاني/ ١٩٧٥م). قال: إنه اشترك في حرب الفاو وبعد أن درب مع جماعة من المجاهدين في ثكنة العشار

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٤ ص ١١٥.

(٢) سورة الأنفال: من الآية ٦٠، وسورة الصّف: الآية ٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٦. واعتمدنا التاريخ الهجري على كتاب التحفة النبهانية للشيخ محمد النبهاني ص ٣٤١.

(من ملحقات مدينة البصرة) من قبل ضابط تركي يلقب بـ (أبو طبرة) لوجود أثر ضربة على وجهه أثناء اشتراكه في حرب الصرب، وبعد التدريب سيق مع جماعته المجاهدين الى جنوب البصرة فالتحق قسم منهم بالقوة الموجودة بمدينة الفاو، وهو من ضمنهم، وقال: إن معركة الفاو انتهت بانهزام الجيش العثماني على أثر القصف الشديد من قبل البوارج الانكليزية، أما المدافع التركية على الساحل فقد غاصت في الطين بسبب رخاوة الأرض بالفيضان واتجهت فوهاتها الى الاعلى، ولم تستطع من تصويب قذائفها على البوارج الانكليزية - وأضاف -: ثم انسحب الجيش الى - كوت الزين - وكان يعرف محلياً بـ (كوت عبيد)، وبعد يوم أو يومين من تكامل الجيش العثماني في كوت الزين، قال إنه التقى بالشيخ الشنقيطي - الذي يعرفه. شخصياً، وهو يحرض الجيش على القتال ضد جيوش الاحتلال المعتدية، وكان بمعية اليوزباشي - سامي بك - وبعد اندحار الجيش العثماني في هذه المعركة، والناس تتراجع لائذة بالفرار، قال: إنه شاهد الشيخ الشنقيطي والأسف والحزن باديان عليه، وأخبرهم أنه شاهد اليوزباشي - سامي بك - سقط أمامه على أثر إصابته بقذيفة من البارجة الانكليزية (المنور) ولم يعثر على جثته لاختلاطها بالطين، وذلك خلال سنة ١٩١٤، وبهذا تنتهي رواية عبد الرحمن الغانم.

ويروي بعض معاصري تلك الحوادث أن اليوزباشي - سامي بك - استشهد في معركة الفاو، وممن أخذ بهذا الرأي الشيخ محمد بن الشيخ خليفة النبهاني مؤلف التحفة النبهانية الذي قال بالنص: «وفي ١٧ منه (يعني من ذي الحجة/ سنة ١٣٣٢هـ) هاجمت انكلترا الفاو،

واحتلته في (٢٠ منه) وفي (٢٧ منه) قدم البصرة عجمي باشا السعدون للجهاد مع بعض عشائره ولكن قبل تكاملهم سقطت البصرة بأيدي قوات الاحتلال، فاضطر للانسحاب، وكان القائد العثماني هناك اليوزباشي (سامي بك) أركان حرب، فدافع دفاع الأبطال حتى استشهد عند الفاو». هذا ما قاله النبهاني[1].

ورواية استشهاد سامي بك في الفاو، تناقض رواية عبد الرحمن الغانم نقلاً عن الشنقيطي من أن ذلك كان في معركة - كوت الزين -، ويؤيد هذه الرواية الأخيرة ما ذكره الدكتور علي الوردي نقلاً عن مذكرات الشيخلي المتقدمة الذكر ومنها قوله: «وفي اليوم التالي[2] أرسلوا بعض الجنود الى القرية (أي كوت الزين) للبحث عن طعام لهم، فعادوا يحملون خصافتين من التمر الأسود... ثم واصلوا سيرهم عصراً، ولم يكن لديهم خريطة يستهدون بها، غير أن سامي بك عمل لهم تخطيطاً مستعيناً ببعض الأفراد الذين يعرفون تلك الأراضي».

ومن هذا يتبين أن سامياً لم يقتل في معركة الفاو، حيث كان موجوداً في معركة كوت الزين التي جرت بعد معركة الفاو[3]. ومما يضعف رواية النبهاني قوله: «ان احتلال الفاو كان في ١٤/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م (كما في الحاشية أدناه) والصحيح أن احتلال الفاو كان في ٦/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م حيث راح المركب (اودين) يمطر القوات

---

(١) التحفة النبهانية - تاريخ البصرة - ص ٣٤١، وقال النبهاني في الصفحة ٣٤٢ من المصدر نفسه: «وفي ٢٦/ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ الموافق ١٤/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م استولت على الفاو، وبعد مناوشات دامت نحو عشرة أيام».

(٢) وهو يوم ١٩١٤/١١/١٠م.

(٣) لمحات ص ١١٦.

التركية بقنابله، فأسكت مدافعها الاربعة خلال ساعة واحدة، وشاء القدر أن تصيب إحدى القنابل قائد الحامية التركية البيمباشي برهان الدين فقتلته حالاً[1]. فيبدو أن النبهاني اختلط عليه الأمر بين تسليم الفاو، وبين المعركة الضارية في كوت الزين وهي التي مهدت لتسليم البصرة، والتي لم يرد لها ذكر في كتابه - التحفة النبهانية -، ومما يقلل الاعتماد على رواية النبهاني أنه لا يسندها بالمصادر التي يجب أن يكون قد اعتمدها كما يفعل المؤرخون الحريصون على التثبت من الدقة في البحث. هذا، ومما يؤيد استشهاد اليوزباشي سامي في معركة كوت الزين تسلسل رواية الدكتور علي الوردي في قوله: «لم يصل خبر سقوط الفاو الى البصرة الا بعد مدة غير قصيرة، وذلك لانقطاع خط التلغراف بين البلدتين، وقد وصل الخبر أخيراً بواسطة الموظفين الهاربين من الفاو، فأسرع صبحي بك عند ذلك مرسلاً الى موقع السنية[2] قوة تعدادها أربعمائة جندي بقيادة اليوزباشي سامي بك، وقد علم الشيخ خزعل أمير المحمرة بأمر ارسال هذه القوة فأخبر - ديلامين -[3] به، وفي فجر ١١/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م قامت القوة التركية بهجوم على ديلامين، ولكن هذا كان مستعداً لها بسبب إخبار خزعل له، فتكبد الأتراك في هذه المعركة ثمانين قتيلاً، ثم انسحبوا الى موقع يقال له سيحان، وهو يبعد عن السنية بأربعة أميال»[4].

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٤.

(٢) السنية: موضع يقع تجاه عبادان على بعد ستة عشر ميلاً من الفاو (المصدر نفسه ص ١١٤).

(٣) هو الجنرال ديلامين قائد الحملة البريطانية (المصدر نفسه).

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤.

يضاف - تأييداً لذلك - قول أمير اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوي في مذكراته: «كلفني نوري[١] أن أذهب الى جاويد باشا ليستخدمه في الجيش العثماني، فذهبت وكلمت مرافقه، فوافق الباشا حالاً على استخدام نوري كضابط ركن في الفرقة إذ كانت الفرقة في أشد الحاجة الى ضابط ركن حيث كان ضابط ركنها النقيب سامي قد استشهد في كوت الزين»[٢].

فكل هذه الروايات تؤيد استشهاد اليوزباشي (النقيب) سامي في معركة - كوت الزين - هذه المعركة الضارية التي عرفت في المصادر التركية بـ - معركة الساحل - كما تقدم. وعرفت عند الأهلين بمعركة - كوت الزين - أو كوت عبيد - أو بمعركة - المطوعة - وهي قرية الى الجنوب من كوت الزين وقريبة منها، ولشدة أثر هذه المعركة في نفوس الناس المعاصرين من المجاورين لتلك الأنحاء فقد نظمت فيها عدة قصائد شعبية وأغان محلية وكنا نسمعها صغاراً ومنها:

آه من حرب المطوعـــــه   والطفــــل كلبـــه يلوعـــه
وطوب كوكس[٣] من يَسمعـــه   الطـــــير من ولفـــه يفر

وكان المرحوم والدي قد اشترك في هذه المعركة مع المجاهدين،

---

(١) نوري السعيد، وكان يعرف آنذاك بـ - نوري أركان - لأنه كان يدرس في كلية الاركان في استانبول وتركها هارباً مع عبد الله الدملوجي وحلّا عند السيد طالب النقيب في البصرة.

(٢) مذكرات ابراهيم الراوي ص١٢.

(٣) كوكس: هو السر برسي كوكس المستشار السياسي للجنرال باريت قائد الحملة البريطانية التي دخلت البصرة بتاريخ ١٩١٤/١١/٢٣ بعد إخلائها ورفعت العلم البريطاني عليها.

الذين فروا بعد ذلك لا يلوون على شيء، لما تعرضوا له من نيران جيوش الاحتلال البريطانية، وما أصابهم من الجوع، وفوق هذا كانت السلطات التركية تلقي القبض على من صادفته من الهاربين وتأمر باطلاق النار عليه من غير سؤال ولا محاكمة، بالرغم من نفاذ العتاد وسوء النظام، وعدم السيطرة على الموقف الحربي.

والذي يعنينا من كل هذا هو التحقيق في صحة اشتراك الشنقيطي في معركة كوت الزين - كما ذكر عبد الرحمن الحاج غانم المحفوظ - أو عدم اشتراكه. وتقدم معنا أن مباركاً الصباح بعد عودته من الفيلية أثناء الثورة القائمة على حليفه خزعل بتاريخ ٢٥/ شباط سنة ١٩١٤م حسب رواية الدكتور علي الوردي، وخلال شهر ربيع الثاني من سنة ١٣٣٣هـ، حيث استدعى مبارك الصباح الشنقيطي وصاحبه، وأجرى معهما المحاورة التي قدمنا وصفها حسب رواية عبد العزيز الرشيد، وبعدها ببضعة أيام غادر الشنقيطي الكويت سراً. فإذا اعتمدنا التاريخ الهجري أساساً للوقائع الحربية في الفاو، وكوت الزين، وإخلاء البصرة، ومعركة الشعيبة، فليس لدينا ما نعتمده في ذلك الا تاريخ الشيخ محمد النبهاني في كتابه - التحفة النبهانية -[1] وذلك لمقارنته بالتاريخ الهجري الذي رواه عبد العزيز الرشيد في تاريخ الكويت في ما يخص تحرك الشنقيطي، واذا اعتمدنا شهر ربيع الثاني من سنة/ ١٣٣٣ هـ مبدأ للمقارنة نقول:

(١)- كان احتلال الفاو - حسب رواية النبهاني - في ٢٠/ ذي الحجة/ من سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤/١١/٧م).

---

(١) التحفة النبهانية - تاريخ البصرة - ص ٣٤١.

(٢)- جرت معركة كوت الزين في: ٢٧/ ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ (١٩١٤/١١/١٧م).

(٣)- أخلى القائد التركي - جاويد باشا - البصرة في: ٢/ محرم/ ١٣٣٣هـ (١٩١٤/١١/٢٢م).

(٤)- جرت معركة الشعيبة في: ١٨/ جمادى الآخرة/ ١٣٣٣هـ (١٩١٥/٤/١٢م)[١].

ومن مقارنة هذه التواريخ، وما تقدم من أن الشنقيطي - حسب رواية عبد العزيز الرشيد - فرّ من الكويت في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٣هـ. ولم يحدد اليوم الذي فرّ به بالضبط، واعتماداً على هذا يكون وصوله الى البصرة قبل معركة الشعيبة بما يقارب الشهرين. ولا بد أن يكون في هذه الفترة قد قام بنشاط ديني لمعاونة حركة الجهاد القائمة آنذاك في البصرة لمعاونة الجيوش العثمانية ضد جيوش الاحتلال وذلك استناداً الى الفتوى الصادرة من المشيخة الاسلامية بتاريخ ٢٣ من المحرم سنة ١٣٣٣هـ، ويحتمل أنه في هذه الفترة انضم الى صفوف المجاهدين يحثهم على الثبات، ويمنيهم الأجر والثواب. ولكن إذا كان ما رواه النبهاني من تاريخ الوقائع أعلاه بالتاريخ الهجري صحيحاً، وبمقابلته بالتاريخ الميلادي يكون وصول الشنقيطي الى البصرة خلال أواخر شهر شباط، أو أوائل مارس من سنة ١٩١٥هـ. ومن الثابت المشهور أنه كان ملتحقاً بمعسكر الشيخ عجمي بن سعدون باشا الذي وصل البصرة في ٢٧/ ذي الحجة/ سنة ١٣٣٢هـ، المصادف (١٧/ تشرين الثاني/

---

(١) التحفة النبهانية - تاريخ البصرة - ص ٣٤١ في ما يخص التاريخ الهجري.

١٩١٤م)[١] أي قبل وصول الشنقيطي إليها - حسب رواية تاريخ الكويت - بأكثر من شهرين. وقد جاء - عجمي - مع بعض عشائره للجهاد في سبيل الدين للدفاع عن البصرة، وصادف تاريخ وصوله نفس تاريخ وقوع معركة - كوت الزين - التي شوهد فيها الشنقيطي وأخبر عن مشاهدته مصرع اليوزباشي (النقيب) سامي - كما تقدم -.

أما مجيء عجمي الى البصرة فكان على أثر ورود رسالة له من والي بغداد - جاويد باشا - يستنصره، ويستصرخه باسم الدين ليهبّ للدفاع عن البصرة قبة الاسلام المهددة بالاحتلال البريطاني، فلبى الطلب، وعند وصوله مع عشائره اتجه مع جاويد باشا الذي أمره بالالتحاق مع الجنود المرابطة في أبي مغيرة[٢]، فذهب واجتمع بصبحي بك والي البصرة والقائد العثماني للجنود هناك فرآه مضطرب الأحوال بسبب استشهاد سامي بك[٣]، ويتبين من هذا أن عجمي السعدون لم يشترك في معركة كوت الزين، ولم يكن له علم بصرع النقيب سامي الا عندما أخبره به صبحي القائد العثماني في أبي مغيرة. ثم ورد لعجمي أمر من جاويد باشا يأمره بالانسحاب الى البصرة، وعند عودته وجد بأن جاويد قد أخلى البصرة وانسحب بالجنود بدون انتظام، وعلى أثر ذلك فقد هجمت العشائر المجاورة على البصرة، وأعملت فيها النهب

---

(١) نفس المصدر.

(٢) أبو مغيرة: قرية تقع على نهر أبي مغيرة المتفرع من الجانب الغربي من شط العرب، نسبة الى المغيرة بن شعبة والي البصرة في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهي اليوم تقع على يمين الطريق الذاهب من مدينة البصرة الى قضاء أبي الخصيب على مقربة منه.

(٣) تاريخ المنتفق للنبهاني ص ١٥٤.

والسلب، فتصدى لهم عجمي السعدون ومنعهم عن ذلك. ثم اشترك في وقعة - الشعيبة - وأبلى فيها بلاءً حسناً مظهراً شجاعة نادرة وإخلاصاً في الدفاع، ومهارة في التخطيط قوامه الكر والفر مما سجل له صفحة خالدة في التاريخ[١].

فهل أن الشنقيطي جاء من الكويت الى البصرة قبل مجيء عجمي السعدون إليها بزمن قليل والتحق بالقوات العثمانية المقاتلة في كوت الزين بقيادة سامي وشهد مصرعه هناك؟. ثم عاد الى الكويت ليحث الأهلين فيها على عصيان أوامر الشيخ مبارك في مقاتلة المجاهدين في عربستان، الثائرين على خزعل؟. هذا ما لا نستطيع الاجابة عنه لعدم توفر المعلومات لدينا عنها، وإلا فان وصول الشنقيطي هارباً من الكويت في أواخر شباط من سنة ١٩١٥م - كما قدمنا - تكون آنذاك قد انتهت كل المعارك في الفاو، وسيحان، وكوت الزين، كما قد دخلت جنود الاحتلال البصرة، والقرنة التي سقطت في العشرين من المحرم من سنة ١٣٣٣هـ (حسب رواية النبهاني) وفي التاسع من كانون الثاني من سنة ١٩١٥م، حسب رواية الوردي، والتي أخذ فيها - صبحي بك - أسيراً، وأعاد له سيفه الجنرال - فراي - القائد البريطاني تقديراً لشجاعته[٢]. فلم يبق من احتمال لاشتراك الشنقيطي في معركة كوت الزين الا أن يكون قد انتدب سراً من قبل الدولة العثمانية، لما عرف عنه من حماس ديني، أو بدافع من شعوره للذود عن الاسلام، وقد ترامت الأخبار إليه بقرب سقوط البصرة موطنه، ومستقر عائلته،

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث للدكتور علي الوردي ج٤ ص١٤٦.

(٢) لمحات ج ٤ ص ١٢١.

ومركز دعوته الدينية، ومعقل العروبة والاسلام، وما سمعه من قيام علماء الدين ومجتهديهم على اختلاف مذاهبهم معلنين الجهاد، وربما بسبب هذا كله غادر الكويت سراً الى البصرة وحيث تدور رحى معركة كوت الزين الضارية فقصدها ليحث المجاهدين ويحرضهم على القتال - كما أشار الى ذلك عبد الرحمن الغانم - وما ورد بمذكرات الضابط البغدادي محمد رؤوف السيد طه الشيخلي - كما قدمنا - ولكنه بعد مقتل قائد القوات هناك - سامي بك - واندحار الجيش العثماني في هذه المعركة، عاد الى الكويت ليكون قريباً من عائلته، وقد يصدق هذا على الشنقيطي الدائب الحركة، الصادق العزيمة، الناذر نفسه لله، وللدفاع عن الدين. كما أكد لي من أثق به من آل البسام أن اشتراك الشنقيطي في معركة كوت الزين الى جانب النقيب سامي كان أمراً مشهوراً وهو الذي روى حادث قتله.

٢٩ - إشتراكه في معركة الشعيبة[١]:

كانت معركة - الشعيبة - من المعارك الشهيرة في نجاح الاحتلال البريطاني للعراق، واندحار الجيوش العثمانية ونحن لا نريد هنا أن نصف

---

(١) الشعيبة: قرية تقع الى الغرب من مدينة البصرة على مسافة عشرة أميال منها، وتبعد عن قضاء الزبير بنحو ميلين. «تاريخ المنتفق - لحمد ابن خليفة النبهاني - ص١٥٦ ». وجاء في فتوح البلدان للبلاذري قوله: «كان أهل الشعيبيَّة من الفرات جعلوها لعلي بن أمير المؤمنين الرشيد في خلافة الرشيد على أن يكونوا مزارعين له فيها ويخفف مقاسمتهم. فتكلم فيها فجعلت عشرية من الصدقة وقاسم أهلها على ما رضوا به، وقام له بأمرها شعيب بن زياد الواسطي الذي لبعض ولده دار بواسط على دجلة، فنسبت إليه». ص ٥١٧. فالشعيبة محرفة من الشعيبية، كما ذكر البلاذري.

أهمية هذه المعركة، ولا أسباب النجاح والخذلان فيها، لأن ذلك من اختصاص المؤرخين العسكريين، كما هو مفصل في المراجع المختصة بذلك، غير ان الذي يعنينا بصورة دقيقة مهمة، هو حركة إعلان الجهاد الإسلامي، وتفاقم الشعور الديني في هذه الحرب ضد جيوش الاحتلال الكافرة، ومناصرة الدولة العثمانية رائدة الخلافة الاسلامية، وذلك على أثر ورود برقية من البصرة في ٩/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م الى علماء الدين في العتبات المقدسة، ولمختلف المدن العراقية والتي جاء فيها:

«ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى على باقي بلاد الاسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع»[١].

وعندما تليت هذه البرقيات على الناس، وراح الوعاظ والخطباء يلهبون الحماس، ويثيرون المشاعر الدينية في النفوس مؤكدين أن الانكليز إذا احتلوا العراق فسيهدمون المساجد، والعتبات المقدسة، ويحرقون القرآن وينتهكون حرمات النساء[٢] فثارت ثائرة القوم، وأعلن رجال الدين الاسلامي بجميع مذاهبه، أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين، ولا نريد أن نسهب في وصف حركة الجهاد التي عمت العراق من أدناه الى أقصاه، وكان ذلك على أثر الفتوى التي أصدرها شيخ الاسلام خيري أفندي في ٧/ تشرين الثاني/ ١٩١٤، ذكر فيها أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين في جميع أنحاء العالم الاسلامي وتلتها بيانات وفتاوى إسلامية عديدة تحث على وجوب الجهاد. وعندما كان الحماس الديني على أشده في جميع البلاد العراقية فقد كان من أثرها

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٤ ص١٢٦.

(٢) لمحات ج ٤ ص ١٢٧.

أن قامت في عربستان ثورة عارمة ضد الشيخ خزعل الذي لم يستجب لنداء علماء الدين في كربلاء والنجف، رغم البرقيات التي انهالت عليه بوجوب مناصرة الدولة العثمانية ضد جيوش الاحتلال البريطانية، وكانت موقعة من قبل أكابر علماء الدين الشيعة الاعلام أمثال الشيخ فتح الله الاصفهاني، والسيد مصطفى الكاشاني، والمرزا مهدي الخراساني، والسيد علي التبريزي، والشيخ محمد حسين المهدي، وبرقية أخرى وردت من السيد محمد بن السيد كاظم اليزدي، وكلها تحثه باسم الشريعة المحمدية على القيام والاتفاق مع المسلمين في مدافعة الكفار عن ثغر البصرة بالمال والنفس، وبكل ما يستطيع، ولكن الشيخ خزعلا لم يشأ أن يكلف نفسه الاهتمام بفحوى هذه البرقيات، وبالرغم من علاقته الوثيقة بالشيخ عبد الكريم الجزائري أحد علماء النجف والذي يعتبر من مقلديه، ومن أشد الناس إخلاصاً له، وإطاعة لأوامره وقد كتب إليه يأمره بالاشتراك في الحرب الى جانب الدولة العثمانية وذلك بتجهيز حملة من العشائر لمساعدتها ولأن الحكم الديني لا يفرق بين الايراني والعثماني، ولا بين مسلم وآخر، ولكن خزعلاً راح ينتحل الأعذار تنصّلاً من تبعة هذه الأوامر الدينية وكان من نتيجتها أن عمت الثورة منطقة عربستان واسقط في يد الشيخ خزعل الذي استنجد بصديقه وحليفه الشيخ مبارك الصباح وما كان من أمر عصيان الكويتيين بتحريض من الشيخ الشنقيطي وزميليه، ثم هروب الشنقيطي من الكويت - كما مر تفصيل ذلك.

وإذا كان اشتراك الشنقيطي في المعارك الساحلية لم يتأيد بصورة قطعية، فان اشتراكه في معركة الشعيبة كان أمراً محققاً بالاجماع، كما مر

في مقال الأستاذ الشملان، وفي تاريخ الكويت في الصفحة (١٧٧) وما أكده تلميذه الشيخ محمد العسافي، وكما أشار الى ذلك الدكتور علي الوردي في الصفحة (١٤٥) في الجزء الرابع من كتابه لمحات اجتماعية، ويؤكد شهود العيان أن الشنقيطي اشترك في معركة الشعيبة مجاهداً بيده وهو يحمل البندقية، وبلسانه وهو يناشد المجاهدين الصدق في القتال، والثبات في اللقاء، وكان كأحد المجاهدين في معية الشيخ عجمي السعدون.

استمرت معركة الشعيبة ثلاثة أيام بلياليها حيث بدأ الهجوم التركي على الموقع الانكليزي في الصباح الباكر من يوم: ١٢/ نيسان سنة ١٩١٥م وكان الأتراك قد حشدوا في أدغال البرجسية الواقعة على بعد ستة أميال الى جهة الجنوب الشرقي من الشعيبة جيشاً كبيراً مؤلفاً من قوات نظامية يبلغ عددها ستة آلاف تقريباً، ومن مجاهدين معظمهم من العشائر يتراوح عددهم بين العشرين أو الخمسين ألفاً على اختلاف بين المؤرخين. وكان القائد التركي - سليمان عسكري بك - قد وصل الى الموقع في ٩/ آذار/ ١٩١٥م، وكان يعد الخطة، ويفتش قواته وهو محمول على نقالة على أثر جرح في ساقه حيث أصيب بشظية في معركة الروطة[1]، وكان من رأي الشيخ عجمي السعدون، وبعض القادة من الضباط الألمان أن الهجوم المباشر على مواقع الانكليز المحصنة في الشعيبة غير مجدٍ، بل يجب محاصرتهم، وقطع الامدادات عنهم، وضرب خطوط مواصلاتهم، وشن الغارات عليهم، إلا أن سليمان عسكر تمسك

---

(١) الروطة: وهي قناة تقع في الجانب الشرقي من دجلة على بعد خمسة عشر كيلومترا من شمال القرنة (لمحات ج٤ ص١٣٦).

برأيه في الهجوم الذي بدىء به في الموعد المذكور، وقد أبدى الجنود العثمانيون، والمجاهدون ثباتاً عنيداً وبسالة نادرة، وقدموا عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، وكان الشيخ عجمي السعدون من أعظم المقاتلين أثراً في تلك المعركة، كما نوهنا بذلك من قبل، وروى الدكتور الوردي عن شكري محمود نديم قوله: «كان عجمي باشا السعدون أبرز قادة المجاهدين، وغدا اسمه مضرب الامثال في الشجاعة والشهامة، وحيكت حول أعماله أساطير كثيرة لا تزال تتناقل جيلاً بعد جيل، فكان يهاجم المفارز البريطانية، ولا سيما الخيالة منها فينقض عليها على رأس فرسانه المتفككين المنتشرين بمسافات بعيدة لتجنب تأثير نار المدافع البريطانية وكان هؤلاء الفرسان يتجمعون في لحظة الهجوم باشارة من عجمي، فيهجمون بسرعة البرق الخاطف فيوقعون بالبريطانيين خسائر فادحة، ثم يقودهم عجمي بسرعة مذهلة الى حيث تبتلعهم الصحراء»[1].

وخلال اليومين الأولين، لم يظهر تغلب أحد الفريقين على الآخر، وفي اليوم الثالث تولى قيادة الجيوش البريطانية الجنرال (مليس) فأصدر أوامره الى الجنود بالخروج من الخنادق، والشروع بالهجوم على القوات التركية، ونشب على أثر ذلك قتال مرير، وبدأت حركة تمرد في الجيوش البريطانية من جانب الهنود الذين أثرت فيهم دعوة الجهاد الاسلامية، فكان الجنود الانكليز ينخزونهم بالسيوف والحراب ليخرجوهم من الخنادق، ويدفعوهم الى القتال دفعاً. واستمر القتال طيلة ذلك اليوم، وكان النصر فيه لمن صبر ساعة – كما يقولون – وكان الجنرال – مليس – قد أرسل الى سرية النقل لتأتي بكل ما لديها من عجلات،

(١) المصدر نفسه. ص ١٤٦.

وبغال، لنقل الجرحى، وكان من أثر مجيء هذه العجلات أن أثير غبار كثيف، فظن الأتراك أن هذا الغبار كان بسبب مجيء نجدات جديدة للعدو، فانهارت عزائمهم، وقيل إن بوادر هذا الانهيار ظهرت في صفوف العشائر الذين راحوا يتراجعون بلا نظام، ثم تلاهم الجنود النظاميون، فحلت بهم الهزيمة[1]. ولم يصمد في ساحة القتال سوى ثلة من الفدائيين الأتراك وقد قتلوا جميعاً، ولم ينج منهم أحد.

أما القائد التركي - سليمان عسكري - فلم يستطع تحمل الصدمة، لما لحقه من عار الهزيمة، فجمع الضباط حوله، وهو في نقالته، وأعلن لهم أن الهزيمة كلها كانت من جراء خيانة العشائر، وأنه لن يستطيع أن يحارب مرة أخرى، ثم أطلق الرصاص من مسدسه على رأسه وخر صريعاً يتخبط بدمه، ويقال إن الجنود الانكليز عندما وصلوا إلى خيمة القائد المنتحر أدوا التحية العسكرية لجثمانه وأبلغوا قائدهم بذلك فجاء القائد وحيّاه، ثم أمر بدفنه في احتفال عسكري مهيب[2].

وليس من اختصاص بحثنا أن نناقش أسباب الهزيمة حسب آراء المعلقين والمؤرخين السياسيين المختلفة، غير أنا نعود الى القول بأنه كان بين المجاهدين كثير من علماء الدين، والشعراء والأدباء، أمثال السيد محسن الحكيم، والسيد محمد سعيد الحبوبي، وغيرهما.

أما الشيخ الشنقيطي فقد أسقط في يده، وانسحب مع عشائر عجمي السعدون التي انسحبت الى الخميسية بالقرب من سوق الشيوخ متربصة للانكليز بالوقيعة، وعلى أثر ذلك أنعمت الحكومة التركية على عجمي بن

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨.

سعدون بلقب - باشا - تقديراً لخدماته الحربية وتناسيه أحقاده على الدولة العثمانية التي سجنت أباه ونفته الى حلب حيث مات في منفاه، وهو ما سبب العداء بينه وبين السيد طالب النقيب الذي اتهمه بالوشاية ضد والده[1].

قال عباس العزاوي: «نال عجمي السعدون رتبة - ميرميران - (أمير لواء) من الدولة العثمانية، مكافأة لخدماته المشهورة وأفعاله الوطنية المبرورة»[2].

وبعد نهاية معركة الشعيبة باندحار الجيوش العثمانية، وتشتيت شمل المجاهدين بتاريخ ١٨/ جمادى الآخرة/ سنة ١٣٣٣هـ الموافق ١٤/ نيسان/ ١٩١٥م. على الحال الذي ذكرناه، إذ ذاك التفت الشيخ عجمي السعدون الى الشيخ الشنقيطي وحمد له إخلاصه وصدقه في دينه، وشجاعته وسط الاخطار المحدقة، إلا أنه نصح له باعتزال المعارك الحربية، حيث أصبح محط الانظار في شهرته الدينية، وزيه العلمي، وهو لا يأمن عليه من جواسيس الانكليز وأعوانهم، فارتحل الى سوق الشيوخ بحراسة رجال عجمي باشا، ومنه الى الخميسية فالناصرية ثم وصل بغداد.

٣٠ - الشنقيطي في بغداد:

قال تلميذه محمد العسافي، إن الشنقيطي حين وصل بغداد حل ضيفاً

---

(١) تاريخ المنتفق للنبهاني ص ١٤٨.

(٢) العراق بين احتلالين ج ٨ ص ٢٧٩.

على عمه صالح العسافي، أحد تجار بغداد، وهو نسب لجدهم المسمى - عسّاف -.

طاب للشنقيطي المقام في دار السيد صالح العسافي الذي بالغ في إكرامه، وقد لا نعرف بالضبط تاريخ وصوله الى بغداد، ومن المؤكد أنه سلك إليها الطريق الغربي على امتداد الفرات، لما لصديقه الشيخ عجمي من نفوذ في عشائر هذه الجهات حيث تتمركز عشائر المنتفق في الخميسية وسوق الشيوخ والناصرية على الفرات أكثر منها على الدجلة، وإذا علمنا أن الشنقيطي غادر البصرة في طريقه الى بغداد بعد انتهاء معركة الشعيبة في ١٤/ نيسان/ ١٩١٥م وعلى رواية النبهاني في التاريخ الهجري في ١٨/ جمادى الآخرة من سنة ١٣٣٣هـ ، كما تقدم، فلا بد أن يكون قد وصل بغداد في نهاية شهر نيسان من السنة نفسها، وذلك لأن الجيوش البريطانية كانت تواصل زحفها على جانبي النهر، وحسب رواية النبهاني أن مدينة العمارة سقطت في ٢/ رجب/ من السنة ذاتها[1] . وعلى رواية الدكتور علي الوردي أنه في صباح ٤/ حزيران/ ١٩١٥م أخذ بعض سكان العمارة ينهبون بيوت الضباط الأتراك، ودوائر الحكومة، والمستشفيات[2] ومستودعات الأطعمة وغيرها، وذلك على أثر احتلال - طونزند - العمارة وتسليمها من غير مقاومة من قبل الأميرالاي التركي - حليم بك - بسبب جبنه، وبما اتهم به من رشاوى. ويفهم من هذا أن العمارة سقطت بعد معركة الشعيبة بشهر ونصف تقريباً على اختلاف الروايتين بالتاريخين الهجري والميلادي،

---

(١) تاريخ البصرة (التحفة النبهانية) ص ٣٤٦.

(٢) لمحات اجتماعية ج ٤ ص ١٦٦.

ويكون الشنقيطي أثناءها في بغداد. ويروي محمد العسافي أن عدداً من علماء الدين في بغداد صاروا يزورونه في دار عمه صالح العسافي، ومن أخصهم السيد محمود شكري الآلوسي[1]. وبقي في بغداد - كما أكد محمد العسافي - حتى أصبحت الجيوش البريطانية على مشارفها حيث جرت معركة - سلمان باك - الشهيرة في ٢٢/ تشرين الثاني/ من سنة ١٩١٥م، فخشي أن يقع في الأسر، لذلك غادر بغداد متخفياً الى السماوة، ومنها انضم الى إحدى القوافل المسافرة الى نجد، وعلى هذا فتكون مدة بقائه في بغداد منذ وصوله إليها في أواخر نيسان من سنة ١٩١٥م إلى أواخر تشرين الثاني من السنة نفسها بضعة أشهر، ولا بد أن يكون قد خرج منها خائفاً يترقب[2].

٣١ - وصوله إلى حائل ومنها إلى عنيزة:

وصل الشنقيطي الى حائل مع إحدى القوافل القادمة من السماوة وحل ضيفاً على أحد طلابه الشيخ صالح القاضي في مدينة حائل والذي

---

(١) هو محمود شكري بن عبد الله الآلوسي، حفيد العلامة محمود بن عبد الله الآلوسي شهاب الدين الملقب بأبي الثناء صاحب تفسير روح المعاني، المتوفى في الخامس والعشرين من ذي القعدة/ سنة (١٢٧٠هـ) كما ذكر الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه - الآلوسي مفسراً - ص٥٢، والمدفون بمقبرة جنيد البغدادي، أما محمود شكري الحفيد وهو المقصود في بحثنا، فقد توفي سنة ١٩٢٤م ودفن في نفس المقبرة.

(٢) ولكن إذا علمنا حسب ما ورد في مذكراته ورواية الشيخ ناصر الاحمد أنه حج في سنة ١٣٣٣هـ ، والتقى في آخرها بابن عبد الحميد العلوي وان معركة الشعيبة حسب رواية النبهاني جرت في ١٨/ جمادى الآخرة من نفس السنة فلا بد أن يكون قد وصل بغداد حسب ما ذكر العسافي في نهاية هذا الشهر ولا بد أن يكون قد خرج منها في أوائل ذي القعدة ليدرك الحج وعلى هذا التقدير فلم يكن بقاؤه في بغداد اكثر من أربعة أشهر على التحديد وهو الأصح.

رحب به، وبالغ في إكرامه واحترامه، وما أن سمع الناس بقدومه حتى توافد اليه العلماء وطلاب العلم الذين عقد لهم دروساً في مختلف العلوم، والمواضيع - حسب طلبهم - غير أنه لم يلبث طويلاً حتى شعر بالضيق، وعدم الارتياح فيّ حائل، فاستأذن مضيفه بالسفر الى عنيزة من بلاد القصيم، ونزولاً عند رغبته ودع بالحفاوة والاعتزاز وعند وصوله استقبل من قبل قاضي عنيزة - الشيخ صالح العثمان - زميله في الدراسة، والذي أفرد له داراً لسكناه، وصار يتردد عليه في هذه الدار وجوه البلد، من علماء، وتجار، وطلاب علم، وكان ممن اختص بزيارته على الدوام - محمد الشبيلي - أحد تجار عنيزة ووجهائها، والذي كان معجباً بعلم الشنقيطي، وورعه، وتفانيه في خدمة الاسلام، كما كان الشنقيطي يزور الشبيلي في داره فيرحب به أجمل ترحيب، ويصغي الى تعاليمه، وآرائه الدينية والأدبية القيمة. انتشر خبر وصول الشنقيطي في بلاد القصيم كلها، وصار الناس يلهجون بذكره، ويثنون على مواقفه الجريئة المشرفة في الذود عن الاسلام، والجهاد في سبيله، حتى اتصل ذلك بالملك عبد العزيز السعود الذي حسب له حساباً، وأراد أن يطلع على آرائه من قريب، ويستمع إلى آراء المقربين منه عن هذا الرجل الذي سبقته شهرته الى بلاد نجد كلها والى ما جاورها من بلاد، سيما وأن الظروف السياسية والحربية كانت تستدعي اليقظة والحذر، ولكن الملك عبد العزيز كان على درجة عظيمة من الحلم والحزم والكياسة، لذا فقد عزم على الاجتماع بالشنقيطي في ظروف عادية، ومناسبة طارئة، لا استدعاء فيها، ولا ارتياب، لذا فقد بادر لزيارة القصيم، كما كانت عادته من حين لآخر.

٣٢ - بين الملك عبد العزيز السعود والشنقيطي[١]:

قال الشيخ محمد العسافي ما معناه: إنه كان من عادة الملك عبد العزيز السعود عندما يأتي الى القصيم يزور محمد الشبيلي في داره، وعند زيارته له هذه المرة، وجد الشيخ الشنقيطي عنده في مجلسه، فرحب به، وآثره برضاه، وأثنى على علمه وتقاه، إلا أنه أراد أن يلمح له من بعيد، وبأسلوب حكيم، كي يلتزم الحياد، ولا يفرط في إثارة الحماس الديني ضد الانكليز - كما فعل بالكويت والعراق - فيخلق له متاعب، ومشاكل لا يريدها، لذا فقد راح الملك يحدث الشبيلي (معرِّضاً) - والشنقيطي يسمع - بأن الانكليز قد كتبوا له طالبين تسليم الشنقيطي لهم، وطلب الى الشبيلي أن يستطلع رأي الشنقيطي بذلك، فعرض الشبيلي الأمر عليه بحضور الملك، ولكن الشنقيطي لم يرتبك، ولم يبد عليه أي أثر من الغضب أو الانفعال، أو الخوف، أو التأثر، أو طلب الحماية، أو ما أشبه ذلك، بل أجاب برباطة جأش، وهدوء قائلاً: - الرأي، رأي صاحب الجلالة، وله الحق في اتخاذ ما يراه الأصلح لسياسة بلاده، وشؤون مملكته، ولا لوم عليه في كل ما يفعل من أجل ذلك.

فابتسم الملك، معجباً بشجاعته، ثم طمأنه بأنه أجاب الانكليز بعدم الموافقة على تسليمه مهما كلف الأمر، وليس من عادة العرب تسليم ضيوفهم ومجاوريهم، بل جرت العادة بحمايتهم، والدفاع عنهم، بكل ما

---

(١) ما زلنا نتحدث في هذه الفترة من حياة الشنقيطي استناداً الى ما أدلى لنا به من معلومات تلميذه - صديقنا - الشيخ محمد بن حمد العسافي الثقة حيث التقيت به مرة في مقهى في الأعظمية، وأردفتها بزيارته في داره بشارع الضباط بالأعظمية أيضاً بتاريخ ٢٠/ تموز/ ١٩٧٠م قبيل وفاته رحمه الله.

أوتوا من قوة ومنعة، وأكد لهم، وتعهد عنه بأنه سوف لا يتدخل بالسياسة، ولا يثير الرأي عليهم.

«والى هنا تنتهي رواية العسافي».

يبدو من هذا أن الملك أراد بهذا التعريض أن يشير للشنقيطي بعدم إثارة المواضيع السياسية، ولو باسم الدين، لما عرف عنه من صراحة، وحماس، ومهاجمة كل ما يراه مخالفاً لتعاليم الاسلام، خصوصاً بأن لا يتعرض لبريطانيا، وهو الذي أثار عليها الرأي العام في الكويت، وحمل السلاح ضدها مع المجاهدين في معركة الشعيبة، وربما ندد بها في بغداد أيضاً، أو ربما فعل مثل ذلك حتى في المملكة السعودية، في حائل، وعنيزة، سيما وأن ثمة ملابسات سياسية دقيقة وعديدة، منها: أن رحى الحرب بين تركيا وحليفاتها من جهة وبين بريطانيا وحلفائها من جهة أخرى، لا زالت دائرة في العراق، كما وأن الملك عبد العزيز كان قد التزم جانب الحياد أثناء هذه الحرب، وأكثر من ذلك فقد وقع معاهدة العجير مع بريطانيا بواسطة - السر برسي كوكس - مدير الدائرة السياسية الملحقة بالحملة العسكرية في حرب العراق، وذلك في كانون الأول من سنة ١٩١٥م على ساحل الاحساء، وتعهد فيها باسم بريطانيا بالاعتراف باستقلال بلاد الملك عبد العزيز[١].

وفي نفس السنة زار المملكة - عبد الله فلبي - الساعد الأيمن للسر برسي كوكس، كما نمت العلاقة بعدئذٍ بين الفريقين وفي هذه الفترة بالذات كان وجود الشنقيطي بالمملكة السعودية، فمن المصلحة، والمعقول

---

(١) عبد الله فلبي - ترجمة خيري حماد ص ٣٨.

بأن لا يسمح له بإرسال الكلام على عواهنه معرضاً ببريطانيا يوم كان فلبي وأعوانه على اتصال مباشر بالملك عبد العزيز. يضاف الى ذلك أن الشنقيطي كان من أصدقاء عجمي السعدون الموالي لدولة تركية حتى الأخير، والذي قال عنه فلبي بالنص:

«وقد تعرفت في الناصرية، وسوق الشيوخ، إلى عدد من شيوخ السعدون، وفي مقدمتهم - عجمي السعدون - الذي ظل على ولائه للأتراك، وارتحل إلى البادية لينضم الى صفوف ابن رشيد»[١].

فَهَلاّ يعد الشيخ الشنقيطي موالياً لتركيا أيضاً، ومن المعادين للانكليز مثل عجمي السعدون، وابن رشيد؟

واذا علم أن ابن رشيد كان العدو الألد لعبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، وكانت المعارك إذ ذاك على أشدها بينهما، يضاف اليه أن سعدوناً المنصور وابنه عجمي كانا من حلفاء ابن رشيد عدو عبد العزيز السعود[٢]. كما وأن وجود الشنقيطي في بلد مثل حائل وعنيزة أتباع محمد ابن عبد الوهاب في تمسكهم بتعاليم الاسلام الصحيح القويم، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو يدعوهم الى محاربة الكفار، والجهاد في سبيل الله، فيلتقون معه بالعقيدة والفكرة، وسيكون لذلك أبلغ الأثر في نفوسهم، والنفور من الأجانب من غير المسلمين، الأمر الذي كان بسببه يضطر هؤلاء الأجانب الي التنكر بارتداء الملابس العربية، أثناء وجودهم في المملكة وتنقلهم فيها، والا تعرضوا للمضايقة والهلاك. فكل هذه الأسباب جعلت الملك عبد العزيز غير مرتاح لوجود الشنقيطي

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠.

(٢) المنتقق لمحمد النبهاني ص ١٣٨.

الذي فهم تلك التعريضات وراح يعد نفسه للخروج من تلك البلاد، وليس ببعيد أن يكون الملك عبد العزيز قد تلقى إشارة من بعض ممثلي بريطانيا بمثل ما عرض به للشنقيطي. وفي الحقيقة فان الشنقيطي لم يكن ملماً بمثل هذه الظروف التي تتحكم برجال السياسة من الملوك والأمراء مراعاة لمصالحهم، ومصالح بلادهم في تلك الآونة المضطربة، والأحداث المتداخلة، وهذا ما كان خافياً عليه في أسباب اختلافه مع الشيخ مبارك الصباح الذي اضطر لاخراجه من الكويت، وفي توجس الخيفة منه من قبل الشيخ سالم المبارك الصباح، ومقابلته له بالجفاء، والغلظة، والتهديد - كما سيأتي.

وأنّى لرجل مثل الشنقيطي المدفوع بدافع الايمان الديني الذي يرى الحق حقاً، والباطل باطلاً بالنسبة لما جاء به الاسلام فقط، أنّى له أن يعرف المناورات السياسية، والمصالح الادارية، والدهاء، والمخادعة من أجل الكسب والانتصار، وما كان يتطلع إليه الملك عبد العزيز السعود من بسط سلطانه على بلاد نجد كلها، لا بل والحجاز، والكويت، كل هذه كانت أموراً لا يستطيع الشنقيطي أن يتفهمها في مثل تلك الظروف الشائكة الحرجة، ولكنه على كل حال، فقد أخلد الى الراحة، ولاذ بما يشبه الصمت وهو في هذا بعيد عما كان يجري، وما يراد له أن يجري في البلاد العربية من مناورات، ومماحكات، وأطماع. فها هي بغداد تسقط بيد الانكليز في ١١/ آذار/ ١٩١٧م (١٧/ جمادى الاولى/ ١٣٣٥هـ)[1]. وها هو الشريف حسين في الحجاز يعلن استقلال العرب عن الدولة العثمانية، ويطلق الرصاصة الأولى ايذاناً بذلك في يوم /٩/

---

(١) العراق بين احتلالين ج ٨ ص ٣٠٢.

شعبان/ ١٣٣٤هـ (١١/ حزيران/ ١٩١٦م) ليكون ذلك اليوم يوم عيد استقلال الأمة العربية بزعامته، والذي عرف بعد ذلك بعيد النهضة العربية[1].

فلم لا ييأس الشنقيطي من جميع محاولاته في الانتصار للدولة العثمانية، وانقاذ الخلافة الاسلامية من الانهيار؟ كل هذا وهو مقيم في عنيزة يقلب الأمر على عدة أوجه، بينا تتلاحق الأحداث العربية والعالمية سراعاً، فبقي ينتظر ما يأتي به الغيب، وما تنفرج عنه الأحداث، ويبدو أنه انصرف في هذه الفترة لكتابة مذكراته التي كانت عمدتنا في كثير من أخباره.

٣٣ - إنصرافه إلى كتابة مذكراته:

في هذه الفترة الحرجة، والحالة النفسية الخافتة من حياة الشنقيطي وهو يستعرض الأحداث المليئة بالخيبة والفشل، والتأزم والاضطراب، وبعد أن وجد أن لا فائدة من الوعظ والارشاد، وأن الكلام أصبح محظوراً، فاستبد به الفراغ، فكان أقرب ما يكون الى استعراض حياته منذ نشأته الأمر الذي هاج به الحنين الى مسقط رأسه، وذكريات بلده فأراد أن يخرج من هذا الصمت الثقيل الذي لم يعتده، وأن لا يدع تلك الأحداث تمر ليبتلعها الضياع، فراح يسجلها في مذكرات، لتكون له مرآة يرى نفسه فيها من حين لآخر، ومرجعاً لمن أراد أن يكتب سيرته من بعده، وربما كان ذلك بوحي من بعض أصدقائه من آل البسام في عنـيزة، والذين احتضنوه عند أول قدومه الى مدينة الزبير في

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥.

البصرة - كما تقدم - وبالغوا في إكرامه والاحتفاء به في غربته الثانية في بلاد القصيم، فراح يكتب هذه المذكرات، وعندما فرغ منها استأذنه السادة عبد الله عبد الرحمن وسليمان صالح من آل البسام، وعبد الله محمد المنصور في استنساخها بنجد سنة ١٣٣٦ هـ، فأذن لهم بذلك، وتقع هذه المذكرات في سبعين صفحة تقريباً من القطع المتوسط. وعندقدوم السيد عبد الله عبد الرحمن البسام الى مدينة الزبير كانت معه نسخة منها، فطلب إليه الأستاذ أحمد حمد الصالح مدير غرفة تجارة البصرة آنذاك أن يستنسخها، فأذن له بذلك. ففرغ من استنساخها في ١٨/ ربيع الثاني/ ١٣٧٥هـ (٣/ كانون الأول /١٩٥٥م)، ثم أذن لي - رحمه الله- في الاطلاع عليها، ونقل ما أريد منها، فلخصت ما أهمني من أحداثها، تاركاً الاسهاب والتفاصيل، والاستطرادات، وبالطبع فقد كانت الأحداث تنتهي الى تاريخ الانتهاء من كتابتها من قبل صاحبها في سنة (١٣٣٦هـ) - كما ذكرنا - غير أني طلبت الى تلميذه الشيخ ناصر الأحمد مدير مدرسة النجاة، إكمال سيرة أستاذه، فكتبها الى حين وفاته، وسأثبت ما لخصته منها نصاً، في آخر الكتاب، شارحاً ما يجب شرحه بايجاز تتمة للفائدة.

٣٤ - مغادرته عنيزة للحج مع الشيخ أحمد آل جابر:

كان بين الشيخ أحمد الجابر الصباح، وبين الملك عبد العزيز السعود صداقة متينة، وحب وثيق، على عكس ما كان بين الملك عبد العزيز وبين الشيخ سالم بن مبارك الصباح - عم الشيخ أحمد الجابر - من جفاء شديد، وحروب مدمرة، واتفق أن الشيخ أحمد أراد أن يحج في سنة ١٣٣٦هـ، فعرج في طريقه على عنيزة من بلاد القصيم، ولا بد انه

لقي من صديقه الملك عبد العزيز الحفاوة والاكرام، ولما كان الشيخ الشنقيطي موجوداً آنذاك في عنيزة اقترح عليه أن يرافقه الى الديار المقدسة مرشداً وزميلاً فوافق الشنقيطي مسروراً، لما كان فيه من ضيق صدر، وفراغ، ولاغتنام فرصة الحج الى بيت الله الحرام[1]، ولكن لم يخطر بباله أن مسألة مرافقته للأمير أحمد الجابر سيكون لها أسوأ الأثر في نفس حاكم الكويت الشيخ سالم بن مبارك فيأمر بطرده من الكويت، ويهدده أشد التهديد، ويناصبه العداء حتى بعد خروجه من الكويت - كما سيأتي.

كان العام الذي حج فيه الشنقيطي بمصاحبة الأمير أحمد مليئاً بالأخطار، والاضطرابات، والتوترات السياسية بين الحكام العرب مع بعضهم بعضاً، من جهة، ومع دولة تركيا، من جهة أخرى، كما كان الجو مشحوناً بالمؤامرات السياسية الدولية، وقال عنه مؤلف تاريخ الكويت في معرض حديثه المشيد بمفاخر الشيخ أحمد نصاً:

« وهو أحد أمراء آل الصباح الذين وفقوا لأداء فريضة الحج، ولكن في عام كثر خوفه، وتفاقمت أخطاره، وقل الأمن في سبيله، وفي أيام اتقدت رمضاؤها، واشتد حرها... تربع الأمير على دست الاجلال هناك عام ١٣٣٦ هـ، ولقي من الملك حسين إذ ذاك حفاوة وإكراماً لائقين بمقامه السامي »[2].

وكان الملك حسين بن علي قد بويع ملكاً على العرب في ٩/ محرم/ ١٣٣٥ هـ (٦/ تشرين الثاني/ ١٩١٦ م) ومن يومها بدأ يوقع مكاتباته

---

(١) تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد ص ٢٠٧ (الطبعة الثانية).

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣١.

الرسمية في الداخل والخارج بعنوان «شريف مكة وأميرها، وملك البلاد العربية»، واعترفت له روسيا القيصرية بذلك. أما انكلترا وفرنسا وإيطاليا، فقد اعترفوا له بملكية الحجاز فقط[1]. ولا نريد ان نستفيض في بحث ما كان من مناورات سياسية، وآراء مختلفة في المعسكر البريطاني نفسه تجاه العرب، وما كان من انقسام في الرأي بين معسكر الحلفاء عامة في اقتسام الغنيمة، الأمر الذي أدى إلى ضياع الجهود المبذولة في تحقيق إنشاء دولة عربية كبرى، حيث نجحوا في بذر بذور الخلاف بين المتصدين للزعامة العربية، من أجل المطامع في الاستحواذ على الحكم، الأمر الذي أدى في النهاية الى تقسيم البلاد العربية الى مراكز نفوذ استعمارية متمثلة في دويلات مستضعفة، لم تستطع الصمود أمام إرادة الاستعمار في إنشاء دولة اسرائيل التي لا زالت السبب الرئيسي في تفريق كلمة العرب، وتهديد بلادهم بالغزو الصهيوني، وبذر بذور الاطماع والخلاف بين حكامهم لئلا تتحد رايتهم خوفاً من أن يكونوا أمة واحدة قوية تستأثر بخيرات بلادها، وتملي إرادتها بقوة وحرية.

أقول كان هذا ليس موضوع بحثنا، حيث لا يتسع المجال للخوض في مثل هذا الأمر الحيوي، الذي أشبعه المؤرخون السياسيون بحثاً، ولكن المناسبة الحيوية عرجت بنا على ذلك.

ونعود للشيخ أحمد الجابر وزميله في الحج الشيخ محمد أمين الشنقيطي فنقول إنه لا غرو أن يبالغ الشريف حسين في إكرامها لما للأول من مكانة سياسية في البلاد العربية وإمارات الخليج، وما له من أهمية في

---

(١) مذكرات ابراهيم الراوي ص ٩٨.

تأييد الشريف حسين وتثبيت سلطانه المضطرب، وما للثاني من مكانة دينية لا غنى عنها للغرض نفسه، ولئن كان الشيخ أحمد الجابر غنياً عن التعريف لدى الشريف حسين، فقد كان أيضاً ذا معرفة سابقة بالشيخ الشنقيطي يوم كان طالب علم في مكة المكرمة، ومدحه بأبيات مرت الاشارة اليها عند توليه شرافة مكة. ولو ان الشنقيطي كان قد أسقط في يده، وهو يرى الغالبية العظمى من العرب تناصر الانكليز، وتحارب الدولة العثمانية، ولكن ماذا عساه أن يصنع، وقد رأى الجيوش العربية تقاتل الأتراك في المدينة المنورة وجدة، والطائف؟ رأى الحجاز في غليان سياسي، وفكري، فأين يضع نفسه من هذا الاضطراب المخالف له في الرأي والعقيدة؟

وإلى هنا تنقطع أخبار الشنقيطي حسب ترتيب الحوادث، إذ لا نعلم بكيفية عودته الى بلاد القصيم في نجد بعد الحج ومتى فارق الشيخ أحمد؟. إلا أنه ورد في مذكراته الخطية أنه في السنة التي حج فيها وهي سنة ١٣٣٦ هـ هذه، قال إنه اجتمع بأناس من أهل شنقيط وذكروا له أن الشيخ سيدياً ابن الشيخ سيديّا الكبير بن المختار التندغي، ألف كتاباً في أحوال القبائل الموجودة في بلاد شنقيط، وأنه ذكر عن قبيلتهم بأنهم من ذرية - محمد بن الحنفية - كما تقدمت الاشارة الى ذلك في شرح نسبه، ومن هذا يفهم أنه اغتنم فرصة الحج للاجتماع بالشناقطة من أهل بلده، ليتسقط أخبارهم، ويتعرف على أحوالهم، وأحوال أهله، وعشيرته في تلك المعامع الحربية الدائرة في كل مكان من الوطن العربي. وعلى كل حال فإن الفرج قد أتاه بإعلان نبأ الهدنة في ٢٦/ محرم/ ١٣٣٧ هـ (١/ تشرين الثاني/ ١٩١٨ م) حيث استبشر الناس بزوال كابوس

الحرب، وحيث كانت قد طويت صفحة العثمانيين من تاريخ العراق[1].

٣٥ - عودته إلى الكويت:

يبدو أن الشنقيطي لم يطل به المقام في الحجاز على الحالة التي وصفناها من الحرب الدائرة بين قوات الملك حسين والجيوش العثمانية، وربما لاحظ شيئاً من الخلاف بين الملك حسين والملك عبد العزيز السعود الأمر الذي أدى بعد ذلك الى نشوب الحرب بينهما، ففضل العودة الى عنيزة عله يجد طريقاً لعودته الى الكويت ليجتمع بأهله وعائلته الذين خلفهم طيلة هذه المدة وهو لا يعلم ما حل بهم من بعده. وفي وصف هذه الفترة قال تلميذه الشيخ ناصر الأحمد في تتمة ترجمته:

« فلما يئس الشيخ من الانتصار توجه الى المملكة السعودية وحج في تلك السنة ١٣٣٣ هـ وبعده رجع الى عنيزة وبقي أكثر من سنتين يعظ ويدرس، ومن تلامذته هناك الشيخ عبد الرحمن السعدي، ثم حصل ما اضطره الى مغادرة عنيزة، فيمم جهة الكويت، وكان قد توفي الشيخ مبارك »[2].

كان بقاء الشنقيطي في عنيزة طيلة هذه المدة اضطرارياً لشعوره بعدم الارتياح بسبب فراق عائلته الذين تركهم بلا معيل في الكويت من جهة، وللأسباب المتقدمة الذكر لفرض ما يشبه الحظر على تحركاته وأقواله ولعدم وجود مجال له للاشتراك في الرأي والتدبير في تلك الخلافات المحتدمة أثناء ذلك الصراع الدائر في الجزيرة العربية خاصة والبلاد

---

(١) العراق بين احتلالين ج ٨ ص ٣٠٩.

(٢) ولكن حجه بمعية الشيخ أحمد الجابر لم يكن إلا في سنة ١٣٣٦هـ - كما تقدم «راجع الصفحة ١٥١ ».

العربية عامة، لذلك فقد بقي بعد اعلان الهدنة يتحسس الأخبار لإيجاد طريق له للخروج من القصيم الى الكويت، أو العراق للعودة الى أهله، وأخيراً استطاع أن يجد قافلة تزمع الذهاب الى الكويت، فلم يجد أنسب من أن يلتحق بها، يوم لم تكن من وسائط للنقل عبر الصحراء غير القوافل، ومراكب الجمال، وأخيراً تم له الوصول الى الكويت في شعبان من سنة ١٣٣٧ هـ[١]. وبالطبع فقد خف للقاء أهله وأولاده وكله شوق وحنين الى الالتقاء بهم ومعرفة أخبارهم طيلة هذه المدة المتأزمة بالفراق الطويل والأحداث الشديدة المضطربة، وليقص عليهم ما جرى له أثناء ذلك، وما ان استقر به المقام في الكويت، حتى عاودته ذكرى خروجه من هذا البلد مكرهاً مهدداً، ولكنه استيقن في نفسه أن كل شيء قد تغير. فقد توفي مبارك الصباح الذي ألجأه الى مغادرة البلد، وقد وضعت الحرب أوزارها، وحط عن الناس ما كانوا يتوجسونه من خوف وتهديد باعلان الهدنة، وما عليه الآن إلا أن يذهب لأمير الكويت الشيخ سالم بن مبارك الصباح الذي سمع الكثير عن تقاه، وورعه، وحلمه، وتكريمه لرجال الدين، وقد تولى الحكم بعد وفاة أخيه جابر الثاني في ربيع الأول من سنة ١٣٣٥ هـ. وقد أيقن الشنقيطي تجاه ذلك كله بأن لا ضير عليه من العودة الى الكويت، وأن الشيخ سالماً سيرحب به ويكرم مثواه، وربما اعتذر له عما أصابه من أذى وجفاء أيام حكم والده بسبب ظروف الحرب الشاذة، فاستصحب معه أحد أصدقائه من وجهاء الكويت، وأدبائها الفضلاء وهو مرزوق الداوود من آل بدر للسلام على الشيخ سالم، وإعلامه بوصوله ويهنئه بتسنّم كرسي الامارة، وفي

---

(١) تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد ص ٢٠٤.

نفسه أن يعرض خدماته الدينية للنهوض بالكويت في مجال الدين والفكر والتوجيه المستقيم. غير أنه لقي ما لم يكن بالحسبان، من الجفاء، والغلظة، والتقريع، والتبكيت، الأمر الذي أدهشه، وأدهش صاحبه مرزوقاً الداوود الذي لم يسلم هو الآخر من اللوم والزجر والتعنيف، مما لم يخطر على بال أي أحد من الرجلين إلا أن يكون ذلك بسبب حقد دفين، وعداء مستبطن شديد، ولندع مؤرخ الكويت الأول الشيخ عبد العزيز الرشيد يتحدث عن هذه المقابلة الجافة، بما عرف به من صدق، وصراحة، وتحليل، وحرية في الوصف والتعبير فيقول تحت عنوان:

٣٦ - سالم والشنقيطي:

«علمت ما حدث للأستاذ الفاضل «الشنقيطي» في ترجمة مبارك، وقد انتهى به الأمر أخيراً الى الاقامة في عنيزة من بلاد القصيم، إلى أن وقعت الهدنة، ثم سافر الى الكويت بعد حثٍّ من أصحابه، وقد وصلها في شعبان/ سنة ١٣٣٧ هـ وكان الحاكم إذ ذاك الشيخ سالم، فذهب والأديب الفاضل مرزوق الداوود من آل بدر للسلام عليه في الشعب، ولكن الشيخ سالم فاجأهما هناك بتحقير لم يكن لهما في حساب. كان خارج القصر، فبادر بالقيام الى داخله عندما أبصرهما مقبلين، وقد تشاءم الاثنان مما وقع، وشعرا من سالم بتغيير وآنفعال، ولكنهما استسلما للقضاء، وسلَّما الأمر الى بارئه، وجلسا ينتظرانه على أحر من الجمر، وبعد هنيهة ظهر، ولكن بوجه عبوس، وأسارير مقطبة، وعينين يطير منهما الشرر، وكان رده السلام عليهما ضعيفاً جداً، ثم جرى بينه وبين الأستاذ ما يأتي:

سالم: من أين جئت؟ ومن أرسل عليك وأحاطك بحمايته؟

الأستاذ: جئت من القصيم، ولم يرسل علي أحد، وليس أمامي عدو حتى آخذ لي منه أماناً.

سالم: أيسوغ لك أن تجيء الى بلدي وأنا الحاكم فيها ولا تنبئني بذلك؟ فكأنك بعملك تقول: إن الذي يخشى منه «وهو مبارك» قد مات، ولم يخلف بعده من حقه أن يخاف منه ويحذر.

الأستاذ: أنا لم أخرج إلا خوفاً من الحكومة الانكليزية، لا من مبارك.

سالم: الحكومة الانكليزية موجودة الآن، فكيف إذاً أتيت؟

الأستاذ: جئت بعد أن حصلت الهدنة التي تخول كل شخص الرجوع إلى وطنه، ولو كان سياسياً.

وهنا أراد الفاضل مرزوق الداوود البدر الكلام، فبادره سالم بقوله:

-: ماذا تريد أن تقول؟ أنا أعرف أنكم الذين جهزتم الرجل «الأستاذ» في سفينة الى كاظمة أيام أبي، وأنتم الذين حرضتموه على الفرار، فأنا الآن لا أسأل عنه أحداً غيركم، وأنتم المطالبون به، دون سواكم.

ثم أمر أحد خدامه بالذهاب الى بعض مقربيه لابلاغ قنصل انكلترا في الكويت بمجيء الأستاذ، وان ذلك من نفسه، ثم أمرهما بمغادرة المجلس، وهو على نهاية من الغيظ، والحنق، فقاما يتعثران بأذيال القلق، والاضطراب.

وفي اليوم الثاني، أرسل سالم الى الأستاذ، بعد أن جاء الى الكويت، فقال مخاطباً إياه:

- إني أحترم العلم وأهله ولولا ذلك لعاقبتك عقاباً شديداً تكون فيه عبرة لمن بعدك، ولكني سأغض النظر عن معاقبتك الآن، غير أني لا أطيق بقاءك في بلدي، وعليك أن تغادرها بعد ثلاثة أيام، وإذا ما ذكرت لي بعدها في أي محل فسأحرقه عليك، وعلى من معك.

فقال الأستاذ: البلد بلدك، ولا يمكنني البقاء فيها إلا بإذن منك، وبرضاك، غير أني أرجوك تأجيل ذلك الى رجوع القافلة التي جئت معها.

ولما لم يجد منه الا تشدداً وتصلباً، اضطر الى السفر الى الزبير، ونزل هناك في ضيافة الشيخ ابراهيم بن عبد الله آل ابراهيم، شيخ الزبير »[1].

أما قنصل انكلترا في الكويت، فقال عندما أبلغ بمجيء الشنقيطي[2]:

---

(١) تاريخ الكويت - الطبعة الثانية - ص ٢٠٠ وما يليها.

(٢) قد لا نستطيع ان نعين بالضبط اسم القنصل البريطاني في الكويت في تلك الفترة، لسرعة تقلب الاحداث، وللاختلاف الواقع بين تاريخ الاحداث مرة بالتاريخ الهجري، وأخرى بالميلادي، بالنسبة لاختلاف رغبة المؤلفين، إذ ربما كان الكابتن - مور - الذي كان قنصلاً في الكويت لبريطانية حتى وفاة الشيخ سالم المبارك، وحضر استقبال الامير أحمد عند عودته الى الكويت سنة ١٣٣٩ هـ، كما في تاريخ الكويت ص ٢٣٤، أو لعله الكولونيل - هاملتون - الذي كان في تلك الفترة الوكيل البريطاني السياسي في الكويت، والذي استدعي من قبل - السر برسي كوكس - المندوب السامي البريطاني في بغداد، ليرأس البعثة البريطانية الى الرياض للتباحث مع عبد العزيز السعود سلطان نجد بعد توقيع معاهدة العجير في=

« إن هذا الرجل، أولاً ليس بمقيد في دفتر من تحاذر الحكومة منهم. وثانياً: إنه أقام هذه المدة في نجد، وهي بلاد مسالمة لنا. وثالثاً: إنه لم يأت بشيء مخل بالسياسة أثناء إقامته هناك. ورابعاً: إن الوقت الآن وقت هدنة، فهو ولو كان تركياً، أو من الأعداء، لما كان لنا عليه من حق. وغاية ما يمكنني أن أعمله معه، لو تعود الحرب، كما كانت، أن أرجعه الى المكان الذي جاء منه. بقي النظر فيه لك وحدك، فاعمل ما تراه يوافقك ».

إلا أن سالماً لم يكتف بالمعاملة الفظة القاسية التي استعملها مع الشنقيطي، ولا بإخراجه من الكويت بالعنف والتهديد[1]، بل راح يتابعه حتى بعد سفره الى الزبير، فإنه أرسل الى حاكم البصرة في حكومة الاحتلال البريطاني يخبره بأن الشنقيطي من أهل الحركات، وممن يثيرون الرأي العام على حكومة بريطانية باسم الدين، فسأل الحاكم السياسي في البصرة[2] الشيخ ابراهيم عن الشنقيطي هل هو في الزبير؟ فقال: نعم.

= كانون الاول ١٩١٧م بقضايا تهم المنطقة كعلاقته بالشريف حسين وابن رشيد وإمارة الكويت، وبحث القضايا السياسية المتعلقة بذلك. وقد استطاع فلبي أن ينحي هاملتون عن رئاسة هذه البعثة، ليرأسها هو، وكانت تلك أول علاقته بالجزيرة العربية، ثم اعتناقه الاسلام، وعلى أثر ذلك غضب هاملتون وعاد الى الكويت: « عبد الله فلبي ص ٤٨ وما بعدها ».

(١) تاريخ الكويت ص ٢٠٦.

(٢) ولعله الكابتن مور الذي قال عنه سليمان فيضي في كتابه - غمرة النضال - ص ٢٠٨- إنه كان قبل عهد الاحتلال قنصلاً لبريطانية في الكويت والذي صار بعدئذ مديراً للاستخبارات العسكرية في البصرة، ولا بد أن تكون للشيخ سالم معرفة سابقة به، أو ربما كان الكابتن لورنس الذي أراد لسليمان فيضي بتاريخ ١٧/ ابريل ١٩١٦م الاشتغال في الثورة العربية في البصرة وأغراه بالمال ولكنه اعتذر - كما قال - ولورنس هذا هو الذي قال عنه فلبي بأنه كان يواصل إعداد خططه - =

قال: أين نزل؟ قال: في ضيافتنا. قال: سمعت أنه من مثيري الشغب، ومن المهيجين. فنفى الشيخ ابراهيم عنه ذلك، وقال: إنه كان قد قام مع الأتراك في أول الحرب ظناً منه أنها حرب دينية، وأن كثيرين مثله كانوا على هذا الاعتقاد، ولكن بعد أن تبين له أن الحرب سياسية، وليست دينية، ترك القتال، وفرّ بوجهه الى نجد وأقام فيها الى وقت الهدنة، وأما خروجه الأخير من الكويت، فليس هو لسبب سياسي، وإنما لمنافسات بينه وبين بعض طلبة العلم فقط. فاقتنع الحاكم البريطاني بما سمع.

ثم يأتي مؤلف تاريخ الكويت - وهو يعجب من استبطان سالم كل هذا الحقد للشنقيطي - ويحاول تحليل أسبابه فيقول[1]:

«إن هذه الحادثة من سالم - وهو الرجل الصالح، التقي - لمحزنة جداً، بل لنراها من أعظم سيئاته، سيا والأستاذ لم يأت بما يستحق عليه هذا العقاب الفظيع، لنعذره في ما فعل. نعم إن سالماً توهم أموراً جسمها له تخوفه، ولو فرضنا أنها صحيحة، فلا تبرر ما عمل، إذ ليس مثل الاستاذ من يستحق الطرد والنفي، وهو العالم الفذ، والمحقق البحاثة، والتقي الورع».

وبعد هذه التوطئة يعمد لذكر الأسباب التي حدت بسالم لاتخاذ مثل هذا الموقف العدائي الصارم تجاه الشنقيطي، فيقول:

= دون اكتراث بالسياسة البريطانية المعلنة، وبوعود بريطانية للعرب - لتكون بلاد ما بين النهرين نواة لمنطقة جديدة تضم الى ربوع الامبراطورية البريطانية، وكان فلبي يعارضه في ذلك وإلى جانبه المس بيل: «عبد الله فلبي - ترجمة خيري حماد ص٤٩».

(١) تاريخ الكويت ص ٢٠٦ أيضاً.

«أولاً»: توهمه أن يكون بين الأستاذ، وبين الأمير الجليل - الشيـخ أحمد آل جابر[1] - تواطؤ، واتفاق، عقد في السنة التي حج فيها الأمير، واصطحب معه الشنقيطي من عنيزة الى مكة المكرمة، ولم يكن هذا الظن في محله، إذ لا تواطؤ ولا اتفاق!

---

(١) الشيخ أحمد: هو ابن جابر الثاني بن مبارك، وهو الحاكم العاشر في إمارة الكويت، تولى الحكم بعد وفاة عمه سالم في ١٤/رجب/١٣٣٩هـ، لأنه كان ولياً للعهد وقد أثنى عليه مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد ثناءً عاطراً، فوصفه بالحلم والحكمة، والورع والتقى، ووصف عصره بأنه أزهى العصور في الكويت بالعلم والأدب والسياسة والتجارة، حج عام ١٣٣٦هـ، ولقي من الملك الشريف حسين بن علي حفاوة وإكراماً، مستصحباً معه الشيخ الشنقيطي «كما مر ذكره» ثم عاد الى وطنه الكويت، واتخذ من الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف تاريخ الكويت، واعظاً خاصاً في مجلسه العام. وسافر في ذي الحجة سنة ١٣٣٧هـ الى بمبي ومنها الى لندن، فوصلها في صفر سنة ١٣٣٨هـ، وحضر احدى جلسات البرلمان الانكليزي، وعاد الى وطنه في ربيع الثاني من نفس السنة. وفي ٢٩/جمادى الأولى/١٣٣٩هـ، أوفده عمه الشيخ سالم ليسفر بينه وبين الملك عبد العزيز السعود لتصفية ما بين العاهلين من مشاكل كانت قد تعددت، وتفاقمت فمر في طريقه بالبحرين. وحل ضيفاً على الشيخ عيسى آل خليفة، حاكمها الذي بالغ في اكرامه، ولما وصل الاحساء استقبله الامير عبد الله بن جلوي بالحفاوة والاكرام، ثم توجه الى نجد، فاستقبله الملك عبد العزيز ابن سعود، وأكرم مقامه، ثم توصلا الى حل جميع المشاكل، على ان يتكفل الشيخ أحمد عمّه سالماً بالشروط الواردة في الاتفاق. فقدم نفسه كفيلاً عنه بذلك، وحررت الاتفاقية التي كان من أهم بنودها: تثبيت الحدود بين الكويت ونجد، واسدال الستار على ما كان من أحداث سيئة، وعند ازماع الشيخ أحمد العودة الى الكويت، وصل الخبر بوفاة عمه سالم، فاستبشر ابن سعود خيراً، وقال للشيخ أحمد: أما الآن فحيث صار الأمر إليك، فلا حاجة للشروط، ولا للتحفظات فأنا لك سيف مسلول اضرب بي من شئت، وأما حدود الكويت فانها ستمتد الى أسوار الرياض، ولك على هذا عهد الله وميثاقه. ثم أخذ الاتفاقية ومزقها. ونادى المنادي بين الاخوان بأن سوق الكويت ونجد والاحساء واحدة، وحذرهم من الاعتداء على من ينتسب لآل الصباح.

=

«ثانياً»: يرى سالم أن من حقه أن لا يقدم أمثال الأستاذ ممن لهم شخصيات بارزة الى بلده من غير أن يستأذنوه. وهذا إن كان حقاً فليس يوجب ما أجراه مع الأستاذ.

«ثالثاً»: قد التف حول سالم بعض المنتسبين للعلم، ممن كان يرفع علمهم فوق كل علم، وعقيدتهم فوق كل عقيدة، وقد كانوا يتخوفون من مزاحمة الشنقيطي لهم بما له من علم واسع، واطلاع شامل إذا وطئت قدماه الكويت، وما زالوا من أجل هذا التخوف يرمونه عند سالم بفساد العقيدة، ويوحون إليه بأن إبعاده من محيط الكويت أمر واجب، وطاعة من أعظم الطاعات، وهكذا يظل الدجالون يرمون المصلحين، والى هذه الحالة أشار الشاعر سليمان العدساني بقصيدته التي ألقاها مرحباً بمقدم الشيخ الشنقيطي في الكويت - كما سيأتي تفصيل ذلك - والتي يقول فيها:

إن الكويت لبعدكم	كادت لبلواها تميد
فاصفح لماضيها وغض	الطرف عن ذاك البعيد

الى أن يقول:

= ومن مآثر الشيخ أحمد أيضاً: تأسيسه المدرسة الاحمدية سنة ١٣٤٠ هـ، كما أوفد البعثات العلمية الى بغداد والقاهرة، وشكل مجلس الشورى عام ١٩٣٨م ومنح شركة نفط الكويت امتياز التنقيب عن النفط سنة ١٩٣٤، ومنح امتياز مجلة الكويت للشيخ عبد العزيز الرشيد، كما ساعد على اخراج كتابه - تاريخ الكويت - الذي يعد أهم مصدر تاريخي لهذا البلد في تلك الفترة، وفي أيامه زار الشيخ الشنقيطي الكويت فاستقبل بالحفاوة والاكرام وأقيمت له الحفل التكريمية وألقيت له القصائد الترحيبية - كما سيأتي... وقد توفي الشيخ أحمد الجابر - رحمه الله - في أواخر يناير من سنة ١٩٥٠م.

عجـــــــــبي لقوم أغضبوك   أمـــا بهم رجـــل رشيـــد؟
آذوك لمـــــــــا أن دعو   تهم إلى أمر مفيــــــــــد
هـــذي السفاهـــة أغضبـــت   رب الخلائـــق والعبيـــد[1]

وكما يشير في الأبيات الثلاثة الأخيرة الى حادث الاعتداء عليه في الزبير - كما سيأتي تبيانه.

ونحن اذا ناقشنا الأسباب الثلاثة التي ذكر الشيخ عبد العزيز الرشيد فإنا لنراها - كما رآها هو - واهية لا تستحق كل هذه المعاملة القاسية الفظة ولا كل هذا التهديد المشحون بالحقد والكراهية، ولا كل هذا الاستعداء في إثارة القنصلية البريطانية في الكويت ضده، ثم ملاحقته حتى بعد خروجه الى الزبير في استعداء مدير الاستخبارات البريطانية العسكرية في البصرة عليه، حتى كأن له ثأراً عنده، أو حقداً شخصياً عليه. فأما اصطحاب ابن أخيه - الشيخ أحمد الجابر - له لأداء فريضة الحج سنة ١٣٣٦هـ يوم كان الشنقيطي في بلاد القصيم، ثم اجتماعهما بالشريف حسين، فقد لا ينهض ذلك سبباً كافياً لاكتناز هذا الحقد الذي انفجر من أجله صاخباً عندما وقع نظره على الشنقيطي ثم التصريح بعدم استطاعته رؤيته في بلده الكويت، وانه بعد ذلك سيحرق عليه الدار التي يمكن أن يوجد فيها ما لم يغادر الكويت خلال ثلاثة أيام. كما ان الشيخ أحمد بعد الحج عاد الى الكويت، فلو كان يظن به الظنون، أو يرميه بالتآمر عليه لما اعتمده بعد ذلك ليسفر بينه وبين عبد العزيز السعود سنة ١٣٣٩هـ - وهي السنة التي توفي فيها كما تقدم - لحل الخلاف والمشاكل المعلقة بين الطرفين - كما سبق ذكره - وكان

---

(١) تاريخ الكويت ص ٢٠٤-٢٠٧.

ذلك بعد مجيء الشنقيطي وإخراجه إياه من الكويت بسنتين تقريباً، إلا إذا كان يعتقد بأن عبد العزيز السعود قد اتخذ من الشنقيطي داعية له لجلب الشيخ أحمد الى جانبه واستمالته نحوه ضد الشيخ سالم وقد يكون لهذا الزعم ما يبرره في تلك الظروف المشحونة بالمفاجآت، وسوء الظن لو كان خاطئاً - لأن إساءة الظن قد تبتنى عليها أحياناً أحكام قاسية خاطئة، ويفسر ذلك ما رواه مؤرخ الكويت عند بسطه لسيرة الشيخ أحمد الجابر مستعرضاً صلته الوثيقة بسلطان نجد عبد العزيز السعود، ولأجل ان نعطي صورة حقيقية لهذه الصلة وما يمكن أن يترتب عليها من توجس الشيخ سالم الخيفة منها رغم عدم إظهاره ذلك، فإنا ننقل ما قاله مؤرخ الكويت في هذا الصدد حيث قال:

«زار عظمة سلطان نجد الكويت أيام الشيخ جابر آل الصباح سنة ١٣٣٥ هـ فأحس من الشيخ سالم بضعف، علم منه أن لا بد من حدوث انقلاب بينهما إذا ما أفضى الأمر اليه، وأنه إذ ذاك سيظهر له ما يكنه ضميره، ويندفع في تياره، وقد أسرَّ السلطان هذا في نفسه، ولم يبده إلا لسمو الأمير الجليل (أي ابن أخيه الشيخ أحمد الجابر) وتعاهد هو وإياه على الاخاء والصفاء، وكان الأمر كما تعاهدوا عليه[1] إلى هذا اليوم، فهما على جانب عظيم من الولاء، والرسائل الودية تتبادل بينهما مطرزة بأرق عبارة، وألطف إشارة، وعلى صفحاتها ينشر كل منهما ما في قلبه لصاحبه من الصدق والاخلاص، وقد يكون أميرنا المعظم أحرص الاثنين على أن يكون عمله مصدقاً لما ينطق به.

«نعم وهذا أمر ظاهر لا يخفى، فإنه - حفظه الله - قام بمساعدات

---

(١) هكذا في الاصل، ولعله أراد أن يقول: - كما تعاهدا عليه -.

جسيمة للسلطان، وأمده باعانات هو في أشد الحاجة إليها »[1].

ويتبين من هذا بأن ثمة انسجاما ودياً، وصداقة متينة بين عبد العزيز السعود وأحمد الجابر، وأساس هذه الصداقة الجفاء الذي لحظه عبد العزيز السعود على سالم المبارك أيام إمارة أخيه جابر، وافضائه بامتعاضه من هذا الجفاء لأحمد الجابر مما تسبب عنه انعقاد أواصر الصداقة المتينة بينهما. أفليس هذا يدل على اتفاق رأييهما في نقد سياسة سالم وقلة كياسته في إكرام ضيفه؟ ثم ما سبب تطور هذه الصداقة باستمرار الرسائل الودية بينهما، وإلى إفضاء كل منهما للآخر بمكنونات قلبه؟. ألا يستنتج منه أن هذا كان بسبب انتقاد سياسة سالم، والاتفاق ضمناً على مناهضته؟ وإذا كان الأمر هكذا شائعاً معروفاً حتى اطلع عليه مؤلف تاريخ الكويت، فهلا يعتقد بأن سالماً كان يعرف هذا أيضاً؟ حتى أنه لما أرسل ابن أخيه الأمير أحمد على رأس وفد للتفاوض والتخفيف من حدة التوتر بينه وبين سلطان نجد عبد العزيز السعود، كان يعلم ما لابن أخيه من دالة عليه بسبب هذه الصداقة والتي كانت قائمة على أشدها بين الاثنين حتى بعد حرب الجهرة، وهجوم فيصل الدويش القائد السعودي عليها في ٢٦/المحرم/سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١٠/اكتوبر – تشرين الأول/١٩٢٠م، وما جر ذلك على الكويت من مصائب ومصاعب. يوم حاصروا القصر المعروف بالقصر الأحمر بالجهرة، وسالم فيه، ولمدة ثلاثة أيام، وكاد جميع من فيه أن يهلكوا من الجوع والعطش، وقد قتل وجرح مئات من الفريقين، كما كانت غارات الاخوان الوهابيين تترى على الكويت منذ سنة ١٣٣٨هـ (أي في عهد

---

(١) تاريخ الكويت ص ٢٣٨.

سالم بالذات حيث تولى إمارة الكويت بعد وفاة أخيه جابر في ربيع الأول/من سنة ١٣٣٥ هـ)[١] الأمر الذي اضطُر فيه الكويتيون الى بناء السور حول مدينتهم في رمضان من السنة نفسها. ولم ينقذهم من هذه الغارات إلا انذار الميجر (جي.سي. مور) الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بتاريخ ٧/صفر/١٣٣٩هـ، والذي هدد الوهابيين بموجبه باستعمال القوة ضدهم، إذا لم يكفوا عن هذه الحملات وجاء فيه أن بريطانية مستعدة للدفاع عن الكويت، وأعقب ذلك أن ألقت المدمرتان: سبيكل و لورنس مراسيهما في مياه الكويت[٢].

وربما كان عبد العزيز السعود ينوي احتلال الكويت، ما لم يستجيبوا للشروط القاسية التي عرضت عليهم، والتي منها:

(١) ترك الدخان.
(٢) تكفير الأتراك.
(٣) اعتناق المذهب الوهابي[٣].

وقد أكد هذه النية في احتلال الكويت، ما جاء في كتاب - عبد الله فلبي - نصاً:

«وقد يكون من العسير الشاق تفسير سبب الكراهية المتبادلة التي قامت بين سالم وابن سعود، وإن كان فلبي يعزوها الى حادث نزاع، أو خلاف وقع بينهما منذ أمد بعيد، لعله يعود الى عهد الصبا، أيام ضيافة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٩.

الأسرة السعودية في الكويت، لكن هذه الكراهية سببت لبريطانيا الكثير من الازعاج والقلق، ولا سيا في سنوات الحرب وما تلتها، والتي كان من المتعذر علاجها أو شفاؤها، وقد اقترح فلبي على حكومته الخلاص من هذه المشكلة المعقدة بضم الكويت الى ممتلكات ابن السعود، مدافعاً عن نظريته بأنها ميناء طبيعي لداخل الجزيرة، ولكن الحكومة البريطانية رفضت الأخذ بهذه النصيحة لأسباب عرفت في ما بعد عند تدفق البترول غزيراً من رمال الكويت، وأصرت على وجوب احترام ابن السعود لسيادة الكويت وحدودها التي تعهدت بريطانيا بحمايتها »[1] .

كما يؤكد هذه الرغبة أيضاً ما كان من خلافات حادة اصطبغت بالنزاع المسلح في عهد مبارك الصباح، والذي صرح به عبد العزيز الرشيد عند ذكره للأسباب التي أدت الى النزاع بين ابن سعود وسالم حيث قال:

«رابعا : المراوغات التي أجراها ابن سعود مع مبارك، والاعتداءات التي وجهها إليه أيام حياته، وما يؤذي الأصل يؤذي الفرع..» والى أن قال: «نعم: إذ الحقيقة الناصعة التي لا غبار عليها، أن ليس للحرب التي صارت إلا سبب واحد خفي لا غير، وإن تعددت الأسباب الظاهرة، وتناقلتها ألسنة الناس، ذلك أن الاستيلاء على الكويت كان هو هم ابن سعود الوحيد، وشغله الذي أقلق راحته وأزعج باله، لعلمه أن نجداً بدون الكويت لا تساوي قلامة ظفر... فجاءت أيام سالم التي رآها من أحسن الأيام لتنفيذ خطته وقضائه من الكويت ما

(١) عبد الله فلبي - ترجمة خيري حماد - ص ٥٦ .

يريد ، علماً منه أن صاحبنا ليس أهلاً للثبات أمام دهائه ومعرفته ، وأمام حنكته وتجاربه »[1].

وربما تكون هذه هي الحقيقة ، والسبب الوحيد للتحرش بالكويت ، واتخاذ عبد الله فلبي نصيراً لهذه الفكرة عند بريطانيا ، ولكن أطماع الأخيرة في نفط الكويت حالت دون ذلك ، وأكثر من هذا فان الحصار المضروب على الكويت من قبل بريطانيا في عهد سالم وذلك في سنة ١٣٣٦هـ كان باشارة من عبد العزيز السعود. ولندع - فلبي - يتحدث عن هذه النقطة بالذات ، وذلك أثناء إيفاده على رأس البعثة الدبلوماسية ، للتحدث مع ابن السعود في مشاكل المنطقة - كما تقدمت الاشارة الى ذلك - فقال:

« وتناول البحث فيه قضية علاقات ابن السعود بالكويت ، والحصار الذي فرضته بريطانيا لمنع تسرب المواد والسلع من الكويت ووصولها الى الأتراك ، فطلب « هاملتون » من ابن سعود تعاونه في توثيق الحصار. فرَدَّ هذا بقوله: إنه على الرغم من وعده بالمساعدة لا يسعه إلا أن يجهر برأيه في أن الشيخ سالم الصباح حاكم الكويت ، هو الذي يساعد حركات التهريب الى الأتراك ، نظراً لتفاهمه السري معهم ، وإن من الخير لبريطانيا أن توقف التهريب من منابعه في الكويت ، بدلاً من أن تطلب الى ابن السعود تضييق الخناق على المهربين بعد أن ينفذوا الى الصحراء الشاسعة »[2].

وإذا كانت هذه نوايا ومطامع ابن السعود في الكويت - آنذاك -

---

(١) تاريخ الكويت ص ٢٠٩ .

(٢) عبد الله فلبي ص ٥٥ .

وسالم يدركها ، ولكنه يرى الصداقة متينة والرسائل تترى بين ابن أخيه وولي عهده الأمير أحمد ، وبين عدوه المتربص للوقيعة به على الصفة التي ذكرناها ، وكما وصفها مؤرخ الكويت ، أفلا يحق له أن يشك في ولائه ، أو سوء الظن به؟. فمجيء الشنقيطي الى الكويت - وهو مدار بحثنا - في تلك الظروف الغامضة، المشحونة بالريبة، وبالحروب الدولية، والمحلية، ومن بلد يظن بحاكمه الظنون ، وحجه مع ابن أخيه الذي عرج في سفره على عنيزة ، واجتمع بخصمه عبد العزيز السعود ، وقد لا يخلو الاجتماع من استعراض لسيرة سالم ، وما يفترضه هو من نقد لسياسته ، كما يغلب ذلك على الظن ، وفي استصحاب الشنقيطي للأمير أحمد لأداء مناسك الحج دليل على توافق الآراء ، وحسن الموالاة ، سيما وفي نفس الشنقيطي شيء من المؤاخذة على تعنيف مبارك له وإخراجه من الكويت بالصفة السالفة الذكر . ولهذا فقد خامر الشك سالما في ان مجيء الشنقيطي المفاجيء ومن غير علمه ولا استئذانه كان نذير شؤم ، وربما كان تمهيداً لاثارة الشعب الكويتي عليه - حسب ظنه - وبمساندة عبد العزيز السعود ورضى ابن أخيه ، ولذا فإنه ازداد تطيراً عندما أخبره بأنه قادم تواً من القصيم. سيما وان للشنقيطي سابقة في إثارة الشعب الكويتي على والده واستجابتهم له ، وقد يصوّر الوهم لحاكم مثل « سالم » في مكنة تجاربه وضعف دهائه كما وصفه مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد ، قد يصور له الوهم المخاوف من كل من يرتاب فيه من أشخاص ، أو أحداث ، سيما اذا أكد له ذلك من يحذره من الشنقيطي من بعض رجال الدين الحاسدين الطامعين ، ولا بد أنه سيخلق المتاعب ، ويثير عليه شعبه كما فعل زمن والده ، هكذا تصور سالم الشنقيطي ولذا هدده باحراق الدار التي تؤويه إما بقي في الكويت بعد

ثلاثة أيام ولم يمهله حتى الى حين عودة القافلة التي جاءت به، ولم يكتف بذلك بل ظل يلاحقه الى البصرة مستعدياً عليه السلطات البريطانية العسكرية هناك بعد أن فشلت محاولاته في الكويت لتسليمه اليها لتفعل به ما تشاء لزعمه بأنه مرسل من عدو يتربص به الدوائر، ويتحين الفرص للايقاع به وإقصائه عن كرسي الحكم في الكويت.

أما الشنقيطي المسكين والحالة هذه فينطبق عليه قول الشاعر:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

أجل إن سلامة طويته، وحسن ظنه بالناس، وإخلاصه لدينه، وحمله شعار الدعوة الى الاسلام، وتوجيه المسلمين لما فيه خيرهم بصدق وإخلاص، جعله في غفلة عما يحيط به، وما يدور في البلاد العربية خاصة، والاسلامية عامة آنذاك من حروب، وحركات، ومؤامرات، ونزاع على السلطة، ونوايا مغلفة بالأطماع، والوصول الى الحكم، والزعامة بشتى الأساليب ومختلف الأسباب تحت شعار - الغاية تبرر الواسطة - فهو قد لا يعلم بما كان يدور في فلك السياسة بين تركيا والحلفاء، ولا بين بريطانيا وفرنسا في معاهدة - سايكس بيكو - على اقتسام البلاد العربية، وقد لا يعرف شيئاً عن وعد بلفور في إعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين، ولا ما بين الشريف حسين وعبد العزيز السعود، ولا ما يحاك من قبل دهاقين السياسة البريطانية حول العراق، والحجاز، ونجد، والكويت، وسوريا، وغير ذلك مما كانت تغلي وتفتعل به الأحداث السياسية والعسكرية. ولذلك فقد لقي الشنقيطي ما لقي من عنت، وتعرض للاهانة، والجفاء، وإخراج من البلاد بالعنف والتهديد، ولا ذنب له غير الثبات على العقيدة، وإخلاص النية لله وحده، ولنسر معه إلى نهاية الشوط.

٣٧ - العودة ثانيةً الى الزبير:

وبعد أن بالغ سالم في تهديد الشنقيطي، وطرده من الكويت على الحالة التي وصفناها، وعدم إمهاله الى انتظار عودة القافلة، فقد توجه الى الزبير في نفس الفترة التي وصل فيها الى الكويت في شعبان من سنة ١٣٣٧هـ الموافق لسنة ١٩١٨م، ولما لم يستطع أن يتدبر اصطحاب عائلته معه الذين تركهم في الكويت، فقد حل ضيفاً في الزبير على الشيخ ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم الراشد شيخ الزبير حينذاك، وتقدم ذكر دفاعه عن الشنقيطي لدى السلطات العسكرية البريطانية في البصرة ضد اتهام الشيخ سالم الصباح له وإغراء هذه السلطات به، ولكن الشيخ ابراهيم دافع عنه دفاع الشهم الكريم عن ضيفه المحتمي بجاه، وهي لا غرو سجايا عربية أصيلة، وأخلاق إسلامية مكينة، وهكذا أخلد الشنقيطي الى الامان والاطمئنان بسبب حسن وفادة هذا الشيخ الكريم المحتد الأصيل النجار[1].

---

(١) كانت مشيخة الزبير في عهد الدولة العثمانية لآل الزهير وكان مديرها من قبل حكومة تركيا آنذاك - صالح آغا طابور آغاسي - والشيخ ابراهيم بن عبد اللطيف الزهير هو شيخ الزبير ومعاونه الشيخ عبد الله بن ابراهيم الراشد والذي كان يدبر سراً أخذ المشيخة لنفسه وخلع آل الزهير منها. وفي سنة ١٣١٤هـ قتل - عبد الله بن أحمد بن بطاح - غدراً فاتهم بذلك عبد الله بن ابراهيم الراشد، فشكاه اهل الزبير الى متسلم البصرة - محمد كاظم آغا - مع ما نسبوا اليه من ظلم واجتراء فعزله وعين بدله - خالد باشا بن عبد اللطيف العون - وظل فيها الى أن قتل غيلة في داخل مدينة البصرة في ٢٤/ شوال/ ١٣١٥هـ فأعيدت المشيخة الى آل ابراهيم من آل راشد، وصار الشيخ ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم الراشد شيخا للزبير وبقي الى زمن الاحتلال البريطاني ثم الى تشكيل الحكومة العراقية سنة ١٣٤٠هـ حيث جعلت الزبير ناحية وعينت لها مديراً غيره. «التحفة النبهانية - تاريخ البصرة - ص١٣٣».

وبعد أن استقر به المقام في الزبير عزم على توطيد الاقامة فيه وفكر في جلب عائلته الذين تركهم - كما أسلفنا - في الكويت وفي هذا المجال تتحدث ابنته السيدة عائشة بأن أباها لما خرج من الكويت في المرتين الأولى والثانية، خرج ناجياً بنفسه ولم يستطع أخذ عائلته معه، لأنه لم يكن يعلم أين يحط رحاله، ولذا فقد أبقاهم في الكويت وهو لا يعلم عن مصيرهم شيئاً مدة ست سنين، وأضافت بأن أهل الكويت الكرام قاموا بواجبهم خير قيام، وأكرموهم غاية الاكرام، ولكنه بعد أن استقر به المقام أخيراً في الزبير أرسل أخاها من الرضاع الى الكويت حيث أتى بهم الى الزبير، وقد اطمأن الشيخ الشنقيطي إلى أهله ولسان حاله يقول:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

٣٨ - استمراره على نشر العلم في الزبير:

لم تكن كل هذه الصعاب التي اعترضت حياة الشنقيطي لتفت في عضده، أو تسلمه لليأس، أو لتحرفه عن خطته في نشر الوعي الديني، ومحاربة البدع، والزيغ، والالحاد. ولم تكن جميع المضايقات، والتعديات التي لقيها، أو التي سيلقاها بسبب منهجه الديني لتحوله عن طريق الاستقامة في عقيدته الصادقة، وخلقه الكريم، وعزيمته الجبارة الراكنة إلى الله وحده متمثلاً بالآية الكريمة: ﴿...وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١). بل بقي صابراً مصابراً، زاهداً في ما يتهالك عليه سواه من المطامع الدنيوية، أو المناصب المغرية في استرضاء الحاكمين، أو التقلب مع الأهواء السياسية محتملاً كل ما أصابه من حيف وضرر،

(١) سورة آل عمران: من الآية ١٠١.

إرضاءً لله، ولسان حاله يردد قول أبي الطيب المتنبي:

أطاعن خيـلاً من فوارسها الدهر وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر

وهو يقول: ﴿ ...كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[1].

وهكذا استعاد الشنقيطي نشاطه، واستأنف كفاحه في بث رسالته، وذلك بعد أن انقطع أهل الشغب عن مطاردته وتقطعت بهم الأسباب، بعد ان يئسوا من النيل منه. فقد استأنف في الزبير مجالس الوعظ والارشاد والتدريس في المساجد، وهو أشد ما يكون عزيمة، وأصلب ما يكون عوداً، وأقوى ما يكون أثراً، وكعادته راح يفضح أساليب الضالعين في ركاب الاستعمار المغترّين بأباطيل السياسة والسياسيين، مؤكداً على صلابة ووحدة العقيدة الاسلامية التي وحدت من قبل شمل العرب والمسلمين، وجمعت كلمتهم على الخير والهدى، وجعلت منهم سادة العالم، وقادة الحضارة في الدنيا.

وسرعان ما هرع لمجالس وعظه مئات بل آلاف الناس المفتقرين الى هذه المثل العليا، والأهداف السامية، وانتظم الطلاب في حلقات درسه، يكتبون ويحفظون، ويسألون ويناقشون، فمالت إليه القلوب، واشربت النفوس بحبه واحترامه وأصغت الأفئدة الى نهجه في نشر رسالة الاسلام الصحيح. فأحدث ذلك خلال فترة قصيرة من الزمن وعياً إسلامياً وعلمياً متفتحاً على آفاق نهضة فكرية راسخة العقيدة، خالية من الشوائب والضلالات، فذاع اسمه، واشتهر صيته، ولهجت الألسن بالثناء عليه، والاعجاب به، فقصده الناس من جميع الطبقات، مهتدين بمواعظه، مغترفين من بحر علمه متزودين من زاد تقاه. قصده التجار،

(١) سورة الشعراء: من الآية ٦٢.

وأصحاب الحرف، والشباب من طلاب العلم، وصار الجميع له عوناً في نشر رسالته، ولما آنس منهم رشداً أراد أن يسير بهم الى مدى أبلغ أثراً، وأوسع نفعاً في نشر العلم، والجد في طلبه على مدى الأزمان، ومسيرة الأجيال، فراح يحثهم على تكريس جهودهم لبناء دور العلم والثقافة، وذلك ببناء المدارس، والقيام على الانفاق عليها، لتكون منهلاً دائماً للعلم، ونبراساً للفكر، ليتم لهم ولأولادهم من بعدهم الحفاظ على دينهم، واستعادة أمجادهم، وبناء صرح حضارتهم بعد أن عفى عليها الزمان، وليعيدوا للبصرة شيئاً من سالف مجدها، وغابر حضارتها، وكان من أجل ذلك ان اختص بذوي الرأي والعزيمة من أهل الزبير أن يحزموا أمرهم، ويتدارسوا فكرة تأسيس مدرسة أهلية ذات رسالة دينية قويمة، ونظام يتمشى مع مصالح طلابها في مستقبل حياتهم، وتحقيق معاشهم بالأساليب العلمية، والعملية الكريمة فهب الجميع لتحقيق هذا الهدف المثالي السامي، متبعين الخطوات النظامية المطلوبة.

٣٩ - تأسيس جمعية ومدرسة النجاة:

بذلت المساعي المحمودة، والجهود المتواصلة لتحقيق فكرة إنشاء مدرسة تكون نواة لتحقيق نهضة علمية، مبنية على أسس قوية قويمة في نشر الاسلام الصحيح، والتوفر على أسباب ذلك بترسيخ كل ما من شأنه أن يجعل الطالب متيناً في إيمانه، مستنيراً في أفكاره، لا تزعزعه الأهواء، ولا تعصف به شواذ الآراء. ولما كان طلب افتتاح مدرسة من هذا النوع لا يتأتى الا بالطلب الى الوزارة المختصة من قبل جمعية ذات نظام مصرح به بجواز ذلك. ولذا فقد انتظم جماعة من الزبيريين الحريصين على تحقيق هذا الهدف النبيل، وقدموا طلباً الى وزارة

الداخلية العراقية سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) للاذن بتأسيس جمعية أهلية باسم - جمعية النجاة - وكأنهم أرادوا بهذه التسمية أن تكون جمعيتهم تتوخى النجاة بأعمق معاني هذه الكلمة، وما أحرى، وأولى أن يكون العلم نجاة من كل شرٍ، وهداية للنهج المستقيم. تقدم هؤلاء النفر الصالح بأسمائهم، ونظام جمعيتهم الذي يخولون بموجبه حق تأسيس المدارس الدينية والعلمية، ونشر الوعي الديني والعلمي بالوعظ والارشاد، والتدريب. وكان من أول المنتمين، والمؤسسين لهذه الجمعية الذوات المدرجة أسماؤهم كما يلي:

(١) الشيخ محمد أمين الشنقيطي (صاحب الترجمة).

(٢) السيد عبد الوهاب الطباطبائي[1].

(٣) الشيخ محمد العوجان.

(٤) الشيخ محمد السند.

(٥) الحاج محمد العقيل.

(٦) الحاج ابراهيم العبد الله البسام.

---

(١) جاء في تاريخ الكويت تحت عنوان «أبناء القتيلين يغادرون الكويت» ما يلي: «وكان في معيتهم بعد مغادرة الكويت رجلان فاضلان الاديب المفضال السيد عبد الوهاب الطباطبائي مدير ناحية الزبير اليوم وهو من أهل الفضل والغيرة ومن أهل الذكاء والنشاط والهمة والاباء» ص ١٢١. ويريد بأبناء القتيلين ابناء أخوي مبارك الصباح الذين قتل أبويهم (أخويه محمداً وجراحاً في ذي القعدة من سنة ١٣١٣ هـ). المصدر نفسه ص ١١٩.

وقال سليمان فيضي في كتابه - غمرة النضال تحت عنوان صحف البصرة - قوله: «في آذار ١٩١٢ م صدرت جريدة الدستور لصاحبها السيد عبد الوهاب الطباطبائي فلما أغلقتها الحكومة صدرت (صدى الدستور) عوضاً عنها ودامت الى احتلال البصرة في كانون الأول ١٩١٤ م. ص٨١.

(٧) الحاج عبد المحسن المهيدب.
(٨) داود البريكان.
(٩) الشيخ محمد العسافي.
(١٠) سليمان السويدان.
(١١) ناصر الأحمد... وغيرهم.

وبعد أن حصلت هذه الجمعية على الاذن بتشكيلها من وزارة الداخلية العراقية في سنة ١٣٤٢هـ (٢١/اكتوبر (ايلول)/من سنة ١٩٢٢م)، تقدمت بطلب آخر لمنحها الإذن بتأسيس مدرسة ضمن منهجها التأسيسي باسم - مدرسة النجاة الأهلية - فحصلت على الإذن بذلك في ٨/كانون الثاني/من سنة ١٩٢٣م، فجمعت لها التبرعات الكثيرة، وأعان على تأسيسها والانفاق عليها كثير من المحسنين من التجار، والملاك، وكل محبي العلم والمعرفة، كما تكونت لجنة من بين أعضائها من المختصين لوضع المناهج، وتقرير الكتب، واختيار المدرسين، وكانت في أول أمرها تسير على مستوى الدراسة الابتدائية في الدروس المقررة في مناهج وزارة المعارف، لينفتح المجال لخريجيها في هذه الدراسة لقبولهم في المدارس الحكومية الرسمية بحسب مستواهم. أما في الدروس العربية والدينية، فكانت على مستوى خاص، أعلى من هذا بكثير، ثم ما زالت تتقدم بتوسيع دراساتها في العلوم الدينية، والعربية، مع المحافظة على مستوياتها الدراسية المطابقة لمناهج وزارة المعارف، وربما كانت تفوقها في دروس الرياضيات والتاريخ الاسلامي، فكان طلابها يقبلون في المدارس المتوسطة لتفوقهم على زملائهم من خريجي المدارس الابتدائية الرسمية، وقد لا نغالي إذا قلنا ان مستوى طلاب مدرسة النجاة بلغ في العلوم الدينية والعربية والأدبية مستوى طلاب الكليات

المختصة بهذه الدراسة، وكان يراد لها أن تكون نواة مدرسة فكرية ثقافية تسد الفراغ في هذا البلد العريق بتاريخه وأمجاده وحضارته، البلد الذي استوعب مسجد البصرة،وسوق المربد، وكل مصادر الاشعاع في العلم، والأدب، والتأليف، والبحث والمناظرة. كما كان يؤمل لهذا القبس أن يفيض نوراً وهاجاً على المنطقة كلها بفضل هذا الجهبذ الرائد، والعيلم الألمعي المخلص - الشيخ محمد أمين الشنقيطي - الذي نذر نفسه لله وللعلم وللخير، متجرداً عن كل غاية دنيوية، وكل نفع مادي رخيص، محتملاً في سبيل ذلك، الفاقة، والوحدة، والغربة، والأذى.

وبعد أن توفي مؤسسها سنة ١٣٥١ هـ(١٩٣٢ م)، خلفه الشيخ ناصر الأحمد أحد أعضاء الهيئة التأسيسية، ومن المخلصين لهذه الفكرة. وبلغ عدد طلاب هذه المدرسة لغاية سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧ م) المسجلين في مدارسها منذ تأسيسها (٤٠٠٠) طالب تقريباً عدا الذين تخرجوا بها والبالغ عددهم (١٠٠٠) طالب ويبلغ عدد الطلاب المداومين في مدارسها لغاية التاريخ أعلاه (٦٠٠) طالب وعدد معلميها (١٨) معلماً ومنهم من يحمل شهادات جامعية. وتحتوي الآن على مدرسة متوسطة وأخرى ابتدائية، والثالثة روضة للأطفال. وأهم مشكلة تواجه الجمعية المؤسسة: هي عدم وجود مورد مالي ثابت لهذه المدارس تعتمد عليه في تسديد نفقاتها المتزايدة، الأمر الذي يقف حجر عثرة دون التوسع في قبول الطلاب وتطوير هذه المدارس، وقد سلكت الجمعية شتى الطرق للحصول على المال لسد النفقات المقتضبة من إقامة حفلات سنوية لجمع التبرعات، وأخيراً استحصلت على فتاوى دينية لصرف أموال الزكاة من قبل المالكين للنصاب، ويا حبذا لو اتجهت اليها أنظار الموسرين المؤمنين لدفع عجلة

هذه المدارس لمكافحة الجهل، ونشر العلم والفضيلة والدين[١].

وتخرج بهذه المدرسة رواد أفاضل من رجال العلم، والأدب، والدين، والمعرفة، رواد أفذاذ يشار إليهم بغزارة الثقافة وأصالة الفكر، أمثال الدكاترة عبد الله وعبد العزيز وعبد الرحمن أبناء السيد ابراهيم البسام، والمحامي عبد الرزاق الحمود الذي كان نائباً في البرلمان العراقي، ثم مشاوراً حقوقياً في المملكة العربية السعودية، والأستاذ عبد الله الشبل الذي أشغل عدة مناصب إدارية في مديرية الشرطة العامة، والشيخ ناصر الأحمد الذي تولى إدارة المدرسة بعد وفاة أستاذه الشنقيطي، والشيخ محمد العسافي، والأستاذ أحمد الحمد الصالح وغيرهم كثيرون ممن أشغلوا مناصب القضاء الشرعي في المملكة العربية السعودية، والخليج العربي، والأردن.

وما زالت هذه المدرسة قائمة، باقية، تشق طريقها في أداء رسالتها الدينية، والعلمية، والفكرية، والحضارية، راجين لها النجاح، والتقدم، والازدهار، والبقاء.

٤٠ - إغراء أحد الجهلة بالاعتداء عليه:

وبعد أن تم افتتاح مدرسة النجاة في الزبير، وكان الشنقيطي مغتبطاً أشد الاغتباط بانجاز هذه المأثرة الخالدة، وبناءً على ما كان يؤكد عليه في خطبه ومواعظه الدينية من الأهمية لطلب العلم، وأنه فرض على كل مسلم ومسلمة، كما ورد في الحديث الشريف، ومن أجل ذلك فقد سأله أحد السراة من أهل الزبير وهو السيد عبد اللطيف باشا

(١) جمعية النجاة الأهلية - نشرة للتعريف بها - ص ٣٠٢.

المنديل[1] عن رأيه في السعي لافتتاح مدرسة أهلية أخرى للبنات، فأجابه بأن ذلك من المكرمات، سيما وقد حث الاسلام على تعلم الرجل والمرأة سواء بسواء، لأن ذلك أدعى لحفظ دينها، ومعرفتها بالحلال والحرام، وتنشئة أولادها على الخير والصلاح، وإرشادهم الى سبيل الاستقامة، والنهج السوي. إلا أن الحاسدين الجاهلين، الذين أثاروا الفتنة ضده في الزبير إبان قدومه، والذين تقدم البحث فيهم من أصحاب النفوس المريضة، اغتنموا هذه الفتوى فرصة مناسبة للتشهير بالشيخ بعد أن أعيتهم الحيل، وسكتوا على مضض، مغتنمين جهل العامة، وصرامة التقاليد في إبعاد المرأة عن ميدان العلم، والاصلاح من أي نوع كان مما هو معروف ومعلوم لدى كل من كان معنياً بطبيعة ذلك العصر، فظلوا يذيعون في المجالس والأندية بأن هذه الفتوى بدعة محرمة من شأنها أن تؤدي الى اختلاط النساء بالرجال، والى اثارة الشبهات، والتحلل من التقاليد المألوفة في حجاب المرأة وصيانتها، وما زالوا يضربون على مثل هذه الأوتار العاطفية ذات التأثير الشديد على النفوس، وظلوا يوغرون الصدور بالحقد على هذا الرجل الفاضل ناسبين إليه ما شاءوا من الذم بخروجه على تقاليد البلد وعاداته الموروثة، وحفاظه على الشرف والأخلاق، حتى بلغ الأمر بهم غاية الخسة والدناءة

---

(١) كان عبد اللطيف باشا المنديل وزيراً للتجارة في الحكومة الموقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب التي رشحها السر برسي كوكس وأعوانه من جيش الاحتلال البريطاني بتاريخ ١٩٢٠/١٠/٢٥ معلناً الغاء الاحتلال وفي ٢٩/ نيسان/ ١٩٢١ استقال عبد اللطيف المنديل وبقيت وزارة التجارة شاغرة حتى تاريخ استقالة وزارة النقيب في ٢٣/ آب سنة ١٩٢١ «تاريخ الوزارات العراقية للسيد عبد الرزاق الحسني. ج١ ص٨ الطبعة الثانية. ومدحه الرصافي بأبيات في ديوانه.

بأن أغروا به أحد أولئك الجهلة الحمقى، من المغامرين المغرورين المدعو - سليمان الكنّاص - المعروف بهذا اللقب لشهرته بالخروج للصيد والقنص، وله حانوت لبيع الملابس، وبعض اللوازم التي يحتاجها البدو المتحدرون على مدينة الزبير من الصحراء، فما كان من هذا القناص-حسب رواية السيدة عائشة ابنة الشنقيطي-إلا أن ترصد لأبيها وهو خارج من دار الشيخ محمد بن سند ليعوده في مرضه، بعد صلاة العشاء، فهجم عليه بمحجن غليظ، وطرحه أرضاً، وانهال عليه بالضرب المبرح، محتجاً عليه بهذه البدعة السيئة في السعي لانشاء مدرسة للبنات في البلد تكون سبباً للفساد، والاختلاط بالرجال، وما أشبه ذلك من الحجج والأقوال التي تفوه بها هذا السادر الأحمق، فخف الناس للقبض على هذا الجاني وساقوه إلى القضاء فحكم عليه بالسجن لمدة أربعة أشهر، ولما أراد الشيخ أن يعفو عنه لعلمه بأنه جاهل مسخّر، غضب أصدقاؤه ومريدوه وطلاّبه والرأي العام في البلد وأصرّوا على وجوب تقديمه للعدالة لينال جزاءه، وليكون عبرة لغيره، وإهانة لمن أغراه، لأنهم رأوا أنه عمل شائن ألحق الاهانة بهم، وسجل على البلد إساءة تاريخية فاضحة.

وكان لهذا الحادث أثره السيء في نفوس جميع الناس، فما كاد الخبر ينتشر حتى عم الغضب والسخط جميع الأوساط في الزبير والبصرة وملحقاتها، والكويت، والخليج العربي، فوردت برقيات الاحتجاج، مستنكرة، منددة، مطالبة بانزال أقصى العقوبات بهذا المجرم الآثم، ومتابعة من أغراه بهذا العمل المشين... وقد أضافت السيدة عائشة الى ذلك قولها... وبعد أن خرج سليمان الكناص هذا من السجن، وجد نفسه منبوذاً من الناس، وقد عضه الفقر، فجاء الى والدها معتذراً باكياً، شاكياً له ما أصابه وأصاب عائلته من الفقر والجوع، مستعيناً به على مدّ يد

المساعدة له، ولما لم يكن لدى والدها شيئاً من النقود، كتب له ورقة الى صاحب حانوت، اعتاد أن يبتاع منه مؤونته البيتية، طالباً إليه أن يعطيه ما يحتاج اليه بمقدار مناسب من القيمة ويسجله على حسابه، ولما قرأ صاحب الحانوت ورقة الحوالة بتوقيع الشيخ الشنقيطي، والمحولة اليه هو ذلك الرجل المعتدي، نظر الى - الكناص - نظرة استغراب واعتبر بهذه الأخلاق الاسلامية العالية... وبالطبع فإنه لم يغب عن بال الشنقيطي معنى الآية الكريمة: ﴿....وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ، وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ومر معنا أن الشاعر الكويتي أشار الى هذه الحادثة بأبيات من قصيدته التي ألقاها تكريماً للشيخ أثناء زيارته الأخيرة الى الكويت - كما سيأتي -.

ونقول: لا بأس على الشنقيطي من هذا الاجتراء، فكم أهين قبله من علماء، وأوذوا، وعذبوا، لا بل وبعضهم قتل من أجل الثبات على العقيدة، والمطالبة بالاصلاح، والمجاهرة بدرء الظلم، والشواهد والأمثلة على ذلك كثيرة، يعلمها كل المتتبعين في التاريخ.

٤١ - دعوته لزيارة الكويت، والاحتفاء به، وتكريمه، والاعتذار له:

لا بد للحق أن ينتصر، ولا بد للباطل أن يندحر، ولا بد لذوي الايمان الراسخ أن يخلدوا، ويرفعوا على الراحات، ولولا هؤلاء لما ثبت للحق سلطان، ولا أزيح الظلم، ولا ازدهرت حضارة.

(١) سورة آل عمران: من الآية ١٣٤.

ولا بـــد لليـــل أن ينجـــلي ولا بـــد للقيـــد أن ينكسر

كما قال أبو القاسم الشابي. أجل، خرج الشنقيطي بعد كل هذه الأحداث المريرة، والصعوبات المتلاحقة، موفور الكرامة، معززاً، مكرماً، وبعد أن حقق أجلَّ أمنية كان يحلم بها، وهي مدرسة النجاة، التي كانت تنمو بازدهار، وتتقدم باطراد، والطلاب يتزاحمون على التسجيل بها بشوق وحماس، وبعد سنة من تأسيسها. وقد أخرست ألسنة السوء، ومات الحاسدون بغيظهم. بعد هذا، وعندما اطمأنت نفسه لنجاحه في مسعاه، وردته دعوة من النادي الأدبي في الكويت في رمضان من سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، فلبى الدعوة مغتبطاً، لأن زيارته الى الكويت كانت حينذاك مناسبة مواتية، ولا تشبه تلك الزيارات المليئة بالفشل والخجل والأسى، حيث انقلبت الحال، وصارت الكويت بالنسبة له غيرها بالسابق، فحاكمها يومئذٍ هو الشيخ أحمد الجابر الصباح، صديقه، وزميله في الحج، الذي اصطفاه لمرافقته في أداء هذه الفريضة سنة ١٣٣٦هـ - كما تقدم - يوم كان مقسم القلب بين نفسه وعائلته، وهو يشعر بالغربة في بلاد القصيم. ولا شك فقد كان لهذا الاصطفاء، وهذه الزمالة أثرها العميق المحمود في نفسه، لأنه شعر في حينه أن الشيخ أحمد أراد أن يتدارك ما لحقه من سوء المعاملة زمن جده الشيخ مبارك. فأراد أن يطيب خاطره بهذه الدعوة، ولم يكن عالماً بما سيصيبه من العنف والتجني من قبل عمه سالم، مما هو أشد وأنكى، فهو الآن ذاهب الى الكويت ليقابل حاكمها الصديق الزميل، ولسان حاله يقول:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومن جهة أخرى، فقد توخى استعادة مركزه الديني والعلمي في

الكويت بعدما لحقه من إهانة واحتقار، وخوف وطرد، وإرهاب، وليبارك النهضة العلمية والأدبية فيها، ويسمع صدى نجاحه في افتتاح مدرسة النجاة، والتفاف القلوب حوله من جراء كل ما أصابه من أذى وهوان في جميع ميادين كفاحه، وذلك ليشعر بالغبطة والارتياح والتخفيف عما لقي من عنت وافتئات، مستعيداً اعتباره بين أصدقاء يحبهم ويحبونه، ويلتقي معهم في المصير والهدف. وقد تحقق ما توخاه، فما إن وصل الكويت حتى استقبله أصدقاؤه ومحبوه من أعضاء النادي الأدبي بالود والاحترام. ولا بد أنه قد زار صديقه وزميله في الحج حاكم الكويت الشيخ أحمد الجابر، الذي يصطفيه ويجله بصورة خاصة، عدا ما عرف عنه من حبه للعلم والعلماء، وتشجيع المؤسسات الدينية والعلمية والأدبية والأخذ بأيدي القائمين عليها. ثم أقام له النادي الأدبي - صاحب الدعوة - حفلة تكريمية رائعة، لائقة بمقامه، وكأنها كانت الغاية من دعوته لإزالة ما علق بذهنه من أذى وأسى عن الكويت في عهد مبارك وسالم، وما أصابه من اعتداء في الزبير. فألقيت بين يديه القصائد، والخطب الطافحة بعبارات الود، ومشاعر الولاء والاعتذار وشجب ما لحقه من أذى واعتداء فقد وقف الشاعر سليمان العدساني، وألقى القصيدة التي نقتطف منها الأبيات التالية[1]:

يـــا قوم إن نزيلــــكم هــذا، هو الرجــل الوحيــد

---

(١) تأسس النادي الأدبي في الكويت برغبة من شبابه وأدبائه ورجاله العاملين، وفي مقدمتهم الأديب خالد بن سليمان العدساني، وأقيمت الحفلة الافتتاحية لتدشينه سنة ١٣٤٢هـ(١٩٢٣م)، برئاسة الشيخ عبد الله الجابر الصباح المتطلع الى العلم والأدب. وبإدارة الأديب عيسى بن صالح القناعي. (تاريخ الكويت ص ٢٩٦).

الناطـق الحـق الصراح ... وإنـه في ذا فريـد
إني وقفـت خطيبكـم ... يـا ليـت شعري، هـل أجيـد
يـا شيـخ أنـت رجاؤنـا ... في نهضـة النشء الجديـد
عصر الخرافـة قوضـت ... أركانـه حـتى أبيـد
يـا شيـخ أنـت سهامنـا ... إن كابر الخصم العنيـد
ثابر فخلفـك عصبـة ... قـد أقسمـت أن لا تحيـد
فتخـطَّ للعليـا بهـا ... يـا صاحـب الرأي السديـد
إن الكويـت لبعـدكم ... كـادت لبلواهـا تميـد
فاصفـح لماضيهـا وغـضّ الطر ... ف عن ذاك البعيـد
هـذي الكويـت تنسمـت ... أرجاؤهـا لـك من جديـد
واستبشرت بقدومـكم ... فكأنمـا كانـت بعيـد
وأقـام ناديهـا لـكم ... ذا المهرجـان مـع النشيـد
أمـا الزبـير فـكم لـكم ... فيهـا من الأثر الحميـد
فلـكم أشدت مدارساً ... فيهـا وكم أثر مجيـد
لو كـان مثلـك عشرة ... فينـا لمـا بعـد البعيـد
عجـبي لقوم أغضبو ... ك، أمـا بهم رجـل رشيـد؟
آذوك لمـا أن دعو ... تهمُ إلى أمرٍ مفيـد
هـذي السفاهـة أغضبـت ... رب الخلائـق والعبيـد[1]

وعلى ما في أبيات القصيدة من ركة، فإن الشاعر يستعرض فيها، ملمحاً، ومصرحاً، ما أصاب الشنقيطي من تجنٍّ وحيف في الكويت والزبير، وما لقي من أذى ومضايقة في عهد مبارك ونجله سالم من حكام

---

(١) تاريخ الكويت ص ٣٣٠.

الكويت، طالباً إليه أن يسمح ويصفح، ويغض الطرف عما جرى له من محنٍ في تلك الأيام السود، كما يعرج الشاعر على الاشادة بمآثر المحتفى به، لما قام به من إصلاح في مدينة الزبير، مشيراً الى سعيه في تأسيس مدرسة النجاة، ومحاولته فتح مدارس أخرى للبنين والبنات لولا المعوِّقين، من ذوي الجهالة، والسفه، الذين تصدوا له بالاعتداء والضرب، وبثّ الدعايات المشينة المغرضة ضده. وكان لأمثال هذه القصيدة، وما أعقبها من قصائد وكلمات الأثر الحميد في نفس الشنقيطي.

وفي نفس الحفل يقف الشاعر عبد اللطيف بن ابراهيم آل نصف، ليلقي قصيدته أيضاً مرحباً ومشيداً، فقال:

اليوم هللت الكويت وكبرت	لما أتاها العالم النحرير
واستبشرت فرحاً بنابغة الهدى	حتى حسبنا أنها ستمور
والقوم بين مؤهل[1] ومرحب	طرباً وقد شمل القلوب سرور
قد جاءهم ذرب اللسان مروعاً[2]	لبق، بحل المعضلات بصير
إيه بني قومي، وسادة معشري	أوموا إليه بشكركم وأشيروا
خلوا النواظر شاخصات نحوه	ودعوا القلوب تسير حيث يسير
أثنوا عليه بما ترون فانه	رجل لعمري بالثناء جدير
أمعطر الاسلام من نفحاته	ومعيد روض الدين وهو نضير
والمرسل السحر الحلال منقحاً	يوحيه فكر ثاقب وضمير
بشرى لهذا الثغر لما زرته	فلكم تمنت أن تراك ثغور

(١) هكذا في الأصل ولا بد أن تكون: مهلل - بدل مؤهل التي لا تنسجم والمعنى المقصود.

(٢) قوله - مروعاً - فان كانت بفتح الواو فهي صفة استخذاء وضعف، وإن كانت بكسرها، فهي صفة قهر وظلم، وفي الحالين صفة ذم نابية لا يصح التعبير بها.

تالله نلنا فيك صفقة رابحٍ ... كتبت لها فوق الأكف سطور
أمحمد، أهلاً بعلم محمدٍ ... يوحيه فينا المصلح المشهور
كم قد أصبت بنكبةٍ وبمحنةٍ[1] ... وكأن أعظمها لديك يسير
الله يشهد حينذاك بأنني ... قد كاد قلبي للمصاب يطير
خطب له اهتزت جبال تهامةٍ ... جزعاً، وعج الى الالٰه بثير
هيهات ينسى الله أجرك بعدها ... فاصبر وربك بالعباد بصير

ولم تسلم هذه القصيدة أيضاً من ضعف التأليف، وركة التصوير، وانعدام الابداع، وضحالة اللغة، على أنها مشاعر صادقة الود وعواطف مرهفة الحس، تفيض بالاكبار والود والاخلاص. والذي يعنينا من هذا أن الحق قد أزهق الباطل، حيث مات أهل الحقد بغيظهم، وانتصر الشنقيطي بمساعيه الحميدة، وظلت القلوب والألسن تخفق وتلهج بشكره وذكره في كل مكان، كما أقبل عليه الطلاب والمريدون إقبالاً منقطع النظير، وبقيت علومه وتعاليمه متزوَّد القصاد، ومزار الرواد، وما زالت مدرسته - النجاة - تذكر الناس به في كل آن.

---

(١) علق الشيخ عبد العزيز الرشيد على هذا البيت وما بعده قائلاً:

« يشير الشاعر الى تجاسر بعض السفهاء الأغبياء في الزبير على الأستاذ بالضرب، ولاهانته لا لذنب الا لسعيه في الاصلاح وتنبيه الافكار من خمولها، ولقد تألم المصلحون من ذلك الحادث الفظيع وصدرت احتجاجات من الكويت والبصرة والزبير على الجاني الجاهل، وكانت النتيجة أخيراً القبض عليه وزجه في السجن مدة جزاءً لطيشه، ورفع الاستاذ على أكفّ الاجلال والتعظيم » - تاريخ الكويت ص ٢٨٥-.

ونقول ليس الشنقيطي بأول من عذب وأوذي وضرب في سبيل الله خير الأئمة الأعلام أمثال أبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وابن تيمية وغيرهم كثير وكثير ممن سجنوا وأزهقت أرواحهم وما بدلوا تبديلاً، بل بقيت تعاليمهم ورسالاتهم خالدة.

٤٢ - استقراره في الزبير وانصرافه للعناية بالمدرسة ونشر رسالة الإسلام:

وبعد هذا التكريم الذي لقيه في الكويت من حاكمها، وجميع الأوساط العلمية والأدبية فيها، وبعد ان اطمأنت نفسه، وارتاح باله من تلك المعاناة إلساخطة يوم كان مطارداً فوق أرض الكويت، ملاحقاً بالطرد والخوف والتهديد، موقناً أن العاقبة للمتقين، وأن النصر حليف المؤمنين الصابرين، وبعد أن أمضى أياماً سعيدة بدلاً من تلك الأيام التعسة الرهيبة، وبعد أن صار لا يسمع الا آيات المدح والثناء، بدلاً من عبارات الطرد والزجر، وبعد أن حفت به القلوب الطافحة بالحب والولاء، بدلاً من تلك القلوب الحاقدة الحانقة. بعد هذا التبدل اللطيف الحبيب، عاد الى الزبير قرير عين بما لقي من قلوب تخفق بحبه، وألسن تلهج بذكره، مودعاً بالصفاء والوفاء، والاجلال والاكبار، فعاد فرحاً مستبشراً بعقبى جهوده العلمية المخلصة، واثقاً من قوة إرادته، في الثبات على العقيدة الصادقة وصبره على احتمال الصعاب، ولم يبدل تبديلاً كغيره ممن اغتروا بمتاع الدنيا، فانقلبوا صاغرين، إلا أنه انقلب بنعمة من الله وفضل كبير.

وفي هذه الآونة وقف جهوده على إصلاح المدرسة، فازداد عدد صفوفها وشعبها، وكثر تعداد طلابها، فحرص على أن ينهج في التدريس فيها نهج الدراسة الحكومية الرسمية في ما يخص الدروس الواردة في نظام الدراسات العامة (البكلوريا) الابتدائية، وذلك ليضمن لطلابه مجال القبول في مدارس وزارة المعارف ليشغلوا الوظائف والمناصب

الحكومية في الدولة، وليضمن لهم مستقبلهم المعاشي في ذلك، وليكون منهم حملة شهادات عالية تنهض بالأمة على أساس من الكفاءة والتوجيه القويم والخلق الكريم، وذلك لأن رسالته في ترسيخ الدراسات الدينية والأدبية كانت سائرة على مستويات توازي الدراسات العالية وهكذا انطلقت من هذه المدرسة شبيبة صالحة انتظمت في صفوف الدراسات المتوسطة والثانوية والعالية، فكان منهم الأساتذة والعلماء، والمربون، والقضاة، والمحامون، وحملة الدكتوراه، وما أشبه ذلك، مع استقامة في التوجيه، ورسوخ في العقيدة المثلى، والتزام في الدين. كل ذلك بفضل نشاط الشنقيطي، وعلو همته، وقوة شخصيته، العوامل التي ذللت الصعاب، وكان من أكثرها تعقيداً اعتماد نفقات المدرسة على التبرعات والأجور الزهيدة المستوفاة من أولياء الطلاب الأغنياء، ومنحة وزارة المعارف، ولم تكن هذه لتسد نفقات رواتب المدرسين والكتب والأثاث والمصروفات الأخرى المعروفة. وظلت هذه المشكلة قائمة الى اليوم ويا حبذا لو خف بعض المحسنين لوقف أملاك من دور وحوانيت، أو نقل موقوفات بعض المدارس الدينية المنقرضة في البصرة كالمدرسة الحللية، ومدرسة الدويحس في الزبير، والمدرسة المفاقسية، والمدرسة الرؤوفية وغيرها كثير لسد نفقات مدرسة النجاة التي لا زالت قائمة على أداء رسالتها العلمية الدينية الخيرة بثبات وإخلاص.

غير أن الشيخ الشنقيطي في حينه كان لولب حركة في سبيل الخير فهو تارة يذهب الى الكويت لاستثارة همم أولي العزيمة الصادقة لجمع التبرعات لهذه المدرسة، وأخرى يشوق المثرين للبذل بسخاء لادامة هذه المؤسسة التي ستخلد لهم الذكر الحسن في الدنيا والآخرة. كما أنه من جهة

ثالثة كان حريصاً على اختيار الأساتذة والمدرسين الورعين المثاليين ممن كان بعضهم لا يطالب بتخصيص راتب له، بل يحتسب ذلك قربة لله، فيقوم بالتدريس مجاناً، كما كان يفعل الأئمة الأبرار من رجال السلف الصالح في عصور الأمة الاسلامية الوضاءة، على أنه كان لا يفرط في اختيار الأكفاء من الأساتذة المختصين في مجال تدريسهم. فنهضت مدرسته، وذاع صيتها بفضل خريجيها وانتشارهم في جميع الأرجاء المجاورة، حتى عمها القصاد والزائرون من جميع العلماء والمدرسين، وذوي الثراء من المحسنين. ولأجل أن تتسع الدعاية العلمية والتربوية لهذه المدرسة، فقد وثق الصلات بينها وبين المدارس الأخرى الأهلية منها والرسمية، فشجع الزيارات والسفرات المدرسية، وهي نواح تربوية جديرة بالعناية والاهتمام، على الأخص في مثل ذلك العهد. وعند بدء تشكيل المدارس النظامية القليلة، فوثق الصلات بين مدرسته وبين تلك المدارس بتبادل الزيارات والدعوات، وإقامة المسابقات، ولكنها مسابقات ذات أهداف علمية صرفة، فهي ليست مسابقات رياضية - كما يفعل اليوم - بل كانت مسابقات تجري بين الطلاب في بعض الدروس ليذكي فيهم روح البحث والمناظرة، كما كانت صلاته مع العلماء والمدرسين ممن هم على نهجه وطيدة قويمة، ولا زلت أذكر يوم كنت طالباً في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة قريتنا - حمدان - وكان مديرنا الشيخ محمود الحوراني، وهو من أعز أصدقاء الشيخ الشنقيطي، الذي كان يزوره في البيت والمدرسة، ويشجع الطلاب على مواصلة الدراسة، والتمسك بأهداب الدين والعلم. وفي إحدى زياراته هذه، دخل الصف الرابع، وكنت أحد طلابه، وراح يسأل الطلاب أسئلة

مختلفة في النحو، ثم طلب إليّ أن أعرب الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ...﴾[1]. فتوقفت عند إعراب - كلمةً - وقلت له يجب أن تكون مرفوعة، فقال لماذا؟ قلت لأنها فاعل. فتبسم وقال: لا.. بل هي منصوبة، ثم وجه السؤال للطلاب الآخرين فسكتوا ثم قال: هي منصوبة على أنها تمييز ملحوظ... وراح يشرح لنا التمييز وأنواعه ونحن في الصف الرابع الابتدائي.

وأقول بهذه المناسبة، ما أعظم مصيبتنا بطلابنا اليوم في إهمال القواعد النحوية، وتفشي اللحن حتى عند بعض المعنيين من المتمرسين والخطباء، وتخريج شتى الاعتذارات لادانة علم النحو، ووصفه بالعقبة الكؤود في سبيل البحث والتأليف.

وبعد أن أكملت الدراسة الابتدائية في مدرسة قرية حمدان، وانتقلت الى الثانوية الرحمانية - التابعة لمديرية الأوقاف العامة، وكنت في الصف الأول الثانوي «الأول المتوسط كما يعرف اليوم» فأثناء ذلك قامت مدرسة النجاة بزيارة الرحمانية بأساتذتها وطلابها، وكانت العادة - كما تقدم - أن تعقد السباقات العلمية بين الطلاب، ومنها الرياضيات كالحساب أو الجبر، أو في الجغرافية، أو النحو، أو ما أشبه ذلك. ومن طريف ما أتذكر في هذه الزيارة المدرسية، أننا أردنا أن نتكاثر على طالب أو طالبين فقط من طلاب مدرسة النجاة لنحرجهما في درس الحساب فقط لما فيه من صعوبة وتفكير. واتفق أن واجهنا في هذا السباق طالبين كانا أخوين وهما: عبد الله وعبد العزيز البسام، وصرنا نمطرهما بسيل من المسائل الحسابية قاصدين تعجيزهما، فمن

(١) سورة الكهف: من الآية ٥.

مسائل في النسبة والتناسب، الى مسائل في الخلط والمزج، والى حساب الربح البسيط والمركب، والى مسائل ذهنية مختلفة، ولكنهما خرجا من كل ذلك منتصرين شامخين، إذ لم تكد تلبث المسألة عند أحدهما أكثر من بضع دقائق حتى يستخرج الجواب الصحيح، حتى كان الواحد منهما قد حفظ حلها عن ظهر قلب لكثرة ما كان لديهما من تمرين واتقان... ولكن أتعلم ماذا كان مصير هذين الطالبين؟.

أجل لقد دفع الزمن بهذين الأخوين - بما يستحقانه من عبقرية وذكاء - فينال كل واحد منهما شهادة الدكتوراه في التربية والأدب...

وعلى أثر هذه الزيارة، فقد دعانا الشيخ الشنقيطي أساتذة وطلاباً لزيارة مدرسته في الزبير.

٤٣ - زيارة مدرسة النجاة في الزبير:

كان ذلك خلال سنة ١٩٢٦ م - على ما أتذكر - عندما قامت مدرستنا - الرحمانية - برحلة الى مدينة الزبير لزيارة مدرسة النجاة الأهلية، وبدعوة من مديرها، الشيخ محمد أمين الشنقيطي - كما تقدم - فاستقبلنا زملاؤنا الطلاب فيها بالبشر والترحاب، ولم يريدوا إحراجنا بالمسابقات في الدروس - كما عملنا معهم - بل دعونا للتجوال في مدينة الزبير، والاطلاع على بعض معالمها، وكانت الزبير يومئذٍ مدينة بسيطة معظم أبنيتها من اللبن والطين، ولم تكن فيها اسالة ماء، بل كان الناس يشربون الماء من غدير كبير يتجمع فيه ماء المطر ويعرف بـ «الدريهمية»، فعجبنا من سعته وعندما يجف ماء هذا الغدير، أو يصبح غير صالح للشرب، فيعمدون لجلب الماء من شط العرب محمولا بقرب على ظهور الخيل والحمير، أما الآبار فكانت شائعة

في البيوت، حيث يسحب الماء منها بالدلاء للاستعمالات الأخرى في ما عدا الشرب والطبخ لأن ماءها ملح، ومشكلة الماء هذه في الزبير هي نفسها التي أثارها الأحنف بن قيس رئيس وفد البصرة الى عمر بن الخطاب ذاكراً ان المرأة تخرج لجلب الماء بعد صلاة الفجر ولا تعود الا بعد صلاة العصر، وكانت تربق طفلها كما يربق العنز خوفاً عليه من الأسد، ووصف أرضها بأنها سبخة بشاشة، وعلى أثر ذلك ألحق عمر (رضي الله عنه) ذراري أهل البصرة بذراري أهل المدينة في الأعطيات.

وبعد تجوالنا في المدينة عدنا الى المدرسة، وكانت قد أعدت لنا وليمة فاخرة، وبعد تناول الطعام والاستراحة، وضع منبر للخطابة، وافتتح الشيخ الشنقيطي الحفل بكلمة ترحب بنا، مؤكداً على شرف الدين والعلم، وأهميتهما في حياة الانسان، وبناء المجد والحضارة، واضعاً ثقته في طلاب العلم لاستعادة مجد الأمة الاسلامية، والنهوض بتاريخها العظيم. وتراثها المليء بالمفاخر والازدهار، كما كان أسلافنا الذين انطلقوا يحملون راية الاسلام في الشرق والغرب. ثم تلاه أستاذ مصري أزهري، وهو أحد أساتذة مدرسة النجاة، واسمه الشيخ محمد الخراشي، فارتجل خطاباً بليغاً مؤكداً على حيوية الدين الاسلامي وملاءمته لجميع العصور والأمم، مبشراً بأن مصير العالم لا بد أن يكون الى الاسلام، ولأن بذوره حية، وستبقى حية الى الأبد مهما تكالبت البدع، واستضرت الأعداء، وأدخلت الأساطير للتضليل والدعايات السيئة.

ولكننا علمنا بعد ذلك أن هذا الاستاذ كان بهائياً، ويدعو إلى المذهب البهائي، وقد فضحه مؤرخ الكويت الشيخ عبد العزيز

الرشيد في تاريخ الكويت في الجزء الأول - الطبعة الأولى - تحت عنوان - فتنة محمد الخراشي في الكويت وفي الخليج وحيث أعفاه الشنقيطي من التدريس بعد أن علم منه ذلك - كما سيأتي -.

ثم رقي المنبر - الحاج أحمد حمدي الملا حسين- وكان مدرساً محاضراً في المدرسة الرحمانيـة - فارتجل كلمة أكد فيها على المعاني التي تطرق اليها زميله الخراشي. وثبت أخيراً أن أحمد حمدي هذا كان من أشد الدعاة للمذهب البهائي أيضاً، واطلعت أخيراً على كتاب له في الدعوة الى البهائية بعنوان - التبيان والبرهان - ويقع في جزءين، وكله انحراف عن الاسلام، ويحشر فيه مغالطات وأضاليل يموه فيها من ليس له اطلاع واسع في الاسلام. وكان أغلب الناس لم يعرفوا ما هي البهائيـة، ولماذا تدعو، ومن هو مؤسسها؟ وربما حتى في عصرنا هذا لم يعرف عنها كثيراً الا المعنيون بالبحث والتتبع. كما أن الطلاب حينـذاك لم يكن يعنيهم شيء سوى الاستقامة على الاسلام الصحيح والمواظبة على الدروس لنيل النجاح في نهاية العام. كما لم يكونوا يعرفون شيئاً عن السياسة، ولا عن المذاهب السياسية. كما كان السباق بينهم على أشده في نيل أعلى الدرجات في الامتحانات الشهرية النهائية والتزاحم على الوصول الى الأولية (درجة المجلي) في الصف مرددين قول الشاعر:

زمن الدراسة للدراسة وحـده   مـا كـان متسعاً لشيء آخرا

كما لم يكن ثمة شيء من أسباب اللهو التي تشغل الطالب اليوم كالراديو، والتلفزيون، والسينما، وما أشبه ذلك من وسائل الاستئثار بالوقت، كما هي الحال اليوم، بل كان الفخر كل الفخر للطالب المتقدم في دروسه، الناجح في صفه في نهاية العام.

وهكـذا بقي الشنقيطي مشعلاً وضاءً، في الأوساط العلمية، والدراسية، محدثاً حركة فكرية مباركة، باذلاً قصارى جهده لنشر تعاليم الاسلام عن طريق العلم والفهم الصحيح، ليس في مدرسته، ولا في مدينة الزبير فقط، بل في جميع الأوساط الشعبية حتى في القرى والأرياف، حيث وسع دائرة تعارفه مع كثير من أبناء الشعب من مختلف الطبقات، وظل يزورهم، ويرشدهم، ويعظهم، ويفتيهم، ويجيب على أسئلتهم، وبقي هذا دأبه، حتى آخر أيام حياته.

٤٤ - وفاته:

وأخيراً، ولا بد للحياة من آخر، فقد تأذن الله أن يحين الفصل الأخير من حياة الشنقيطي، وأن يسكن القلب الكبير الذي طالما أجهده التعب من أجل طموح هذه النفس الكريمة الخيرة، ولا بد لهذه النفس أن تطمئن وترجع الى بارئها راضية مرضية، ولا بد لهذا الدماغ العظيم أن يجف ويستسلم للفناء، وقد اكتمل فصل النهاية المحتومة من جولته الأخيرة، عندما اكتملت رسالته، وهو يشهد ثمار عمله الصالح المكلل بتأسيس مدرسة النجاة منذ سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٣م) وهي في ازدهار وتقدم، وتوسع مستمر، حيث تدفع بالأجيال تلو الأجيال من حملة الرسالات العلمية، والفكرية الدينية، فينتشر طلابه في الزبير والبصرة وبغداد، والكويت، والجزيرة العربية، ليكون بعدئذ منهم العلماء، والأدبـاء، والشعراء، والوعـاظ والمرشدون، والقضـاة، والمحامون، والدكاترة، والمربون، والعسكريون، والمعلمون، وتلك غاية الغايات، ومنتهى ما يصبو اليه حملة الرسالات العظمى. وبعد أن تطبق شهرة الشنقيطي كل مكان، ويلهج بشكره كل لسان، ويعرف له فضله من قبل

الأعداء بله الأصدقاء، ويتبوأ المكانة اللائقة به في القلوب، ويصبح ذا مركز ديني واجتماعي ملؤه الحب والاحترام - بعد كل هذا - تقترب النهاية المحتومة لكل حي، واذا كان أمر الله قدراً مقدوراً، وان لكل حادث سبباً، فيصاب بقرحةٍ في أعلى فخذه، ويعجز الطب عن شفائها، وتصبح الداء العضال الذي ينتهي بموته - رحمه الله - ضحوة يوم الجمعة في الرابع عشر من جمادى الثانية من سنة إحدى وخمسين وثلاثمئة بعد الألف من هجرته صلى الله عليه وسلم: «١٤/جمادى الثانية/١٣٥١ هـ »، الموافق لليوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول من سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بعد الألف من ميلاد السيد المسيح عليه السلام: (١٣/تشرين الأول/١٩٣٢م). وشيع جثمانه الطاهر الى مقبرة الحسن البصري حيث ووري في مرقده الأخير، وقد حزن لموته العالم الاسلامي ممن عرفه، من قريب أو بعيد، كما أصيب طلابه، ومريدوه والمنتفعون بعلمه وهداه، بخسارة فادحة، وخيبة أمل مريرة.

وهكذا انطفأ ذلك المصباح المنير في العلم الديني والفكري، والخلقي، وسكن ذلك القلب العامر بالايمان وسكت ذلك اللسان الناطق بفرائد الحكمة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والعلم الغزير، ولكنه بقي ولم يزل حياً في مدرسته، وطلابه، حياً في علومه ومواعظه، ونهجه المستقيم، والعلماء لا يموتون الا بأجسامهم، بل هم أحياء في ما تركوه من تراث فكري، وما نشروه من علم، وما أحيوا به من قلوب، وما نوروا به من أبصار. ودولة العلم - كما يقولون - خالدة، ولئن مات الشنقيطي فقيراً من حطام الدنيا الزائل، فقد ظل غنياً بمجد العلم الدائم، خالداً في الخالدين.

غـير أنَّا مع كل ما ذُكر ، فلا نعذر محبِّيه من الأدباء والشعراء والعلماء ،الذين عاصروه ، لا نعذرهم من التقصير في تخليد ذكراه بشيء من تأبينه في الشعر والنثر ، وهي عتبى لا بد من تسجيلها عليهم ، إذ قد حق للبلد الذي اتخذه ميداناً لكفاحه وتربةً لغرسه ، ومثواه الأخير ،أن يحيي ذكراه ، ويمجِّد سيرته ، بالإشادة بفضله ، والترحُّم على روحه الطاهر ، فرحم الله الشنقيطي رحمة عباده الصالحين الأبرار.

٤٥ - صفاته وأخلاقه:

ربما يستشف القارىء مما تقدم من سيرته ، الشيء الكثير من صفاته وأخلاقه ، بالنسبة لشغفه في طلب العلم منذ صباه ، واحتماله أذى الغربة والفاقة ، والصبر على الصعاب ، والضرب في الأرض من أجل التزود من المعرفة ، كما ظهر ذلك من إخلاصه لدينه ، وعلمه وعقيدته ، فهو لم يوارب ، ولم يداهن من أجل منفعة ، أو دفع أذى ، بل ظل في كل مواقفه التي عرضناها صامداً ، جريئاً ، لا يخشى تهديد الحاكمين ، ولا بطش الظالمين ، ولم يكتف بجرأة الفكر واللسان ، بل تعداهما الى جرأة الجسم والجنان ، حيث حمل البندقية ، وانخرط في صفوف المجاهدين المقاتلين ، دفاعاً عن الدين والعقيدة ، طالباً الشهادة في سبيل الله ، كما يستشف القارىء أيضاً نشاطه ، وسرعة حركته ، سواءً في طلب العلم ، أو الدفاع عن العقيدة ، فهو لولب حركة دائبة ، فمن شنقيط الى بلاد المغرب المجاورة ، كالصويرة ، ومراكش ، والدار البيضاء ، ورباط الفتح ، وطنجة ، ثم ينطلق الى مصر والحجاز ، فيمكث طويلاً وهو يتنقل بين مكة والمدينة ، ماراً بجدة ورابغ ، ولا يلبث أن يشد الرحال الى الهند ، وعمان ، والبحرين ، والاحساء ثم الى الزبير والبصرة في العراق ، ويظل

متنقلاً بين الزبير والكويت، حتى تلجئه الحرب الى أن يرحل الى بغداد، ومن ثم الى السماوة فبلاد القصيم فالحجاز ثانية، فركوب القوافل الى الكويت، حتى يستقر به المقام أخيراً في الزبير، فهلا يصح أن يوصف تجاه ذلك بالرحالة؟ وهلا يدل هذا على قوة جسمه، وصبره، وثبات عزيمته؟... وبعد هذا العرض الخاطف، والاستنتاج السريع فلندع تلميذه، وصديقه، وزميله، الشيخ ناصر الأحمد مدير مدرسة النجاة بعده، لندعه يحدثنا عن صفات، وشمائل أستاذه الشنقيطي فيقول:

«كان رحمه الله، عالماً، فاضلاً، إماماً باللغة، عالماً بالشعر، يحفظ الدواوين السبعة[1] وكثيراً من شعر فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين، كما كانت له اليد الطولى في علم الأنساب، ويروي كتب الصحاح في الحديث، ويحدث بها، ويدرس علم أصول الحديث، وأصول الفقه».

ونحن نضيف بأنه كان يحفظ القرآن الكريم[2]، والمنظومات الكثيرة في النحو، وعلم الفرائض، والفقه، وأراجيز الأنساب. وأضاف الشيخ ناصر قائلاً:

«أما خلقه فكان عظيماً، فهو كريم يؤثر على نفسه، لا يرد حاجة محتاج يستطيع قضاءها، ولا يمسك شيئاً سوى كتبه، حليم لا يستفزه جهل جاهل، شجاع لا تنال منه المصائب، ولا النوائب، رحب الصدر، يتقبل البحث في أي موضوع، لا تأخذه في الله لومة لائم، يفهم الدين فهماً حقيقياً من غير تزمت، ولا تعصب».

---

(١) لعله أراد دواوين أصحاب المعلقات السبع، وورد في الوسيط وفي مذكرات الشيخ الشنقيطي الخطية أنهم الشعراء الستة وليس السبعة «راجع الصفحة ١٥٨».

(٢) كما ورد بمذكراته، راجع الصفحة ١٤٦.

وكل ما ورد بهذه الصفات الكريمة، والأخلاق الفاضلة، شهدت بها وقائع سيرته التي أسهبنا في بحثها، حيث كان مثالاً للأخلاق الفاضلة. فإن الأحداث القاسية التي مرت به، والتي انتهت بضربه في الشارع كانت كفيلة أن تصرفه عما هو بسبيله من نشر العلم، وتقويم الآراء، وتأسيس المدارس، وتعليم الطلاب، أو ترك البلد الذي أهين فيه نهائياً، والعودة الى بلده شنقيط، أو اختيار بلد آخر يركن فيه الى الهدوء والسكينة، أو يلتزم بمجاراة الوضع القائم، ومداراة الحاكمين، وأصحاب السلطة لينال رضاهم، وينعم بالجاه، ودعة العيش، والثراء عن طريقهم. إلا أنه آثر الفقر، والأذى، والضرب في الأرض، فتتقاذفه البلاد في سبيل نشر عقيدته، وإيقاظ العقول، والهمم في بث الاسلام الصحيح، وفهم حقيقته، نافياً عنه ما لحق به من الخرافات والبدع، والأوهام، زوراً وبهتاناً، موطناً النفس على ذلك ليركب المركب الخشن بدلاً من كسب المال والاطمئنان.

٤٦ - زملاؤه ومعاصروه:

بالرغم مما تقدم ذكره عن حالة البصرة من الجهل والفوضى، والاضطراب في الفترة التي حط فيها الشنقيطي رحاله فيها في ناحية الزبير في صفر من سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) وهي السنة التي تم فيها خلع السلطان عبد الحميد الثاني من قبل الاتحاديين وتولي السلطان محمد رشاد الموصوف بالاهمال والضعف، تاركاً أمور الدولة بيد الاتحاديين الذين تسببوا في إثارة الصراع بينهم وبين العرب مما هو معروف ومبسوط في كتب التاريخ المعنية بذلك، وكانت المنطقة في البصرة وما جاورها سواءً في بلاد عربستان، أو الكويت، أو نجد مثار نزاعات، وغارات، وسفك

دماء لا تنقطع، ففي الصحراء النجدية الوقائع الحربية التي لا تهدأ بين قبائل عنزة بزعامة ابن سعود وبين قبائل شمر بزعامة ابن رشيد، وعلى حدود الكويت وقائع متصلة بين الاخوان الوهابيين وبين أمراء الكويت، وفي صحراء الزبير الغربية احتدام شديد بين أمراء الكويت وبين قبائل السعدون، وفي البصرة نفسها إرهاب، وسطو، ومشاحنات، واستئثار بالحكم، ونزاع على السلطة، فهناك السيد طالب النقيب الذي امتاز باقدامه وجرأته وسخائه وكرمه والتف حوله مئات، بل آلاف من الرجال المسلحين يأتمرون بأمره، ويدافعون عنه، ويحمون حماه، الأمر الذي جعل منه شخصية سياسية لعبت دوراً هاماً، على مسرح الاحداث ليس في البصرة فحسب، بل في العراق، والبلاد العربية التابعة للدولة العثمانية عامة[١]، حيث كان بيته مأوى الأحرار القوميين العرب الهاربين من بطش الاتحاديين الأتراك الذين كانوا يسعون الى القضاء على القومية العربية بفرض اللغة التركية عليهم، وتتريكهم. وفي مدينة الزبير ذاتها مشاحنات، وخصومات، وسفك دماء لا حد لها[٢] فأوجدت هذه الحالات وضعاً متأزماً في المنطقة كلها، وتفشى الارهاب وكثر القتل والنهب والسلب، وصار المجرمون يسيرون في وضح النهار على شكل عصابات أمام الناس[٣] بسبب فقدان سيطرة الحكومة من جهة، واحتضان المتنفذين لهؤلاء المجرمين من جهة أخرى وإغرائهم بالجريمة انتقاماً من خصومهم، أو تحقيقاً لمآرب تقتضيها مصالحهم وما ينتج عن

---

(١) شخصيات عراقية لخيري أمين العمري وفيه ترجمة ضافية للسيد طالب النقيب في جميع أدوار كفاحه.

(٢) التحفة النبهانية - قصة الزبير ص ١٢٤.

(٣) في غمرة النضال - لسليمان فيضي ص ٥١.

ذلك من ذيول ومؤامرات جعلت المنطقة كلها في رعب وحذر واضطراب حيث أخبار القتل والسطو والجريمة تستحوذ على الأذهان فقد مر معنا أن الشيخ مباركاً الصباح قتل أخويه محمداً وجراحاً، وأن الشيخ خزعلاً قتل أخاه الأكبر مزعلاً، وان الحاج منصور السلمان يقتل في المقهى قرب المسجد، وأن خالداً العون يقتل في الطريق[1]، وأن

---

(١) أما سبب قتل مبارك لأخويه فقد مر التنويه به وللاحاطة بالتفصيل راجع تاريخ الكويت للشيخ عبد العزيز الرشيد ص ١١٩ الطبعة الثانية. واما سبب قتل الشيخ خزعل اخاه مزعلا فلتولي السلطة مكانه راجع كتاب - أيام فلبي في العراق - ترجمة جعفر خياط ص ٣٨. وأما مقتل الحاج منصور السلمان فباغراء من الشيخ خزعل بارساله رجلين من أعوانه لاقتراف هذه الجريمة بسبب معارضة دعوى الشيخ خزعل بتسجيل ابنه - كاسب - ابنا لأخيه القتيل مزعل الذي ترك املاكا طائلة وليس له ولد والقاتل لا يرث شرعا فأراد بهذا ان يورث اموال أخيه لابنه كاسب زوراً وقد عارض هذا الافتئات الحاج منصور السلمان بوصفه عضوا في مجلس ادارة اللواء في حينه. وبالرغم من تهديد الشيخ خزعل له فلم ينصع لذلك خوفا من الله. وقد اتخذ له حارساً من قرية حمدان ولكن اتفق ان الحارس كان غائبا أثناء الحادث: (بناء على رسالة خطية بهذه المعلومات من الحاج عبد السلام الحاج ناصر المناصير بتاريخ ١٩٧٦/١٢/٢١) وجاء فيها ان الحادث وقع بتاريخ ١٨/شوال/١٣٢٢ هـ. وفيها تفصيل مسهب للسبب والحادث وهو مخالف لما ذكره الدكتور علي الوردي في كتابه - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٣ ص٦٢ الذي قال فيه بالنص:

«ومن الجرائم التي اقترفها هؤلاء الاشقياء واشتهر أمرها في البصرة جريمة ذهب ضحيتها أحد وجهاء البصرة هو الحاج منصور جلبي السلمان عميد أسرة السلمان المعروفة، فقد شاع عن هذا الرجل انه تفوه ذات يوم بكلمة تنم عن قلة احترام للسيدة فاطمة ابنة الرسول، وحين وصل خبر تلك الكلمة الى الشيخ خزعل أوعز من طرف خفي الى بعض أشقيائه بقتل الرجل. فجاء الى الرجل اثنان منهم، فوجداه جالساً في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه كل يوم وكان مكتظاً بالناس، فأطلقا عليه الرصاص... وقد اعتبرت هذه الجريمة في نظر الكثير من الناس منقبة =

المحامي عبد الله الراوندوزي يقتل في سوق الدجاج في البصرة. وأهم من هذه الأحداث كلها حادث اغتيال فريد بك آمر موقع البصرة وبديع نوري الجابري متصرف الناصرية نهار الجمعة في شعبان من سنة ١٣٣١ هـ (٢٠/حزيران/١٩١٣م) وقد تناول ذلك بالتفصيل مؤلف كتاب – في غمرة النضال – في الصفحات من (١٠٨–١١٤) وجاء في جريدة «لغة العرب» ج٣ ص٥٦، أن بديع نوري هو أخو الاستاذ ساطع الحصري المعروف.

= للشيخ خزعل. فهم حمدوا له غيرته على ابنة الرسول ونسوا أنه قاتل». ونحن اذ نستغرب من أستاذ متمرس بالبحث أن يلجأ في اسناد التهم الى الناس في دينهم بمجرد الاعتماد على اشاعة كان في غنى عن ذكرها. ويا حبذا لو استند الدكتور الوردي في روايته هذه الى مصدر معروف يصح الاعتماد عليه، واذا صح بأن مغرضاً أو منتفعاً نقل له مثل هذه الاشاعة فالواجب عليه أن لا يأخذ في تاريخه بالاشاعات التي أقل ما فيها من ضرر أنها تهبط بقيمة رواياته التاريخية الى الحضيض، ولو اتسع المجال لأثبتنا للدكتور الوردي ان الشيخ خزعل ما كان يعنيه من التعصب الديني ولا الطائفي شيء حتى يقدم على قتل رجل مؤمن بمجرد اشاعة واضحة الاختلاق لو لم تكن له مصلحة شخصية في القضية كما نوهنا. وأما قتل المحامي عبد الله الراوندوزي فليس بالأمر المستبعد في مثل تلك الظروف ولكن المستبعد ان يتضعضع مركز السيد الطالب من أجله في البصرة لو لم ينجده الصيادي بتعيينه متصرفاً للواء الاحساء، فالسيد طالب الذي قتل فريد بك في وضح النهار ومن ورائه الحامية العثمانية وعشائر عجمي السعدون المرابطة في الزبير ولم يهرب ولم يلتجىء لاحد، أفهل يهرب من البصرة لمجرد قتل الراوندوزي؟ على ان مؤلف كتاب – شخصيات عراقية – عند ذكره لهذه الحادثة استناداً لرواية الشيخ مهدي البصير الذي لم يشر الى التجاء السيد طالب الى أبي الهدى الصيادي، ولم يكتف الدكتور الوردي بهذا بل ركن الى ما قيل بأن السيد طالب اتهم باختلاس مائة الف جنيه من دار منصور باشا في الاحساء، وكل استناده في ذلك الى الكلمة – قيل – فهل يكتب التاريخ بهذا الاسلوب يا دكتور؟ وصدق من قال: آفة الرأي الهوى.

قصدنا من عرض هذه الصور الخاطفة من القتل والاجرام والسلب والنهب وباختصار شديد لتبيان الحالة المتردية في البصرة وما جاورها أثناء الفترة التي عاشها الشنقيطي في البصرة، وما كانت عليه الحالات النفسية للسكان من الخوف والاضطراب، وما حل بالمنطقة بعد ذلك من اندلاع نار الحرب العالمية الأولى حيث كانت البصرة ساحة قتال متفجرة لا يقر لها قرار.

ونعود فنقول بالرغم من كل ذلك، فقد شهدت البصرة على مسرح التوجيه الديني والعلمي عدداً من رواد الفكر الاسلامي الذين عاصروا الشنقيطي، وكان لهم أبلغ الاثر في بث الوعي، وسد شيء من الفراغ في التدريس، والوعظ، والارشاد والنشر والتأليف، ومكافحة الفساد، حيث وفد عدد من هؤلاء من البلاد الاسلامية الأخرى، عدا من كانوا من أهل البلد الأصليين بقصد تثقيف الناس في الدين. وقد شملت ميادين جولاتهم الكويت، والبصرة، وبغداد، منطلقين من معنى الحديث الشريف بأن من كتم علماً ألجم يوم القيامة بلجام من نار، ومن بين هؤلاء الرواد مترجمنا الشنقيطي، ومن عاصره ممن سنأتي على ذكرهم وكان من بين هؤلاء المعاصرين علماء من أهل البلد ممن درسوا مختلف الدراسات في بلدهم، وممن ضربوا في الأرض للتوسع في العلم والمعرفة، كما كان من بين هؤلاء من ناوأه، ونددد بآرائه، وأساليبه، وأثار الفتنة ضده، وأغرى به العامة، واستعدى عليه الحاكمين، وقد مرت الاشارة الى ذلك. وكما ورد ذكر أسماء عدد منهم في مذكراته الخطية التي سنثبت ما اقتبسناه منها في آخر الكتاب مما يهم بحثنا هذا.

وأما الذين كانوا على خط مستقيم معه في بث الوعي الديني،

والنهوض بالدراسات الاسلامية في شتى المجالات من أهل البلد، ومن الوافدين، فها نحن نذكرهم مع إيضاح مناسب لسيرة كل منهم، وهم:

١ -الشيخ حافظ وهبة: عالم مصري أزهري، زامل الشنقيطي في الجمعية الخيرية في الكويت، وكان من أصدقائه المخلصين ومر ذكر اشتراكه معه في تحذير الناس في الكويت من الاستجابة لمطاليب الشيخ مبارك الصباح في تجهيز حملة من الرجال المسلحين، تقلهم السفن الشراعية الى الفيلية لانقاذ موقف الشيخ خزعل بن جابر في الثورة القائمة ضده في عربستان وما كان من نتائج ذلك - كما تقدم - كما أشار مؤرخ الكويت الشيخ عبد العزيز الرشيد بفضل الشيخ حافظ وهبة وما له من خدمات جليلة في التعليم، وبث الآراء الدينية الصحيحة، وما أحدثت جهوده، هو وأمثاله من العلماء المخلصين من نهضة ثقافية وفكرية بعيدة الأثر في نهضة الكويت ورقيه، وهو ممن اشتغل في التدريس في المدرسة المباركية التي تم افتتاحها في سنة ١٣٣٠هـ ، كما درس في المدرسة الأحمدية العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافية، عدا نشاطه في الدروس الدينية، والوعظ والارشاد. وكان لما عرف عنه من اتزان، وكياسة، ومعرفة، وذكاء، أن استدعاه سلطان نجد عبد العزيز السعود فاستجاب وبقي هناك معتمداً في الأوساط الدينية والعلمية. ثم انتدب للاشتغال في السلك الخارجي فمارسه ونجح فيه[1].

٢ -السيد عمر الازميري: كان مديراً ومعلماً في المدرسة المباركية في

(١) تاريخ الكويت - الطبعة الثانية - ص (١٧٤، ٢٨٥).

الكويت، وهو الذي نظم مناهجها، وأساليب التدريس فيها على أنماط حديثة في أصول التدريس، واختيار المواد والكتب المناسبة[1]. وقال عنه الشيخ محمد العسافي إنه كان أحد الثلاثة الذين كانوا يطوفون على المجالس في الكويت لتحذير الناس ومنعهم من مناصرة خزعل، ولكن لم يتوصل مبارك الى معرفته كما تقدم في الحوار الجاري بين الشنقيطي وبينه.

٣ -الشيخ محمد خراشي: عالم مصري أزهري، كان مديراً ومدرساً في المدرسة المباركية في الكويت، زامل الشنقيطي وتقرب إليه بالصداقة والوئام، وكان من أجل ذلك ان استدعاه الى الزبير وعينه مدرساً معه في مدرسة النجاة، وتقدمت الاشارة اليه عند ذكر زيارتنا لهذه المدرسة بدعوة من الشيخ الشنقيطي يوم كنا طلاباً في المدرسة الرحمانية ألوقفية، وكما أشيع عنه بأنه بهائي العقيدة، ويؤكد هذا ما ذكره عنه الشيخ عبد العزيز الرشيد في الجزء الأول من تاريخ الكويت في الصفحة (١٢٠) من الطبعة الأولى تحت عنوان - فتنة الخراشي في الكويت وفي الخليج - حيث توسع في البحث عنه ووصفه بالزيغ والالحاد والتهتك، ناسباً اليه اعتناقه للمذهب البهائي بأدلة كثيرة، وقال إن بعضهم حذر الشيخ محمد الشنقيطي منه، وطلب إليه الابتعاد عنه، وعن تعيينه مدرساً في مدرسته، ولكن يبدو أن الشنقيطي كان غافلاً عنه، حسن الظن به، ولما تأكد له زيغه، أعفاه من التدريس. وقد حذف في الطبعة الثانية من تاريخ الكويت ما ورد في الطبعة الأولى - كما

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٠.

ذكرنا - عن فتنة محمد الخراشي في الكويت والخليج، وهذا مخالف لأمانة البحث وحقوق المؤلف[1]. وفي أدناه تعريف بالبهائية.

---

(١) البابيّة والبهائية:

تنسب البابية الى علي بن محمد الشيرازي الملقب بـ(الباب) والمولود سنة ١٢٣٥هـ-١٨١٩م وكان ظهوره في ايران بتاريخ ٥/جمادى الاولى/١٢٦٠هـ-١٨٤٢م مدعياً انه نبي تارة وان الله حل به تارة أخرى. متأثراً بمبادىء الكشفية والحلولية، كما يدعي انتسابه لآل البيت وهو أصلا تلميذ كاظم الرشتي المتأثر بتعاليم الشيخ احمد الاحسائي الذي تنسب اليه الطائفة الشجنية من الشيعة. اتبع الباب هذا كثيرون والتف حوله جماعة من المشتغلين في السياسة والدين ولما اعلن دعوته وفتن الناس به قامت الدولة الايرانية بوجهه، وناظره العلماء، وعارضوه بشدة. وافتوا بتكفيره، الا أن دعوته انتشرت بين العامة وروج لها ذوو الاغراض السياسية، حتى حدثت معارك دامية بين أتباعه وبين الحكومة الايرانية، وبعد الحكم بتكفيره ومروقه عن الدين، ونشره الفساد والافتاء بقتله لقطع دابر الفتنة، قتل رمياً بالرصاص في تبريز بتاريخ ٢٧/ شعبان /١٢٦٦هـ-٨/ تموز/١٨٥٠م بأمر من الشاه ناصر الدين، فلم يلبث في دعوته هذه اكثر من ست سنين، وله كتاب (البيان) ومجموعة مخطوطة حوت غالب رسائله بخط كاتبه الخاص محمد حسين بن عبد الله وهو من كتاب وحيه مع ميرزا أحمد القزويني. وبعد قتله عاد الكثير من اتباعه الى الاسلام، وأصر آخرون على عقيدتهم، وهرب الباقون الى العراق وفي مقدمتهم محمد ابن شبل العجمي وهو من أتباع كاظم الرشتي تلميذ الشيخ احمد الاحسائي الباذر البذرة الاولى للبهائية. وجاء معه نحو خمسين رجلاً وامرأة واحدة تدعي (قرة العين) فحبسه الوزير نجيب باشا وأودع قرة العين في بيت المفتي (أبي الثناء الآلوسي) الذي ثبت له بعد مناظرتها انها كافرة فأخرجوها الى بلاد ايران. واسمها في الأصل فاطمة وهي بنت حاجي ملا صالح القزويني ولقبها استاذها كاظم الرشتي بـ(قرة العين وفرج الفؤاد) وكانت تلقب بـ(زرين تاج) أي ذات التاج الذهبي. كناية عن شعرها. انكبت منذ صغرها على قراءة كتب الشيخ احمد الاحسائي فانتهرها والدها ولم تنتهر وتأثرت بها وبكتب غلاة الصوفية الأخرى. ولدت سنة ١٢٣١هـ(١٨١٧م) وماتت سنة ١٢٦٤هـ(١٨٤١م) وكان لها تأثير كبير في نشر =

٤ -الشيخ عبد العزيز الرشيد: هو الشيخ عبد العزيز بن أحمد الرشيد

= الدعوة البهائية لاجتذابها المدعوين بسحر جمالها ورقة أنوثتها. وبعد مقتل الباب حدثت مؤامرة على حياة الشاه من قبل البابيين فأودع بسببها حسين علي بن الميرزا عباس بزرك المازندراني النوري السجن، وهو تلميذ الباب المخلص والمبشر بدعوته وصديق قرة العين المفتونة بحبه وقد استغلها لنشر الدعوة البابية وبعد اخراجه من السجن في سنة ١٢٦٩هـ جاء الى بغداد مستأذناً بالزيارة، ولما اختلف مع البابيين هرب الى غار قريب من قرية (سركلو) من ناحية سرداش بالسليمانية وبقي هناك سنتين عاد بعدها الى بغداد. ولقب نفسه بالبهاء الابهى، ولما حصل الخلاف بينه وبين أخيه الميرزا يحيى الملقب بـ(صبح الأزل) فأبعد الى ادرنة سنة ١٢٨٠هـ ثم نفي مع أتباعه الى عكا وبقي بها حتى مات وخلفه في الدعوة ابنه عباس افندي المسمى بعدئذ بـ(عبد البهاء) وقد درس هذا اللغة العربية أثناء اقامته ببغداد على العلامة عبد السلام الشواف، كما نفي الميرزا يحيى أخو البهاء (صبح الأزل) الى جزيرة قبرص. وفي سنة ١٢٧٩هـ أظهر حسين علي عباس دعوته معلناً انه إلّه وان الباب بشر به وكان باباً الى البهاء الأبهى، ومنه اشتقت كلمة البهائية وصار ابنه بعده يدعى (عبد البهاء) واذ ذاك قررت الحكومة طردهم من البلاد. وتوفي البهاء في ٢/ ذي القعدة/١٣٠٩هـ-١٦/ أيار/١٨٩٢م وله مؤلفات منها: (الايقان) و(جواهر الاسرار) و(الاقدس) و(الطرازات) و(الاشراقات) و(الالواح) و(الكلمات المكنونة) ويعتقد ان هذه الكتب كتبها له ابنه عباس افندي الذي خلفه في الدعوة وسمى نفسه (عبد البهاء) وهو أعلم من أبيه بكثير وهو الذي أكسب الدعوة شهرة وجعلها تهدف الى الانفصال عن العرب بهذا الدين الجديد، وله مؤلفات عديدة. وفي أيامه نشطت الدعوة نشاطاً كبيراً، ثم توفي في ٢٨/ تشرين الأول/١٩٢١م فخلفه (شوقي) المعروف بـ(الربّاني) ابن ضيائية خانم بنت عبد البهاء ووالده ميرزا هادي أفنان الشيرازي من نفس أسرة حسين أفنان، وجاء هذا بعد الاحتلال البريطاني الى بغداد واشغل مركزاً مهما وبسببه انتشر البهائيون في بغداد وحسين افنان هو ابن فروغية خانم بنت البهاء. وجاء في الصفحة (٧٤) من كتاب (تاريخ الوزارات العراقية - الجزء الاول - في طبعته الثانية، لمؤلفه - السيد عبد الرزاق الحسني - في الكتاب الموجه الى الحاج جعفر ابو التمن بقبول استقالته، وبتوقيع سكرتير مجلس الوزراء (حسين افنان) بتاريخ ٢٩/ حزيران /١٩٢٢م.

وعقيدة البهائية ليست جديدة بل تستند في أصلها الى (الافلاطونية الحديثة)=

البداح، مؤلف تاريخ الكويت، عالم فاضل، وأديب وشاعر جيد، ومؤرخ منصف، حر الفكر والضمير، له اليد الطولى في خدمة الكويت خاصة، والبلاد العربية والاسلامية عامة، بما قدم من علم، وما ألف وكتب. شهدته وسمعته مرة وهو يخطب في جمعية الشبان المسلمين في البصرة، وبصحبته الاستاذ عبد الملك بن الشيخ صالح المبيض أحد مدرسي المدرسة المباركية في الكويت، فكان خطيباً مدرهاً، ثابت الجنان، راسخ العقيدة، فانحدر في خطابه الحماسي البليغ وكأنه يغرف من بحر، لما يتمتع به من علم شامل، وأدب واطلاع، وكنا نحفظ له قصيدة أتانا بها أستاذنا المرحوم الشيخ محمود الحوراني يوم كنا طلاباً في مدرسة حمدان الابتدائية، وذلك على أثر زيارته الكويت وتعرفه على هذا العالم الفاضل، وكان ينعتها بالدرة اليتيمة لاعجابه بها في الحث على طلب العلم،

= وتسمى الاشراقية، وهي مادية صرفة تعتقد بان العالم هو الله، والباطنية، وغلاة الصوفية على هذه العقيدة. واقترفوا عن الشيخية أتباع الشيخ احمد الاحسائي في ان الحلول والاشراق لا يستدعي أن يكون في الأئمة بل يصح أن يكون في غيرهم. وبذلك قبلوا فكرة التصوف دون الشيخية وكلها عبادة اشخاص، ومثلها الاسماعيلية، والخرمية، والقرمطية، وكان من أشهر دعاتها في البصرة الحاج أحمد حمدي ملا حسين وله كتاب (التبيان والبرهان) في جزءين وفيه ما فيه من ضلالات ومغالطات خدع بها كثير من الناس الذين يجهلون حقيقة الاسلام فيضللون بالخروج عن حقيقة معاني القرآن الكريم ويعمدون الى التأويل البعيد عن ظاهر معاني الالفاظ العربية الصحيحة الصريحة وهي طريقة أهل الباطن من قبلهم الذين يعتقدون - بهتاناً - ان للقرآن ظاهراً وباطناً - فيؤولونه حسب أهوائهم وأغراضهم في البدع والضلالات.

« تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧ ص ٧٢-٧٦ » للمحامي عباس العزاوي. و« حقيقة البابية والبهائية » للدكتور محسن عبد الحميد.

والجد في فتح المدارس. وله ترجمة ضافية في مقدمة تاريخ الكويت - الطبعة الثانية - بقلم الأستاذ عبد الرزاق البصير، وكان مديراً ومدرساً في المدرسة المباركية. عاصر الشنقيطي، وزامله في جميع فترات وجوده في الكويت، وانتصر له ودافع عنه في كتابة ما يستحقه من التقدير، والتبجيل، والانصاف.

٥ -الشيخ عبد العزيز أحمد المبارك: تقدمت الاشارة اليه بأنه أستاذ الشنقيطي في الاحساء ولو لفترة قصيرة، وزميله في سفره من الاحساء الى البحرين، فالكويت، فالزبير في البصرة، وكان مدرساً في المدرسة المباركية في الكويت، وتقدم القول عن شعره في مدح عبد الله بن خلف، وفي وصف القهوة[١].

٦ -الشيخ نوري الموصلي: مارس التدريس في المدرسة المباركية، وعاصر الشنقيطي في الكويت، وزامله في نشر الوعي الديني والعلمي، واعتقد انه والد صديقنا فضيلة الشيخ عبد الله النوري الكاتب، الأديب، الشاعر، مؤلف كتاب « قصة التعليم في الكويت في نصف قرن » وما جاء به عن وشاية بعض الحاقدين بالشيخ الشنقيطي لدى الشيخ مبارك الصباح[٢]، وله ديوان شعر مطبوع، ومؤلفات أخرى.

٧ -الشيخ عبد الوهاب الزياني: عالم البحرين الجليل، تعرف عليه

---

(١) تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢٦٣، ٢٩٤، ٢٧٤- الطبعة الثانية.

(٢) مجلة مرآة الأمة الكويتية العدد (٢٥) من سنتها الأولى بتاريخ ١٥/ رمضان/ ١٣٩١ هـ-٢/ نوفمبر (تشرين الثاني)/١٩٧١م - من مقال للاستاذ سيف مرزوق الشملان، وقد مر التنويه به.

الشنقيطي أول مرة أثناء سفره من مكة الى الهند ولما مر بالبحرين وهو في طريقه الى البصرة سنة ١٣٢٦هـ ، مع زميله الشيخ عبد العزيز بن حمد آل مبارك، المتقدم الذكر، حل الشنقيطي ضيفاً على الشيخ الزياني، السابق معرفته به، ونزل زميله على ابن عم له هناك[1] ، وجاء في تاريخ الكويت تحت عنوان « مرثية الشيخ عبد الوهاب الزياني » ما يلي: «توفي مصلح البحرين وزعيمها العالم الشيخ عبد الوهاب الزياني في بمبي سنة ١٣٤٣هـ فرثاه شاعرنا بهذه القصيدة العصماء «ويعني به الشاعر الكويتي عبد اللطيف بن ابراهيم آل نصف ». ويستهل قصيدته قائلاً:

بطل الجهاد ضحية الأوطان   لك في الشهادة رتبة الرضوان

ومنها:

ضحيت بالعلق النفيس لأجلها   بالأهل، بالأموال، بالخلان

ويختمها بقوله:

هطلت على ذاك الضريح برحمة   مزن الرضى وسحائب الغفران
حيث النعيم من الجنان حنوطه   تغدو اليه ملائك الرحمن[2]

٨ - السيد رشيد رضا: صاحب تفسير المنار، ورئيس تحرير مجلة - المنار - تلميذ الشيخ محمد عبده الأكبر، وهو غني عن التعريف زار الكويت وزامل الشنقيطي واشترك معه في دفع عجلة النهضة العلمية الدينية والفكرية، وأثنى عليه صاحب تاريخ الكويت. وأشاد بفضله، لما أحدثته تعاليمه، وكتاباته من آثار حميدة في

(١) مذكرات الشنقيطي الخطية.
(٢) تاريخ الكويت ص ٣١٢.

النهضة الكويتية، وما تعرض له من نقد باطل واستعداء العوام عليه[1].

٩ - الشيخ عبد العزيز الثعالبي: واسع الشهرة، لا يحتاج الى التعريف به، زار الكويت سنة ١٣٤٣هـ وهي نفس السنة التي أقام بها النادي الأدبي الكويتي الحفلة التكريمية للشيخ الشنقيطي. فهما زميلان في الجهاد، متعاصران في الحقبة التي وجد فيها أمثالهما من ذوي العلم والمعرفة، ممن نذروا نفوسهم لمحاربة البدع والزيغ والضلالات، والكشف عن أصول الدين الاسلامي المجرد من الأساطير والأوهام والخرافات، وقد أقيمت له الحفل التكريمية، وأطنب الشعراء والأدباء في مدحه والثناء عليه، ولم يأل مؤرخ الكويت الفاضل جهداً في تكريمه وتخليد جهوده النافعة، والذود عنه من هجمات الجامدين الجاهلين من أدعياء المعرفة بالدين[2].

١٠ -الشيخ أحمد الفارسي: كان هذا من العلماء الذين زاروا الكويت في تلك الفترة، وتعرضوا لحركة النهضة الدينية الحقيقية، البعيدة عن الجمود، والخرافات، والأساطير، حيث تعرض هذا وأمثاله لكل العلماء الذين زاروا الكويت أمثال الشيخ رشيد رضا، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، كما تعرضوا لكل من كان على نهجهم مثل الشيخ محمد عبده، والشيـخ الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز الرشيد، والشعراء من الشباب المشايعين لهم، المباركين لآرائهم وتعاليمهم، فقد رموا هؤلاء بالكفر، وأغروا العامة بهم، وأباحوا دم بعضهم،

---

(١) تاريخ الكويت ص ٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٨.

فسماهم مؤرخ الكويت بـ (الدجالين). أما الفارسي هذا فقال عنه ما يلي:

« ها هو رجل من بله أهل فارس وأذنابهم، قد علا منصة الوعظ، والارشاد في آخر شوال من هذه السنة (أي سنة ١٣٤٤ هـ) في أكبر جامع في الكويت، وقد التف حوله كثير من الناس لسماع وعظه البارد، وإرشاده المظلم، التفوا حوله وأنصتوا لما ينطق به من هجر القول في أساطين الاسلام، وأقطاب الاصلاح، والطعن الشنيع في أديانهم المتينة، والقدح في أعراضهم الطاهرة النقية. أمثال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده، وتلميذه الأكبر السيد رشيد رضا، والأستاذ الكبير الزعيم التونسي الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وغيرهم ممن لهم أقدام راسخة في العلم والدين. وكان مع هذا يضم الى الطعن في هؤلاء الكرام التعريض بمدارس الكويت وبنهضتها، والتنفير من الكتب العصرية وأربابها، ومطالعة الصحف بسائر أنواعها، زاعماً أن ذلك ليس من الدين افتراءً منه وزوراً »[1]. وحاول الشنقيطي مناظرته والرد عليه ولم يتح له ذلك الا مرة واحدة.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨١-٢٨٢. وجاءت الطبعة الثانية من تاريخ الكويت باشراف نجل المؤلف الاستاذ يعقوب خالية من كثير مما ورد في الطبعة الاولى التي أشرف المؤلف على طبعها يوم كان حياً فذكر اسم الشيخ احمد الفارسي في الصفحة (٩٧) ولم تحتو الطبعة الثانية على التصريح باسمه بل ورد القول بعبارة « ها هو رجل من بله أهل فارس » فقط. كما ذكر أيضاً في الطبعة الاولى ان الاستاذ الشنقيطي المحدث حاول الاجتماع بالشيخ الفارسي يوم كان في الكويت وتوسل لذلك بوسائل عديدة، ولكنه لم يتح له ذلك الا مرة واحدة وقد كانت أيضاً على غير علم من صاحبنا الفارسي. وكل هذا لم يرد في الطبعة الثانية. وكان من حق الحفاظ على صحة =

١١-السيد محمود شكري الآلوسي: هو محمود بن عبد الله حفيد العلامة محمود بن عبد الله أبي الثناء شهاب الدين الآلوسي صاحب تفسير روح المعاني، المتوفى في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ والمدفون بمقبرة جنيد البغدادي، وأما حفيده محمود شكري فقد توفي سنة ١٩٢٤م ودفن في نفس المقبرة[١].

تعرف عليه الشنقيطي في بغداد، وكان يزوره وهو في ضيافة السيد صالح العسافي - كما تقدم - وربما كانت بينهما معرفة سابقة لاختصاصه بزيارته، ورثاه الشاعر الكويتي عبد اللطيف بن ابراهيم آل نصف بقصيدة نقتطف منها ما يلي:

رويدك يا هذا الزمان فانني أراك لعمري للكرام معاديا
علام وحتى لست تنفك دائباً تدير لنا كأس المصائب ساقيا
أعزيك بغداد بشكري فقد مضى تقياً نقياً طاهر الثوب صافيا

ومنها:

لقد دهي الاسلام يوم وفاته بما لو أصاب الدهر أصبح جاثيا
بكى المسجد الأقصى عليه بعبرةٍ وأضحى له البيت الحرام مجاريا
وأمست دموع الرافدين سواكباً عليه وبات النيل بالدمع جاريا

= النص، والأمانة في البحث ان لا يحذف منه شيء أو أن يشار على الاقل، الى مثل هذا الحذف، مهما كانت الاسباب، حتى ولو كان المعيد للطبع هو ابن المؤلف فهو لا يملك حق التغيير لأنه قد أصبح في ذمة التاريخ. ونود أن ننوه أيضاً بأن الطبعة الثانية جاءت خالية من تاريخ الطبع ولهذا أهميته عند إعادة طبع الكتاب طبعات أخرى.

(١) الآلوسي مفسراً - للدكتور محسن عبد الحميد ص ٥٢ مع إضافة شفهية.

وقال فيها:

أمحمود لا تبعد فنعم أخو الحجى ... لقد فقدت منك الشريعة حاميا
غيوراً عليها ذائداً عن حياضها ... بصارم عضب حده كان ماضيا
نعيت الى الاسلام فانهال صبره ... وما كان منهار البنا متداعيا[1]

ويختمها بقوله:

سقى الخالق الباري المصور تربة ... حللت بها من وابل العفو هاميا[2]

أما زملاؤه ومعاصروه في البصرة، ومن غير المناوئين فمن أشهرهم:

١ - الشيخ محمد بن خليفة النبهاني: قصد هذا الشيخ البصرة سنة ١٣٣١ هـ قادماً من الهند وهي السنة التي استدعي فيها الشنقيطي لزيارة الكويت أول مرة، وبقي النبهاني حتى وفاته في البصرة سنة ١٣٧٠ هـ. واشتغل في تلك الفترة من حياته بنشر العلم والمعرفة حيث ألف عدداً من الكتب، واشتغل بالتدريس، وفتح مدرسة سميت باسمه، وقد أفردنا له ترجمة خاصة به، لما له من أثر حميد، وشهرة في دعم الحركة العلمية الدينية لا تقل عن أهمية وشهرة الشنقيطي في البصرة في هذا المجال.

٢ - الشيخ نور الدين الشيرواني: هو العالم الحجة في علوم الدين، والتاريخ، والفلسفة والمنطق، عاصر الشنقيطي وزامله في نشر الثقافة، والوعي الديني الصحيح، واشغل الادارة والتدريس في المدرسة الرحمانية الوقفية في البصرة، وكان أستاذنا، ومرشدنا

---

(١) هكذا في الأصل وأعتقد انه أراد - فانهار صبره - وربما كان السبب خطأ مطبعياً.

(٢) تاريخ الكويت ص ٣٠٦-٣٠٧.

فيها، وقد أفردنا له ترجمة خاصة به أيضاً، لما له من مآثر جمة، وشهرة واسعة في التدريس، والبحث والتأليف.

٣ -الشيخ علي بن محمد صالح البدران: هو العالم المدرس، إمام وخطيب جامع عزيز آغا الواقع في سوق كاظم آغا في البصرة، والمعروف أخيراً بجامع الشيخ علي، وهو حفيد العلامة حسين بن علي البدران المتوفى سنة ١٢٤٧هـ في وباء الطاعون الذي اجتاح البصرة في هذا العام، وقد ترجم له الشيخ عبد الله باش أعيان العباسي في الكتاب الموسوم بـ (أعيان البصرة) الذي نشره وعلق عليه الشيخ جلال الحنفي[1]. أما حفيده الشيخ علي فقد توفي سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٣م) وأفردنا له ترجمة خاصة به تأتي تباعاً في تراجم - أعلام الفكر الاسلامي في البصرة - بعون الله. وهو من معاصري الشنقيطي.

٤ -السيد عبد العزيز الناصري التكريتي: هو العالم الفاضل، المدرس البارع، والخطيب المفوه، والواعظ البليغ المرشد، والشاعر الرقيق، من قبيلة البوناصر العربية الشهيرة في تكريت، تقلب في عدة جهات للامامة والخطابة والتدريس والوعظ والارشاد، اختار الاقامة في قرية - حمدان - قريتنا، في كنف شيخه الشيخ حسين الحمداني، عاصر الشنقيطي وأعجب به، وأثنى على جهوده في نشر العلم والمعرفة، توفي سنة ١٣٤٧ هـ ودفن في مقبرة الحسن البصري في الزبير في البصرة. وأفردنا له ترجمة خاصة به. ومن رقيق شعره في تقريض «التحفة البصرية للشيخ محمود المجموعي» الأبيات التالية:

---

(١) أعيان البصرة رقم ٩٣ وتسلسل الترجمة ١٥ ص ٢٢.

قعد العواذل في هواك وقاموا   لا غرو إن العاذلين لئام
راموا سلوّي عنك يا ريم الفلا   وبمذهبي أن السلوّ حرام
إني وإن راشوا سهام ملامهم   لم أصغ ما قد قاله اللوام
لم يعلموا أن الهوى ملك مطا   ع، والبرية كلهم خدام
دعهم وطبعهم الكثيف بمعزلٍ   فلكل قول في الغرام مقام

وعلى هذا المنوال يجري السيد عبد العزيز وكأنه شاعر غزل مطبوع.

٥ -الشيخ محمود المجموعي: هو الشيخ محمود بن الشيخ عبد الكريم المجموعي نسبة الى محلة المجموعة من محلات البصرة في المشراق[١] وهو حفيد الشيخ محمد المجموعي أستاذ محمد بن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابي والذي أخذ عنه كثيراً من العلوم وهو أيضاً (أي الشيخ محمود) سبط الشيخ أحمد نور الأنصاري قاضي البصرة[٢]. درس أول ما درس على الشيخ حسين الحمداني، تقلب في عدة جهات واستقر أخيراً إماماً وخطيباً في جامع الزبير بن العوام في مدينة الزبير حتى وفاته في ذي القعدة من سنة ١٣٧٦هـ - حزيران/١٩٥٧م بعد عمر جاوز التسعين عاماً. ورثاه المؤلف بقصيدة ألقيت في الحفل التأبيني له. وسنأتي على تفصيل ذلك في الترجمة الخاصة به.

---

(١) راجع كتاب - عنوان المجد - لابراهيم فصيح الحيدري ص ٢٨٨ من منشورات علي البصري.

(٢) وهو مؤلف كتاب - النصرة في أخبار البصرة - تحقيق الدكتور يوسف عز الدين.

عاصر الشنقيطي، وساكنه في مدينة الزبير، ولم يشترك في إثارة الآراء ضده، بل كان على العكس من ذلك مناصراً له، عالماً بالأغراض المثارة ضده، إلا أنه كان ملتزماً الهدوء والسكينة.

٦ -الشيخ مصطفى المفتي: هو الشيخ مصطفى بن ابراهيم بن أحمد الطه، وأمه علية بنت معيوف، ولد في أبي الخصيب من أقضية البصرة الجنوبية في سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م وتوفي في بغداد سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م، ونقل جثمانه الى البصرة، حيث دفن بمقبرة الحسن البصري في قضاء الزبير.

درس في بغداد على الشيخ أحمد النائب، وفي الحجاز على جملة من علماء الحرم الشريف، وفي البصرة على العلامة الشيخ عبد الوهاب الحجازي مفتي البصرة آنذاك ومدرس المدرسة الحللية، كما درس في بغداد أيضاً على الشيخ سعيد النقشبندي، والشيخ قاسم القيسي، وغيرهم - كما سنفصل ذلك في ترجمته الخاصة -. كان صوفياً ورعاً. وعالماً متضلعاً، ومفتياً لمدينة البصرة، ومدرساً وإماماً وخطيباً في جامع السيف، يحفظ الشعر ويرويه، ويتذوقه، وينظمه. مدح والي البصرة عارف المارديني عند قدومه سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م وهي السنة التي قدم فيها الشنقيطي البصرة، عاصر الشنقيطي وزامله في نشر العلم والمعرفة.

٧ -الشيخ محمد سليم العماري: هو العالم الفاضل الشيخ محمد سليم بن علي أفندي بن أحمد لفته بن عبد الله المشهداني، من عشيرة المشاهدة، النازلين في أراضي التاجي من قضاء الكاظمية، ولد في جانب الكرخ سنة ١٢٨٦هـ ، أسس والده مسجداً في مدينة العمارة، لا

زال يعرف بجامع علي أفندي. درس المترجم له في بغداد على السيد محمود شكري الآلوسي مدرس جامع الحيدرخانة، وعلى السيد نعمان افندي الآلوسي مدرس جامع مرجان، وعلى العلامة أحمد شهاب الدين السويدي، وعلى العلامة الشيخ عبد الوهاب النائب، كما قرأ علم الكلام على الشيخ محمد المولوي أحد علماء بندر عباس، وذلك في لواء العمارة، أشغل عدة وظائف منها عضو محكمة البداءة في العمارة، وانتخب عضواً في مجلس المبعوثين عن لواء العمارة في عهد الدولة العثمانية، ولكنه لم يسافر لحدوث موانع وعين مفتشاً للواء العمارة ومدرساً حتى زمن الاحتلال البريطاني فأخذ أسيراً الى - سمريور - وأطلق سراحه في الهدنة وفي سنة ١٩٢١م عين مديراً لأوقاف البصرة وفي سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧م كان مدرساً في المدرسة الرحمانية في البصرة ودرس عليه المؤلف الفقه وتفسير القرآن الكريم، وتعرف الشيخ محمد سليم أثناء ذلك على الشيخ الشنقيطي الذي كان لا يفتأ يزور المدرسة الرحمانية، حيث كان معظم خريجي مدرسة النجاة من طلاب الشنقيطي يكملون دراستهم في المدرسة الرحمانية، والشيخ محمد سليم بحكم مسلكه الديني والثقافي كانت له صلة طيبة وزيارات متبادلة مع الشيخ الشنقيطي، ثم أحيل على التقاعد سنة ١٩٢٨م فعاد الى العمارة وظل يشتغل بالتدريس، والوعظ والارشاد حتى وفاته-رحمه الله-.

٨ - السيد هاشم النقيب: هو السيد هاشم بن السيد أحمد النقيب وهو ابن عم السيد طالب بن السيد رجب النقيب الذائع الصيت غير

ان السيد هاشم كان ميالاً للهدوء، والاشتغال بالخدمات الدينية، بسبب تنشئته على أيدي علماء اتجهوا به نحو الورع والتفقه في الدين. ولد سنة ١٢٩٤هـ - ١٨٧٥م، فهو أصغر في السن من الشنقيطي بسنة واحدة فقط. اعتنى به والده السيد أحمد النقيب اعتناءً فائقاً، فخصص له أساتذة علموه علوم الدين، واللغة والأدب، والمنطق، والحديث، والتاريخ، كما درس اللغة التركية، والفارسية، والانكليزية، وكان له شغف بطلب العلم، وإكرام العلماء، واعتاد أن يخطب خطبة الجمعة ويصلي بالناس في جامع قريته - قرية السبيليات -[1] ويلقي الوعظ فيه أحياناً في شهر رمضان. وفي سنة ١٣٢٠هـ عين رئيساً لمجلس المعارف في البصرة ولما تشكلت الحكومة العراقية الوطنية صدرت الارادة الملكية باقراره على نقابة أشراف البصرة، وله مبرات كثيرة في بناء المساجد والمدارس والمستشفيات، منها بناؤه جامع السيد

---

(١) تقع هذه القرية على الشاطىء الغربي من شط العرب. وعلى الطريق بين البصرة وابي الخصيب، والسبيليات، في الأصل ام لبضع نخلات وقفت على أبناء السبيل من المارة، ثم صارت علماً لهذه القرية التي اتخذها آل النقيب مقراً لسكناهم، ولا زالت بقايا قصورهم وبساتينهم فيها. وورد ذكرها في كتاب - أحوال البصرة - لفصيح الحيدري المؤلف سنة ١٢٨٦هـ من منشورات دار علي البصري في الصفحة ٣٣ قوله: «والسبيليات كانت ملك الامير فارس الجد العاشر للامراء الذين هم أعيان أبي الخصيب فوقفه وسبله على وجه البر للفقراء والمشايخ الرفاعية لاطعام الطعام فسميت سبيليات أي مسبلة، فاستولى عليها النقيب عبد الرحمن باستيلائه على البصرة فجعلها ملكاً له». وتعرف بالتاريخ باسم - دير جابيل - وذلك لأن الموفق العباسي في حربه مع صاحب الزنج أراد أن يتخذ موضعاً لعسكره ما بين دير جابيل، ونهر المغيرة (وهذا النهر قريب من قرية السبيليات المذكورة). الطبري ج٨ ص١٠٣.

يعقوب في الزبير، كما شارك في بناء مدرسة حمدان، وبناء مدرسة النجاة التي أسسها الشنقيطي، وكانت بينهما صلة صداقة مردها الالتقاء على النهج الديني، ونشر العلم والثقافة.

٩ - الشيخ محمود الحوراني: هو من أهل حوران من الشام استقدمه أهالي قرية حمدان من مدينة الزبير للاستفادة من علمه وأدبه، ولما آنس منهم رغبة لطلب العلم، عقد لهم مجالس في نواديهم وبساتينهم وراح يدرس الراغبين من أهل القرية دروساً في الفقه والنحو والشعر والأدب، فأقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير. ثم تقدموا بطلب لوزارة المعارف لتعينه معلماً في مدرسة حمدان الابتدائية خلال سنة ١٩٢٣م فجاءت الموافقة بتعيينه. ويعد الشيخ الحوراني المنظم لهذه المدرسة والباعث للحركة العلمية في القرية، فسعى في جمع التبرعات لبناء المدرسة فأشادها بالطابوق والخشب بعد أن كانت من الصرائف والقصب، وأذكى في طلابها روح التسابق على طلب العلم فتخرج بها طلاب خدموا العلم بعد ذلك والتعليم. كما سعى الاهلون في ترغيبه بالزواج - كما فعل أهل الزبير مع الشيخ الشنقيطي - فتزوج بامرأة من أهل القرية واستوطن فيها حتى وفاته رحمه الله، وكان أستاذنا العالم الحازم المخلص الحريص على أن يجعل من طلابه رجالاً متفانين في طلب العلم. كما شجعهم على الخطابة وحفظ النصوص الشعرية، والنحوية والفقهية كما كان متبعاً في أساليب التدريب يومئذ، وكان صديقاً حميماً للشيخ الشنقيطي لا تنقطع الزيارات بينهما كما تقدمت الاشارة الى ذلك، زار الكويت وتعرف على أهل العلم والأدب فيه وعلى الأخص

الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف تاريخ الكويت - كما نوهنا بذلك آنفاً. ومع اختصاصه بالدروس الدينية والأدبية فقد كان آية في الرياضيات خصوصاً في علم الجبر والذي أثر في عدم تقدمه صراحته الشديدة بالحق وعدم التزامه بالمناهج التدريسية الوزارية حيث يعطي الطلاب موادّ علمية فوق طاقتهم مما يتسبب عنه اضطراره لاستعمال الشدة والضغط والاكراه، كما كان بعيداً عن استعمال ما يعرف بالمجاملات على عادته البدوية الصريحة، حتى مع رؤسائه، مما نفرهم منه. ونقلوه الى قرية نائية قريبة من الحدود الايرانية في مدرسة - الدعيجي - ثم أحيل على التقاعد، فرجع لقرية حمدان، وبقي فيها حتى وفاته - كما ذكرنا - فهو أشبه بالشنقيطي من هذه الناحية.

أما أولئك الذين عاصروا الشنقيطي في مدينة الزبير خاصة، فيمكن اعتبارهم أو تصنيفهم الى ثلاثة أصناف: صنف ناهضه، وظاهر على إخراجه، وهؤلاء ذكرهم الشنقيطي بأسمائهم في مذكراته الخطية، كما سنأتي على ذكرها والتعليق عليها، في الفصل الملحق من هذا الكتاب.

وصنف أخذ بيده، ودافع عنه، وحماه، وناصره، ومن هؤلاء:

١ - الشيخ محمد بن عوجان: هو العالم الورع إمام مسجد الباطن، متضلع في علم الفرائض، درس عليه الشيخ محمد العسافي الفقه والفرائض على مذهب الامام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) وأملى عليه من كتب الفرائض الشيء الكثير، كما درس عليه جانباً من علم الحساب[1]. وقال عنه الشنقيطي في مذكراته ما يلي:

(١) لب الألباب - للسيد محمد صالح آل السهروردي ج ٢ ص ٤٢٠.

«إلا أن سعيهم « أي مناوئوه » لم يوافق نجاحاً لأن المدير «أي مدير ناحية الزبير» ذهب بنفسه الى الشيخ ابن عوجان وسأله عني فقال: «إن هذا الرجل لا يقصد الا الخير، ونحن نعرفه جيداً، وقد حصل منه نفع كثير للبلد... ». فأهل الزبير والشنقيطي مدينون بالشكر لهذا الشيخ الفاضل المنصف. في موقفه المشرف هذا.

أما الرجل الثاني الذي دافع عنه وحماه من بطش الحاكم السياسي البريطاني لملاحقة الشيخ سالم بن مبارك للايقاع بالشنقيطي والذي نفى عنه ما نسب إليه من إثارة الشغب والفتن وهو:

٢ - الشيخ ابراهيم العبد الله آل ابراهيم: وتقدم تفصيل ذلك.

ومن هذا الصنف المناصر له أيضاً: أولئك الجماعة الملتفين حوله من أهل الزبير، والمستجيبين لدعوته في تحقيق تأسيس مدرسة النجاة، والمعينين له على كل خير، وقد مر ذكر عدد منهم، وهناك كثيرون مجهولون، وقد نقول عنهم إنهم غالبية أهل الزبير، بلد البصرة العتيدة حاضرة العلم والدين والأدب في عصور الاسلام الذهبية الخالدة، من الذين كانوا معه في جميع مواقفه المشرفة.

وثمة صنف ثالث كان على الحياد، حيث لم يرغب هؤلاء في اقحام أنفسهم في هذه الفتنة خشية توسعها، ولا حتى بابداء آرائهم فيها لعلمهم بعدم الجدوى ومن هؤلاء:

١ - الشيخ محمود المجموعي: وتقدم التعريف به.

٢ - الشيخ محمد بن رابح المغربي: وهو العلامة الفاضل، أصله من بلد

الرباط في المغرب، وهو الذي وجده الشنقيطي قد عين بدله في جامع مزعل باشا السعدون، وبالمدرسة الملحقة به أثناء وصوله الى البصرة سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م - كما تقدم - ونوه بذكره مؤلف تاريخ الكويت عند ذكر مغادرة أبناء محمد وجراح الكويت بعد مقتل أبويهم من قبل عمهم مبارك الصباح فقال عن ذلك ما يلي:

« وكان في معيتهم بعد مغادرة الكويت رجلان فاضلان وهما: الأديب السيد عبد الوهاب الطباطبائي مدير ناحية الزبير وهو من أهل الفضل، والغيرة، والذكاء، والنشاط، والهمة والاباء. أما الثاني: فالعلامة الفاضل الاستاذ محمد بن رابح المغربي، المقيم الآن في الزبير، وقد كتب هذا الفاضل عن الوقائع التي حدثت بين مبارك وأبناء القتيلين والشيخ يوسف آل ابراهيم، كتابة مستفيضة، ولكنه أخيراً أتلفها، ولم يرد نشرها »[١]. وتقدم شرح ذلك، ولكنا أعدناه مجاراة للبحث. وفي استعراض المعاصرين للشيخ الشنقيطي استعراض للمدارس الفكرية في تلك الحقبة التي يصح أن تسمى بالحقبة المظلمة من تاريخ الفكر الاسلامي في البصرة وما جاورها، لولا الرواد الذين نوهنا ببعضهم، ووصفنا شيئاً مما تعرضوا له من الصعوبات في نشر رسالاتهم الثقافية، التي كان لها الفضل الاكبر في نهضة الجيل الحاضر وإرساء قواعد مدارسه على التقدم والازدهار.

---

(١) تاريخ الكويت ج ١ ص (١٢١) الطبعة الثانية.

٤٧ - شاعريته:

لم يكن الشيخ الشنقيطي ذا ملكة شعرية تجعله في عداد الشعراء ذوي الابداع في التصوير والاخيلة الجميلة، وعلى الرغم مما مر بوصفه من قبل تلميذه الشيخ ناصر الاحمد من أنه كان إماماً باللغة، عالماً بالشعر ويحفظ دواوين أصحاب المعلقات، وكثيراً من شعر فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين، بالرغم من كل هذا، فقد قال عن نفسه - كما تقدم - في هذا المجال، وفي ما اقتبسناه، ولخصناه من مذكراته الخطية - كما سيأتي - حيث يقول: «وصارت لي ملكة في الشعر في الجملة، إلا أن قريحتي في نقده، ومعرفة حسنه من رديّه أحسن منها في إنشائه، ولذلك لم أكثر منه».

نعم. هكذا قال عن نفسه في قرض الشعر، وهي الحقيقة، فلم يرو عنه أنه أكثر من نظم الشعر الا ما ورد في مذكراته المشار اليها من أبيات قالها في مناسبات خاصة، دلت على عدم ميله لقرض الشعر، وعدم تمكنه من الاجادة فيه الامر الذي يستدل منه أنه غير مهيأ لأن يكون شاعراً، كأولئك الشعراء الفحول من أبناء قبيلته - بني حسن - المتقدمي الذكر، كمحمد بن حنبل، ومحمد بن سالم البنعمري الذي يلتقي نسبه بمترجمنا الشنقيطي عند أعمر كداش، ولا كعبد الله الملقب بالاحول، والمختار بن المعلّى، وغيرهم من شعراء بني حسن، ذوي الخيال المرهف الواسع، والتصوير الجميل، مع متانة في السبك، وإحكام في اللغة. ولا كأولئك الشعراء العظام من مختلف قبائل شنقيط، كالعلويين، والمجلسيين، والتندغيين، من علماء الدين الفقهاء، والصوفيين، الذين حلقوا في الشعر والأدب، تحليقهم في الفقه، واللغة، وعلوم الآلة على

اختلاف أنواعها ، كما مر بنا شيء من نماذج شعرهم ، وكما سنأتي على صور من شعر الآخرين ، ممن تعرض لهم الشنقيطي في مذكراته ، كالشيخ سيديَّ الكبير ، وابنه ، والشيخ ماء العينين ، والشعراء العلويين ، وغيرهم .

فالشنقيطي لم يبلغ شأو هؤلاء في قرض الشعر أبداً ، ولم يتصف بما أورده من نماذج شعره بأن يصح أن يقال عنه إنه شاعر ، حتى ولا يمتاز بالصفة الشعرية الموصوفة بشعر العلماء ، بل هو محض تقليد لصور باهتة مكررة . وفي الحقيقة فان الشعر موهبة لا تدرك بكثرة السعي ، ولا بالمران ، أو الحفظ الكثير ، بل تعتمد على الخيال ، ودقة التصوير ، واحتدام العواطف ، والانفعال النفسي بجميع أنواعه ، وتلك مواهب تكوينية في طبيعة الفرد لا سلطان له على التحكم فيها ، كالصوت الجميل ، والميل الى الفنون والاجادة فيها ، فهو لم يصل حتى الى مستوى شعر جده لأمه عبيد الله - كما سيأتي - في مذكراته ، وها نحن نورد الأبيات التي أثبتها في مذكراته دليلاً على ما ذكرناه .

قال : « وكاتبت الشيخ ماء العينين » الشنقيطي الحوض من مراكش ، ومدحته بقصيدة منها :

أفي ثنــائي عن إطالــتي الثنـا	ومورثي عن مدحـك التقصـيرا
أني إذا حاولـت مدحاً لم أطق	عن بعـض مـا حاولته التعبيرا
يـا من لو أن جريراً أصبح رائماً	من مدحـه المعشار فات جريرا
مــني إليـــك تحيـــة لوشمهـا	عرب العذارى ما استطبن عبيرا

فها إن ضعف التأليف واضح في هذه الأبيات التي لا تهز المشاعر ، ولا تدل على تمكن في براعة المدح ، وجمال التصوير ، كما أنه استعمل « الثناء » في الأولى وأراد به « الثني » التي بمعنى الطي ، والتقصير ،

وهي بمعنى المدح، ولا يصح أن تستوي في المعنى، في الاولى والثانية، كما يظهر من قصده، وبعد: فهو لم يذكر المعادل لهمزة الاستفهام، لأنه ليس إنكارياً. والمعنى على العموم مضطرب، كما أن جريراً لم يشتهر الا بالمهاجاة بينه وبين الفرزدق، فلا غرابة في عجزه عن المديح. وقد سبقت الاشارة الى أن المعنى في هذه الأبيات مقتبس من أبيات لمحمد بن سالم البنعمري من قصيدة يمدح بها الشيخ سيديَّ الكبير حيث يقول:

فشأني الصمت، إن الصمت أبلغ من ... نطق الألى، زعموا، أن بالغوا فيكا
أقررت بالعجز عما فيك يا أملي ... إذ فيك ما فيك، مما الله موليكا

مع الفارق بين ركة شعر الشيخ، ومتانة شعر البنعمري - كما تقدم -.

وهذه أبيات أخرى في مدح الشيخ ماء العينين أيضاً:

زارته مخلاف وعد الحب مخلابه ... والفجر منصدع في الأفق كذابه
فظل في غمرات الشوق ذا غرق ... وابتل من عبرات الدمع جلبابه
أيام إذ لم يرعه من أحبته ... بينٌ، ولا من غراب البين تنعابه
تلهيه من فتيات الحي آونةً ... أترابه، ومن الفتيان أترابه
والشمل مجتمع، والبين منقطعٌ ... والدهر في سنة مغلولة نابه
يا قلب صبراً فذا دهر تقلُّبه ... جم، فلا يزه منك الحلم تقلابه
ليست بثابتة أطناب خيمته ... ولا بثابتة الأوتاد أطنابه

ولا تختلف هذه الأبيات عن سابقتها في العجز عن اختيار الألفاظ التي ترسم الصور الحية، النابضة بالمشاعر المرهفة، أجل انه أراد أن يملي أحاسيسه الصادقة للشيخ ماء العينين، متشوقاً لملاعب صباه، وذكريات

أترابه، ولكنه عجز عن ذلك، وأعوزه الخيال، وجمال التصوير، كما أنه وقع في شيء من التناقض، فكيف تكون قد زارته، وهو يصفها بخلف الوعد، والمخادعة ولا تزوره الا وقد ظهر النهار، وانبلج الصبح، على خلاف عادة المحبين الذين يفترقون في مثل هذا الوقت خشية الافتضاح وقالة الوشاة، وها هو الشريف الرضي يقول:

واكتم الصبح عنها وهي غافلة حتى تكلم عصفور على علم
فقمت أنفض برداً ما تعلَّقه غير العفاف، وراء الغيب والكرم
وألمستني وقد جدَّ الوداع بنا كفّاً تشير بقضبان من العنم
وألثمتني ثغراً ما عدلت به أريَ الجنى ببنات الوابل الرُّذُم[1]

فاختيار الزيارة عند إنبثاق الفجر اختيار غير صحيح، إذ العادة أن المحبين يفترقان في مثل هذا الوقت خشية انكشاف سرهما، ولكن أنَّى للشيخ الشنقيطي أن يعرف ذلك، ويبدو أنه لم يجرب الحب، ولم يعرف أسراره. ولا نريد أن نسهب في تحليل الكلمات والعبارات التي لا تدل على حسن اختيار، فهي ظاهرة في جميع الأبيات.

وكتب الى الشيخ أحمد بن الأمين العلوي - مؤلف كتاب الوسيط - وهو في الآستانة، الأبيات التالية:

مـــني لأحمد في فروق سلام عَطِر عليه من البهاء لثام
يزري إذا قرع المسامع لفظه وتأملت مضمونه الافهام
بمدامة قد عتقت في دنها ما لم تعتق في الدنان مدام
ثجت بماء غمامة في أبطح بالليل غادره وسار غمام[2]

---

(١) ديوان الشريف الرضي.

(٢) قال: «ثجت»، بالثاء، هكذا في الأصل، وأعتقد أنها محرفة من «شجت» بالشين، =

وبعرف روض في يفاعٍ مشرفٍ جادتـه من نوء السماك رهام
وعليك من بعد السلام تحية ومن الالـٰـه تحيـة وسلام

ولا أعلم كيف يشبه البهاء باللثام؟ كما لا أعلم كيف يكون هذا اللثام من البهاء محيطاً بالسلام العطر؟ ثم ما وجه الشبه بين السلام العطر والمدامة المعتقة؟ أفي السكر، أم في الريح؟ كما كان الأولى أن يقول: إما تعتق، ولا يصح أن يقول - ما لم تعتق - فنفي التعتيق عن المدام نفي للصفة الحسنة عنها. وأما البيت الرابع فكأنه أخذه من قول كعب ابن زهير في الحاشية أدناه، ولكن أين هذا من ذاك؟ وفي البيت الأخير تكرار لفظي فقط، لأن السلام بمعنى التحية.

ولو استطاع الشنقيطي الاستمرار على نظم الشعر، ومزاولة أغراضه لجوَّد فيه، إلا أن حصر نظمه الشعر في الرسائل، ووصف الاشواق والتحايا بعبير المسك، أو الخمرة، أو ماء الغمام، أو ما أشبه ذلك، فهي صور هزيلة وأغراض مستوحاة من التقليد الجاف.

ومن شعره - أيضاً - ما كتب به الى الشيخ أحمد الشمس، وهو إذ ذاك في مدينة فاس، الأبيات التالية:

تحيـة تتلاشى دونهـا الكـاس ممزوجـة بزلال المـاء والآس

= أي مزجت. فيقال: شج الشراب بالماء: مزجه. ومنه قول كعب بن زهير في قصيدته البردة المستهلة بـ(بانت سعاد). في البيت الآتي:

شجت بذي شَبِمٍ من ماء مَحْنَيَةٍ صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول

أي مزجت بالماء، وبذي شبم: أي بماء ذي شبم وهو البرد، والمحنية: منعطف الوادي لأن ماءها يكون أصفى وأرق. والابطح: مسيل فيه دقائق الحصى. والمشمول: الذي ضربته ريح الشمال حتى برد.

حزّت عروق فؤادي من فراقهم فاس اشتياق، وقد حازتهم فاس
يا أيها الناس إني لست ناسيكم فلا تكونوا إذاً ناسيٍّ يا ناس
ليست بآنسة عيـــني بغـــيركم وليس من دونكم للقلب إيناس

ففي البيت الأول إقواء بالنسبة لما بعده من القافية المضمومة. وأما قوله «فاس اشتياق» فهو تشبيه كنائي غريب، إذ كيف يعبر عن شدة الشوق بالفأس التي تحز عروق القلب من شدة الفراق؟ ثم ما معنى البيت الأول؟ وكيف توصف التحية بأن تتلاشى دونها الكاس، وما وجه الشبه في ذلك؟ ثم كيف تتلاشى الكاس دونها؟ إلا إذا أراد بها الخمرة وهي من أسمائها وقد أرادها حقيقية، ولتخليص القافية من الاقواء تعرب - الآس - معطوفة على - الكاس - وفي هذا تعقيد لفظي واضح، ولم يزد على أن شبه التحية بالخمرة كعادته، مع بعده وبعد مخاطبه عنها، ولكنه التقليد ليس غير.

وربما أجاد التعبير عن صدق مشاعره في البيت الأخير ولو أنه أبدل كلمة «عيني» بـ«روحي» أو «نفسي» لكان أشد وقعاً، وأقرب لصحة المعنى، لأن الايناس لا يكون بالعين، بل هو شعور عام في الروح والنفس.

وأما قصيدته في مدح الشريف حسين، فلا تخرج عن مستواه في نظم الشعر، من حيث رسم الصور، والأوصاف التقليدية، البعيدة عن الابداع والابتكار، فهو يحاول أن يتغزل في استهلالها - كعادة القدامى - ولكنه غزل جامد بارد - كما يقولون - فهو لا ينفك عن تشبيه التحية بالخمرة، أو أريج المسك، وفي سبب نظمها يقول في مذكراته الخطية:

«وأثناء إقامتي بمكة والطائف توفي الشريف عون، وتولى ابن أخيه الشريف علي[1]. فأشار علي الشيخ أبو شعيب بالسلام عليه، كغيري، وكان يعرفني يوم كنا عند الشريف زيد، فعملت قصيدة وأنشدتها بين يديه، فاستحسنها ومنها»:

سلام أريج المسك من دون نشره ‏ ‏ ‏ ‏ وينسي نديم الخمر صهباء خمره
وينسي من المحبوب وردة خده ‏ ‏ ‏ ‏ وأجفانه المرضى ودقة خصره

واختتمها بقوله:

خذوها على علاتها وعليكمُ ‏ ‏ ‏ ‏ سلام أريج المسك من دون نشره[2]

ولا حاجة بنا الى التعليق على هذه الأبيات، التي أدرك الشنقيطي نفسه ركتها في قوله «خذوها على علاتها» وفي الحقيقة فهو كما قلنا لم يمارس الشعر ممارسة شعراء شنقيط الفحول، ولم يكن مهيئاً لأن يكون شاعراً.

وتقدم خبر التقائه - وهو في مراكش - بأحد أصدقائه، من تلامذة الشيخ ماء العينين، وهو الشاعر، الشاب، الظريف - محمد النشني - الملقب بـ(البسيطي) لأنه لم يكن ينظم الشعر الا في بحر

---

(١) هكذا في الأصل، والصحيح هو: الشريف حسين بن علي، وقد مر شرح ذلك، وربما كان من سهو النُّسّاخ.

(٢) وكأنَّ الشنقيطي كان يردد في جميع هذه المناسبات قول الشاعر حرم بن عبد الله العلوي في البيت الآتي في مدح آل أعمر كداش حيث يقول:

وعليكم منا السلامُ سلامٌ ‏ ‏ ‏ ‏ كشذا المسك بعد هَدْءٍ أذيعا

وقد سبقت الاشارة الى ذلك في ذكر الأبيات كاملة.

البسيط، وعند التقائهما بادره البسيطي - وقد سئم البقاء في مراكش - بقوله، شعراً:

مـا الرأي عنـدك في فـتى تباعد عن أوطانه لمكان ليس فيه فتى[1]

قال: فأجبته على الفور:

ما الرأي عندي له غير الرجوع الى بلاده، والى من حيث جاء أتى

ولا يكن لسوى الرجعى وإن ظفرت يـداه بالفوز بالمطلوب ملتفتـا

ويبدو من هذا أن للشنقيطي ذهنية شعرية، وميلاً لنظمه، ولكن قلة ممارسته قعدت به دون ذلك.

وآخر ما نختم به هذا الباب من نماذج شعره، ما ورد في مذكراته حيث قال:

«وكنت أكاتب أهلي، وهم يحثونني على العودة، ومما كتبت لهم: »

أخـلاي إني جـازم باصابـتي وبما خلفتموني فيه غير مصيب[2]

---

(١) هكذا في الأصل، وأعتقد أنه حصل تحريف في بيت البسيطي، حيث لا تطابق بين صدر البيت وعجزه في وزن البسيط، وربما كان أصل البيت هكذا:

مـا الرأي عندك في نائي الديار فتى الى مكـان تعنّـى ليس فيه فتى

أو قريباً من هذا لينسجم الوزن، وكذلك البيت الأول في جواب صديقه محمد الشنقيطي، فأعتقد أنه أراده هكذا:

ما الرأي عندي له غير الرجوع الى بلاده والى من حيث (كان) أتى

لأن قوله «جاء أتى» لا معنى لها، اذ الفعلان جاء، وأتى، مترادفان في المعنى، وربما كان السؤال والجواب غير ذلك وحدث فيهما تحريف من قبل النسَّاخ.

(٢) هكذا كان البيت في الأصل ولا يستقيم به المعنى، وربما كان هكذا:

أخـلاي إني جـازم باصابـتي ومـا خالفتموني فيـه غير مصيب

قد يكون من وهم النساخ أيضاً.

فلا تنكروا تطلابي العلم نائياً | فما النأي في تطلابه بعجيب
ولا سيما علم الحديث فانه | بهاتيكم الأقطار جد غريب
فذاك الذي في البحث عن أمهاته | باسنادها باعدت كل قريب
وفارقت في تطلابه طالباً وفي | محبته فارقت آل حبيب
وأسأل ربي أن يوفقني وأن | يسدد أمري، وهو خير مجيب

والخلاصة: فان شعر الشيخ الشنقيطي لا يرقى - كما قلنا - الى درجة شعراء شنقيط، على أنه مقل جداً في نظمه، وذلك دليل على عدم رغبته فيه، وقلة ميله لتعاطيه، فهو لم يترك لنا شعراً يصح أن يقال عنه بموجبه، أنه شاعر.

٤٨ - مؤلفاته:

لم يكن له من مؤلفات غير مذكراته التي كتبها وهو ناءٍ بجنبه عن الأعداء، يوم كان في القصيم، وتقع هذه المذكرات في سبعين صفحة من القطع المتوسط، وقد لخصنا أهم ما ورد فيها مما أهمنا ذكره في هذا الكتاب، وما ورد بها من نماذج شعره الذي أتينا على ذكره، والتعليق عليه، وتكاد تكون المصدر الوحيد الذي عثرنا عليه في شرح تاريخ حياته من حيث نشأته، وتغربه في طلب العلم، وزواجه، وما مر به من أحداث، خصوصاً في الزبير، وما صادف من محنة كادت تجر عليه البلاء، لو لم تتداركه عناية الله. وفي هذه المذكرات بيان لأسلوبه في الكتابة، الاسلوب الجيد، المتصف بالاعتدال، وضبط المشاعر، حتى مع أعدائه، ومع من آذوه، وأرادوا الفتك به، فهو لا يتهجم عليهم، ولا يخرج عن دائرة الحلم والأدب في مخاطبتهم، ولم يرد في كل ما رواه عنهم ما يستنتج منه جرح عاطفة أي أحد منهم، وهذا نابع - ولا شك -

من حسن خلقه، ورصانة حلمه، وورعه وتقاه، ولهذا السبب فسنثبت ما لخصناه منها بعبارته نصّاً مع شرح وتوضيح ما وجب شرحه وتوضيحه، واكتفينا بها عن ذكر أساتذته لأنه أتى على ذكرهم فيها، كما أن في ذكره الكتب التي عكف على دراستها دليلاً على درجة علمه، يوم كان العلم يقاس بالكتب، وبالأساتذة، ومن هذه المذكرات أيضاً عرفنا مدة دراسته، والسنين التي قضاها في طلب العلم، ولما كان بعض تلك الكتب يكاد يكون مجهولاً بالنسبة للدارسين اليوم، من غير المختصين، فقد اضطررنا للتنويه، والتعريف بأكثرها، لأنه يذكرها بشهرتها آنذاك، أو بشهرة مؤلفيها، أو يكتفي بذكر ألقابهم، أو كناهم فقط، مكتفياً بمعرفتها لدى أهل العلم حينذاك، كما سيأتي:

أما لماذا لم يكن له من مؤلفات مع سعة علمه، وغزارة اطلاعه؟ فنقول: بالنسبة لما عرضناه من تاريخ حياته، وما نظنه من أسباب يجب توفرها للمؤلف، ولم تتوفر له، كانت السبب في صرفه عن التأليف والتدوين. ومن جملة الاسباب الواجب توفرها - مثلاً - الاستقرار، وهدوء البال، والجو المناسب للتأليف، والوقت الكافي، وكل هذه كانت معدومة لديه. فما أن حط رحاله في الزبير، وانبرى للوعظ والارشاد، حتى أسخطت آراؤه عدداً كثيراً من أئمة المساجد، ورجال الدين، ومن شايعهم، وناصرهم من العامة، الأمر الذي أشغله بنفسه، وبالدفاع عن وجهة نظره، حتى كادت تقع فتنة عارمة بسبب ذلك، ولم يستطع التخلص من التقوّلات، لما رمي به من زيغ وضلال، الا بعد الدفاع الشديد، والجهود المضنية، وحيث انتهى الأمر بالتجاوز عليه بالضرب والاهانة، كما أنه ارتبط بزواج وأولاد يلزمه التفكير بإعالتهم، ولا مال

له، ولا مورد يعتمد عليه في ذلك، الا ما يقوم به من خدمات في التدريس، والوعظ والارشاد. يضاف الى ذلك ما لقيه في الكويت من عنت الشيخ مبارك الصباح وابنه الشيخ سالم في التهديد والطرد بغلظة واستعداء، ناهيك بظروف الحرب القاسية، وانغماسه فيها، بحمله السلاح في معركة الشعيبة، والمعارك الأخرى، وبالخطب الحماسية لتثبيت المجاهدين ضد الاحتلال البريطاني، ثم تشريده، مرة الى بغداد، وأخرى الى نجد، ثم الى الحجاز، والعودة الى الكويت والهروب منها الى البصرة. يلي ذلك اشتغاله بتأسيس مدرسة النجاة، وما بذله في ذلك من وقت وجهد في تأسيسها وتنظيمها، ووضع مناهجها، والعكوف بعد ذلك على سير التدريس فيها. حتى نمت واستقامت، وازدهت، وأزهرت، وأثمرت. فكل هذه الظروف وكل هذه الجهود استبدت واستأثرت بكل حياته ووقته، ولم تدع له مجالا للتفكير حتى في نفسه كما أنه وجد نفسه تجاه أولاد يجب الانفاق عليهم، وتعليمهم، والعناية بهم، وأخيراً فإن المنية لم تمهله حيث توفي - رحمه الله - كما ذكرنا سنة ١٩٣٢م وكان عمره لم يجاوز السادسة والخمسين. أمضى منه ثلاثاً وعشرين سنة في الطفولة وطلب العلم، فكل دواعي التأليف تكاد تكون معدومة لديه. وكأنه فكر - رحمه الله - أن يقصر اهتمامه في تأسيس المدرسة أكثر من التأليف، لأن ذلك أجدى في بلد تكون الأمية الصفة السائدة فيه، ولأن التأليف قد لا ينتفع منه الا من وجد الاستعداد للانتفاع في ما لديه من مؤهلات تمكنه من قراءة الكتب والاستفادة منها، وفهم ما يقرأه فيها، ولكن الحاجة الى المدرسة كانت حينذاك أشد الحاحاً وإنقاذاً للنشء من براثن الجهل والأمية السائدة، ومثله في هذا مثل الطبيب الذي يضطر

الى معالجة المريض المشرف على الهلاك بنقل الدم له قبل أن يموت، وفي الحقيقة، فان علاج الجهل في الأوساط التي تشيع فيها الأمية ليس بالتأليف الذي لا يجد الكتاب في ذلك الوسط من يعكف على قراءته وفهمه، ولكن بنشر المدارس التي لا تلبث أن تدفع بالأجيال تلو الأجيال الى سلم المعرفة، وتفتح قلوبهم، وأبصارهم لنور العلم، وإذ ذاك فقط تنفعهم الكتب والمؤلفات، ولو أن الشنقيطي عكف في حينه على التدوين والتأليف لعكف في داره، أو في غرفة من غرف المسجد، وانزوى بين المصادر، والأقلام، والورق، والمحابر، وربما لم يترك بعده الا المخطوطات التي قد يقيض لها من يطبعها. وقد تبقى مهملة ضائعة ككثير مثلها، ولكنه اختصر الطريق في نشر العلم، وأنجب طلاباً ملأوا الأرض في خدمة العلم، وسدوا الفراغ في مكافحة الجهل وبناء الحضارة الفكرية. ومدرسته لا تزال قائمة تؤدي رسالتها على الطريقة التي رسمها لها مؤسسها - المرحوم - الشيخ الشنقيطي، فهو في رأيي معذور كل العذر إن لم يجد متسعاً للتأليف في نشر رسالته التي لم تقدم رواداً في مدرسته وطلابه الذين كان من أشهرهم: الدكاترة عبد الرحمن وعبد الله وعبد العزيز أنجال ابراهيم البسام، والاساتذة: عبد الله محمد الشبل الذي أكمل دراسته في الكلية العسكرية في بغداد سنة ١٩٣٧م وأشغل عدة وظائف ذات أهمية إدارية وعلمية، والمحامي عبد الرزاق الحمود، وأحمد الحمد الصالح الذي كان مدير غرفة تجارة البصرة، والشيخ ناصر الأحمد الذي خلف أستاذه في مهمته على إدارة المدرسة، والشيخ محمد العسافي، والشيخ عبد الرحمن السعدي، الذي كان قاضياً في عنيزة من بلاد القصيم، وعدد آخر غيرهم ممن أصبحوا رجال علم، وأدب، وقانون.

وتجاراً بارزين من أهالي الزبير من غير عدّ ولا حصر.

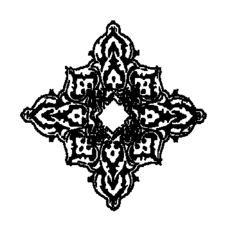
وأخيراً، فسيظل الشنقيطي حياً خالداً في رسالته الدينية العلمية الفكرية الصحيحة متمثلة في مدرسته وطلابه، ومريديه الذين لم يزالوا سائرين على نهجه في الاستمرار على إدارة المدرسة، ودفع مسيرتها بما أوتوا من حول وقوة، وصمود راسماً للأجيال من بعده طريق التضحية، وإنكار الذات في سبيل الحق، والاعتزاز في سبيل العقيدة، والصمود من أجل الاخلاص لله، والزهد في العرض الزائل من أجل مرضاته تعالى.

وعسى أن أكون قد قمت ببعض ما يجب له من وفاء في خدمة الدين، جزاءً وفاقاً لما قدم، وبذل، وضحى في سبيل ذلك.

انتهى

في ١٦/جادى الأولى/١٣٩٧ هـ - ٤/أيار (مايس) /١٩٧٧ م

الأعظمية - السفينة -



الملخص من
مذكرات الشيخ محمد أمين الشنقيطي

نقلاً عن نسخة بخط الأستاذ أحمد حَمَدْ آل صالح، مدير غرفة تجارة البصرة، نقلاً عن نسخة بخط السادة: عبد الله عبد الرحمن البسام، وسليمان صالح البسام، وعبد الله محمد المنصور. استنسخوها في عنيزة بنجد سنة ١٣٣٦ هجرية من نسخة بقلم الشيخ محمد نفسه (صاحب المذكرات)، وكان موجوداً ثمة آنذاك، كما ذكر الأستاذ أحمد حمد الصالح بنسخته، نقلاً عما أفاده به عبد الله العبد الرحمن البسام في البصرة عند قدومه من عنيزة، وذلك في صباح يوم السَّبت ١٨/ ربيع الثاني/ ١٣٧٥هـ - ٣/ كانون الأول من سنة ١٩٥٥م.

وهي طويلة، تقع في سبعين صفحة تقريباً من القطع المتوسط، ولكنها ناقصة بالنسبة لتاريخ كتابتها فأكملها تلميذه الشيخ ناصر الأحمد بالنسبة لأهم الأحداث حتى تاريخ وفاة صاحبها. فنقلت منها بنص عبارته ما اتصل بحياته، ونشأته، ودراسته وأساتذته، وأضفت إليها التكملة بنص عبارة الشيخ ناصر أيضاً.

وها أنا ذا أدونها مع تكملتها هنا، بأمانة، كما وردت، تاركاً الاسهاب، والتفاصيل، والاستطرادات الواردة فيها، شارحاً، وموضحاً بالهامش ما وجب شرحه، وتوضيحه فيها.

قال بِنَصٍّ عبارته:

« أنا الفقير الى الله تعالى أبو عائشة، محمد فال الخير، وهو لقب لبني أمين، ويقال الأمين السالم بن عبدي بن فال الخير بن حبيب الله بن أَبي « بفتح الهمزة » بن حبيب بن أحمد بن أَعْمَر كداش الحسني. وأمي عائشة بنت عبيد الله بن إِبَّن « بكسر الهمزة، وتشديد الموحدة المفتوحة آخره نون، بوزن قِنَّبْ » بن أحمد الخليل بن حبيب الله بن أبي، إلى آخر النسب المتقدم.

كان أبي وجدّي من أعيان قبيلتنا، ولكنهما لم يتسما بصفة العلم كأسلافهما، وكان والدي تشبث بطلب العلم ولكنه لم يحصل كثيراً، وكان – رحمه الله تعالى – شديد البر بوالدته، وصولاً للأرحام، محسناً إلى أقاربه، وكان مولعاً بالاذكار الواردة، كثير المطالعة للحصن الحصين للجزري، يحفظ جل ما فيه من الاذكار، مواظباً على قراءة تلك الاذكار مساءً وصباحاً، وعند النوم. والدخول، والخروج، وغير ذلك، وكان يلقننا إياها، ويحثنا على استعمالها. وكان جدي، فال الخير، وأبوه حبيب الله من أهل العلم، إلا أن عبدي أخمل ذكرهما. وكانت والدتي تحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولها اشتغال بطلب العلم، ولكنها باغتتها المنية في حداثة سنها، وأنا لا أعرفها، لأنها ماتت وأنا صغير لا أعقل، وإنما أخبرت عنها.

وكان جدي لأمي - عبيد الله - علامة، شاعراً، وشعره وسط، وله اليد الطولى في الفقه والعربية، ولا سيما معرفة اللغة. قال لي يوماً شيخنا عبد الله بن رحمّين[1] - الكريمي: كان جدك عبيد الله يحفظ مقامات الحريري عن ظهر قلب، وله مناظيم حسنة في الفقه وغيره، وقد أدركته إدراكاً لا يذكر، وأم عبيد الله - غَيْد - بنت الشيخ عبدي المتقدم الذكر[2].

ولما قدمت المدينة آخر سنة ١٣٣٣ هـ، اجتمعت بابن عبد الحميد العلوي بالحرم الشريف، وكان قد سمع من غيري أنني حسني، فسألني: من أيهم أنا؟ فقلت له: أعمري. فقال: من أيهم؟ قلت: أحمدي. فقال: ذلك اللباب. وأعمر كداش هذا هو أبو بطن كبير، يجمع عدة أفخاذ غير آل أحمد، وأما قولنا: الحسني، فنسبة الى الحسن بن أبي الحسن، وليس هو ابن علي بن أبي طالب، وإن كان يقال إنه من ذريته، وإنما هو حسنٌ آخر، جد قبيلة كبيرة، مشهورة، قديمة، تنزل في القسم الجنوبي من صحراء شنقيط، وناحيتهم التي هم فيها تسمى: القبلة، ومياههم على الخصوص تسمى: العُقل. وقد أكثر الشعراء من ذكرها، فمن ذلك قول محمد بن بدّي العلوي[3]:

=

---

(١) هكذا في الأصل وتقدّمت الإشارة إلى أن صاحب الوسيط أثبته بلفظ: «إبن حامَّنَّ» بتشديد الميم والنون المفتوحتين وهو من قبيلة الأغلال البكرية ص ٩١.

(٢) هكذا في الأصل، ولا يمكن أن تكون-غيد-أم عبيدالله «أي جدّة أُمه لأبيها» بنتاً للشيخ عبدي الذي هو والد محمد بن عبدي (المترجم) حيث تصبح أخته وهي جدة أُمه، وهذا غير معقول، إلا إذا كان الشيخ عبدي هو غير عبدي والد (المترجم).

=

= (٣) وهو في الوسيط: محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب بن حبيب وينتهي نسبه إلى يحيى بن عبدالله المحض كما تقدّم شرح ذلك مفصلاً، وقد برع في عنفوان شبابه بالعلوم، ولكنه كان ميّالاً لنظم الشعر فبَزّ فيه الشعراء وبلغ صيته في قطره مبلغاً لم يبلغه أحد ممن عاصره، حتى غطت شهرة شعره على علومه، مع أن له اليد الطولى في العلوم العربية والفقه. وبدِّي، تحريف (أُبُدَّ) لقب غلب على محمد بن محمود بن محمد بن أحمد بن خيار القاضي.

و«المليحة» في البيت تُعرف عندهم بـ«لِمَيلْحَه» وهي منهل لأدوعل، قبيلة من قبائل الزوايا، ويقال لهم العلويون نسبةً إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). كما في الوسيط ص ٤٦٦.

وأما مطلع القصيدة في البيت المذكور، فقد رواها صاحب الوسيط هكذا:

شمر لعل رسيم الأنيق الذلل ... من بعد عشرين يدني ساكني العقل

وربما كانت أقرب إلى المعنى الصحيح. أي من بعد عشرين يوماً. وأما الأنيق العشر التي مر على حملها عشرة أشهر فليست معنية بسرعة الوصول إلى ساكني العقل، والعقل مواضع معروفة لها آبار غير طويلة بالنسبة لما يقال له بئر في عرفهم،

ويقول من هذه القصيدة:

سر مدمناً عبر أمواج الهجير وسر ... تحت الدُّجى ثالثَ البيداء والأبل

وأعص العذول فمشتاق الأحبة من ... ما إن يميِّز بين العذر والعَذَل

وأصحب دليلاً من الشوق المبرِّح إن ... مال القطا عن سبيل القصد لم يمل

وأجعل مهادك بطن الرحل من جملٍ ... جون الموخَّر أو وجناء كالجمل

رعت من الروض في أكناف دومس ما ... لم ترعَ منه بجني هضبة الوعِل

ومنها:

سهلٌ تجشمي البيداء مُعْتَسِفاً ... لو كنت من وصلٍ من أهوى على أمل

إني وإن ملت يا ذي عن مودتنا ... عما عهدتِ لديَّ الدهرَ لم أحُل =

....

= سلي فؤادي عـني: هـل سلوتـكم | والجفن بعدك: هل ذقت المنام؟ سلي
بورد خداك إلا ما وصلت أخا | بث، ألم يأن بعد الهجر أن تصلي؟
صلي أخا كلفٍ كم بات من شغفٍ | إلى لقاك سمير النجم، أو زحل

ومحمد بن محمد أو (محمد بن أُبُّدَّ) هذا من الشعراء المشهورين في شنقيط، وله أخبار طريفة في الشعر واللغة والأدب، ومن أكثرها طرافةً ما جرى بينه وبين سيدي محمد بن الشيخ سيديَّ حيث اتفق أن أحد تلامذة الشيخ سيديَّ أنشد أبياتاً لسيدي محمد المذكور وأوّلها:

يا معلمين قلاصا حاكت الحِرَفا | صارت وصارت لها أنواعه حرفا

فتوقف محمد بن محمد في جمع حَرّف على حِرَف، ولم ينكر ذلك بل كان مستفهماً لأنه خلاف القياس، فاتصل ذلك بصاحب البيت بأن محمداً لحّنه. فكتب إليه أبياتاً ينتقده ويجهله، ومنها:

يا منكراً جمعنا حرفاً على حِرَفٍ | لتتئد، لا تكن للمرتمى هدفا
إنكار من ليس يدري أشدد به غَرَراً | إذ هو من جُرُف الألحان فوق شفا
ينهار من هذر والصمت يثبته | والفرّ قبل اللحاق للجبان شفا

إلى أن يقول:

لو خضت لجة قاموس وجدت به | دراً جلا جلو مصباح الدجى السُّدفا
حرف الكدى لا سواه جمعه حِرَف | ووزنه عنبٌ والجمع قد عرفا
ثانيه طَلٌّ ولم يجمع على فِعَل | فَعْل سوى ذين قد كانا به اتصفا
والعلم ذو كثرةٍ في الصحف منتشرٌ | وأنت يا خلُّ لم تستكمل الصحفا

فلمّا وصلته الأبيات استغرب، وأمر رجلاً كان معه أن يكتب فأملى عليه ارتجالاً أربعين بيتاً في ذلك البحر والروي، وفيها يقول:

مني إلى ابن كمال الدين من خَلَفا | بين الورى أحمد المختار والخُلَفا
أزكى سلام يحاكي حسن سيرته | وطيبَ شيمته لا روضة أنفا
سيديَّ قطبِ رحا أهل المعارف من | أمسى يجدِّد رسم الدين حين عفا =

= إلى أن قال:

إعلم أيا خِلُّ إني لست حاسدكم ... وإن مني لكم محضُ الوداد صفا
لا تسمعن ما وشى بعض الوشاة به ... واسمع مقالي فليس الأمر ما وصفا
إذ قد حكى البيت راويه على حِرَفٍ ... قد كان ذاعن قياس الجمع منحرفا
ما كان من شيمتي نكرٌ على أحدٍ ... يأبى لي النكرَ طبعٌ منه قد أنفا
ولا مجافاة أرباب الجفا شُغُلي ... مثلي إذا ما جفا حِلْفُ الجفا صدَفا
وإن أتى صائلاً ذو الضعف يوعدني ... فالله يعصمني من صولة الضعفا
قد سرّه جريه في القفر منفرداً ... فظن سرعتَه فيه وقد دَلفا
أقصر بطرفك لا تطمح إليَّ به ... فشأن من ليس يدري الجريَ أن يقفا
ومن يخض لجة القاموس ليس له ... فُلكٌ تقيه من الألحان قد تلفا
أهدى إلَيَّ من الأشعار مضحكةً ... للخلق أودعها من لحنه كَسفا
إذ صير الهمز همز القطع متصلاً ... وقال جلوى، وجلوا ثمَّ ما ألفا

إلى أن يقول:

والشعر صعب عزيز ليس يدركه ... سوى ذكي حديد الفهم قد ثقفا
لا يكسب الشعر تبجيل وقولهم ... عسى تكون لنا من شيخنا خلفا
كلاَّ ولا أنا نجل الشيخ سيدنا ... أبي وأمي قد فاقا الورى شرفا

ويستبين من هذه المناظرة، أو هذه الملاماة، شدة حرص شعراء شنقيط على الالتزام بقواعد اللغة والنحو إلى حدٍ كبير، ولا غرو فهم أساطين هذه الفنون، مع روعة الإبداع، ودقة التصوير، ومرهف الحس، وقد أراد في البيتين الأخيرين أن شرف النسب، والتفاف المتزلفين حول الشاعر يشيعونه بالمدح والإطراء، لا يشفع له بجودة الشعر ولئن كان المعني هو ابن الشيخ سيديَّ الكبير فإن محمداً بن محمد علوي الأب والأم.

وعلى أثر هذا الرد تداعى تلاميذ الشيخ سيديَّ على هجو ابن محمد فلم يكترث بهم لأنه رآهم دونه، ولما بلغ ذلك الشيخ سيديَّ وانتصارهم لابنه، دعاهم وقال لهم: إن انتصرتم لابن شيخكم فإني أنتصر لابن شيخي، وكانت أم =

....

= محمد المذكور بنت حرم بن عبد الجليل العلوي، وكان الشيخ سيديَّ تلميذاً له، وهذه إحدى مكارم أخلاق الشيخ سيديّ. ولما بلغ الخبر ابن محمد صاحب هذا الرد، أقسم ليذهبن إليه ويطلب منه الصفح، فركب وأناخ في مسجد الشيخ وأنشده قصيدة تعذّرية رائعة قال في مطلعها:

هاجت رسيس بلابلي وهمومي قسراً دوارسُ أربع ورسوم
أودت بهنَّ يد الزمان فأسأرت كالوحي أو كمرجَّعاتِ وشوم
كانت لروض اللهو مرعى فانتهت للعين مرعى الشيح والقيصوم
لله ما جلبت له عرصاتها من ذكر عهدٍ للشباب قديم
فأراد يكتم ما به وبدمعه ظهرت ضمائر سرّه المكتوم

إلى أن يقول:

ولكم سحبت بربعها بُردَ الصِّبا وشربت عذب رحيقه المختوم
ولكم عمدت إلى الملاعب مائساً كالغصن عطَّفه هبوب نسيم
ولكم رشفت من الشفاه بربعها عذب الزلال بعانِق الخرطوم
قد خنت عهد عهودها إن لم أقف حيران يلتهب الأسىٰ بحزيم
بل لم أقم بحقوقها إن لم أقم منهلّ جفن بالدموع جموم

....

ومنها:

لما رأت دِمَنَ الصبابة والهوى سفهن حلمي، واستبحن حريمي
هبت تلوم ومن يلم متذكراً عهد الشبيبة لامَ غير مُليم
فأجبتها نهي المحب كأمره فدعي الملامة في الهوى أو لومي
ما خلتني أجد السلو ولم تزل ذِكرُ الأحبة تستثير همومي

ويدلف إلى حسن التخلّص قائلاً:

هلا اهتديت بنجم شيبك إذ بدا فكم اهتدى ذو حيرة بنجوم
أو ما كبِرتَ عن النسيب ألا ترى عند العدول إلى امتداح كريم
بمحاسنٍ تنسيك ما للبيض من وجهٍ أغرِّ الوجنتين وسيم =

....

= هـذي محاسن من غـدا بصفاتـه ... مستوجـب الإجـلال والتعظـيم
من بالسيـادة والحامـد وسْمُـه ... وفـق اسمـه، فالاسم كالموسوم
نالـت من الرتـب العوالي كفّـه ... مـا لم تكن لتنـال كـف أريم
ألفـى المكـارم قـد تهدد ركنها ... فأقـام ساقـط ركنهـا المهـدوم

وهكذا يمضي قائلاً:

يـا راكبـاً يدنيـه ساحـة بابه ... تقريـب داميـة الأظـلّ رسوم
إبشر فقـد يمّمت مَن مِنْ ينحه ... يظفر بنيـل مؤمـل ومروم
إن سائـلاً يمّمـت بحر مواهـب ... أو جاهـلاً يمّمـت بحر علوم
أو مُشتـكٍ من ذي عـداء مَظْلِماً ... يمّمـت رفـع شكايـة المظلوم
عَلِم المعـارف والمعـاني والمعـا ... لي من أبٍ نَبِـهٍ بهن علـيم

ويصف كرمه قائلاً:

في كفّـه رزقُ الأنـام فكلّهـم ... ساع لموضـع رزقـه المقسـوم
فـترى البيوت أمامـه مملـوءةً ... مـا بـين نـاوي رحلـة ومقـيم

ومنها:

وترى القـدور رواسياً وترى الجفا ... ن لوامعـاً بجواضر المطعوم
من قاسه بالأكرمـين فإنـه ... في الشأو قـاس مجليـاً بلطـيم
بـل قاس ملتطم البحار بنطفـةٍ ... والروضَ غضـاً ناضراً بهشيم

والقصيدة طويلة رائعة، ويختمها بقوله:

مـني إليـك تحيـة تزداد مـا ... بعـث التشاجرَ من مشى بنمـيم
ونفـى إساءتـه بعتبـى معتـب ... وعـلا بصون الحـلم كـل حلـيم
وعـلى النـبي من الإلـه صلاتـه ... وسلامـه في البـدء والتمـيم

فأجابه الشيخ سيديَّ: ليتك هجَوتنا في كل يوم واعتذرت بمثل هذه القصيدة استحساناً لها.

= وله قصائد زاخرة بالإبداع والروعة. فقد مدح النبي صلّى الله عليه وسلّم بعدة قصائد بلغت الذروة، وعند ذهابه إلى الحج مر بمدينة مراكش فنزل عند محمد الأمين بن أبي ستة وكان من المقرّبين عند السلطان- مولاي عبد الرحمن- فلمّا بلغ السلطان خبر وصوله، طلب حضوره وأولاه الكثير من كرمه ورعايته، فمدحه بقصيدتين، استحسنها السلطان وبالغ في الثناء عليه. وبعد مقابلة السلطان عبد الرحمن، واحتفائه به وبمن كان معه، ركب البحر مع زميله متوجهين إلى الحرمَين الشريفين، وبعد قضاء الحج توفي- رحمه الله- بين مكة وجدة، وكان حياً بعد الخمسين والمائتين والألف (١٢٥٠هـ)، وله ديوان مجلّد ضخم.

ولا أريد أن أنهي بحثي قبل أن أروي شيئاً من شِعره في الغزل ليستبين سبيل أولئك العلماء الأدباء الشعراء في شنقيط (موريتانيا الإسلامية الحديثة) التي قد يجهل الكثير منا هذا الشعر الرائع الدفين.

قال في الغزل:

ردَّته بعد تمام الحلم والنّبه ... إحدى الجواري رهين الشوق والوله
إنَّ امرءاً سفّهته بعد كبرته ... بنات عشرٍ لمعذور على السَّفَه
كم قائل لي إلى كم لا ترى أبداً ... من نومة الحب إلا غير منتبه
فقلت لا تعجبي مني فكم سلبت ... حسناء قبليَ لبَّ الحازم النَّبه
يمين حق بمرآها المليح وما ... بالباطل الحقُّ ان يسمع بمُشتبَه
إن الذي قد جنى ما كان من ولهي ... لهى وإنَّ شفا برحِ الغرام لَهي

أرأيت إلى هذه الروح المرحة، وإلى هذا الشيخ العالم الناسك الذي لا ينفك متصابياً يأسره الحب، ويلهيه الهوى؟ ومن رقيق غزله أيضاً قوله من قصيدة في هذا الباب:

أما وكل خلوب اللحظ ساعِدُها ... والسّاق، غَضَّا بدملوجٍ وخُلخال
لفي الفؤاد هوى مني لعائش لا ... يبلى، وكل جديد غيره بال
ملَّ المعاتب فيه من معاتبتي ... فكفَّ عني، وملَّ العذلَ عذالي =

أرض العقيلات يا برق الحيا وعلى أحيائهـا لعيون الشائمين لـحِ
حول المليحة خيِّمْ، واغدون، ورح ثم اغدون ورح، ثم اغدون ورح

وكقوله أيضاً في مطلع قصيدة له:

شمِّر لعلَّ رسيم الأنيق الذلل من عُشَّرٍ لي يدني ساكن العقل

وبنو حسن ثمانية بطون كبار، أحدها - بنو أعمر كداش - ومما اشتهر به بنو حسن اكثر من غيرهم، كثرة الشعراء المجيدين، حتى ان الشعر يكاد يكون فيهم طبعاً جِبِليّاً، موروثاً، ولذلك قال محمد بن سالم البنعمري أحد شعرائهم:

= وطالما سمته كتماً فنمَّ به دمعي، وأخبر عنه مخبرُ الحال
دعني إليها أجوب البيد ممتطياً بزلاً تواصل إرقالاً بأرقال
أدني بها النازح النائي وأسبحها بحر الدجى وبحور الآل في الآل

ولا شك أن مثل هذا الشعر يصوّر عاطفة مشبوبة بالوجد، وقلباً يطفح بالغرام، مع جزالة في اللغة وجمال في الصورة. ومن قوله وهو صغير السن يدهش الناس بسلاقته وحدّة ذهنه، وقد اجتمع بالسيد محمد بن الطلب اليعقوبي الذي ينتهي نسبه - كما قال صاحب الوسيط في الصفحة ٩٤ - إلى جعفر بن أبي طالب، شهيد مؤتة. وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً جزلاً، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

فبِمَن أهيم بها لاموا ولو هاموا بمن أهيم بها يوما لما لاموا
هام الفؤاد بمن لولا ملاحتها ما سفهت من ذوي الأحلام أحلام
هام الفؤاد بخيتِ الناس بحت بها إذ في الكناية تلبيس وإبهام

... حتى أتى على آخرها، فقال له محمد اليعقوبي: «الحمد لله الذي جعلك في غير زمني» وكان محمد إذ ذاك شيخاً كبيراً. ومن أراد الاستزادة من شعره وأخباره فليراجع الوسيط في تراجم أدباء شنقيط - تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي - ص ٤٧.

النحو علم كفاني من تعلمه ملجُ الثَّدي، ثدي الهيف من حسن

وهو القائل أيضاً:

مصداق أني كريم العيص منتسبٌ الى قريش بيوت العز والجدل

نسجي القريض وإحكامي قوافيه ولا أميز بين العطف والبدل[1]

وقد أكثر الشعراء من ذكر بني حسن فمن ذلك قول محمد بن حنبل[2] وكان قد تغرب فصار يحن الى أهله ويقول:

يا ليت شعري وصرف الدهر دوّار وكل شيء له وقت ومقدار

هل تلهيني شباب من بني حسن بيض الوجوه كرام الأصل أخيار

تلهيك منهم خصال لست تسأمها علمٌ، وحلم، وآداب، وأشعار

لهم سجايا وأخلاق مهذبة كنفحة الروضِ إذ جادته أمطار

وأما رفع نسب حسن هذا الى من فوقه، فلم أقف عليه، ولم أبحث عنه، حين كان يمكنني البحث، ولم أزل أسمع من صغري، من أهلي وغيرهم أننا أشراف حسنيون، وممن سمعت منهم، محمد محمود التندغي الشنقيطي الذي كان في عمان، وتوفي بالعراق، يقول ذلك وشهادته عندي تعدل شهادة كثيرين، لما كان عليه من العلم، والورع، والنباهة، وعدم الغفلة، وسعة النظر في كل شيء، ويقول إن له خؤولة في بني حسن، وأن أهله، كانوا يعدون ذلك رحماً بينهم، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. وسمعت باب أحمد بن مصطفى بن العربي الأبييري، الشنقيطي،

---

(١) مرّت الإشارة إلى ذلك في الصفحة ٣٩.

(٢) راجع البحث عنه في الصفحة ١٥.

(٣) تقدّم التعريف بالشيخ محمد محمود التندغي بشيء من التفصيل في هامش الصفحة (٣١) أثناء وجوده بالعراق، وأما قوله إنه توفي بالعراق فقد أكد أنه =

قال: أنا سمعت أنكم من ذرية سليمان بن عبد الله المحض - قلت، ولست على ثقة من هذا الكلام، وهو ممكن، فإن سليمان الذي ذكره المؤرخون انه دخل الى افريقيا بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكيّة وأن له عقباً في المغرب، والسودان، وأن أكثر ذريته خفي أمرهم، فيحتمل أنهم من ذريته والله أعلم[1].

= خرج من العراق وسكن عمّان في شرق الأردن وتوفي فيها، وعرجنا على نسب الشيخ (المترجم) هناك، وناقشنا جميع الروايات الواردة في ما يخص نَسبه وأنسابه بصورة مفصّلة في الرقم (٦) تحت موضوع- انتسابه إلى العلويين- تحقيقاً للفائدة، ودفعاً للشك والارتياب الوارد بعباراته في مذكراته هذه، ولم نأل جهداً في البحث والاستقصاء، وإبداء الرأي في هذا الباب وما سيجيء في الروايات الأخرى من انتسابه إلى ذرّية سليمان بن عبدالله المحض، أو محمد بن الحنفية، أو ما أشبه ذلك فقد وفَينا الموضوع حقه في بحث- انتسابه للعلويين بالرقم (٦) المشار إليه.

(١) مر القول في الصفحة (٨٣) عن الشيخ سيديَّ وصداقته مع المستعرب الفرنسي «زافييه كبولاني» الأمر الذي سهّل للفرنسيين احتلال بلاد شنقيط (موريتانية)، ونعود هنا لشيء من التفصيل في سيرة الشيخ سيديَّ فنقول:

هو الشيخ سيديَّ بن المختار بن الهَيْب، الأبييري، ثم الانتشائي، ونسبه الأصلي يرجع إلى تندغ، وفخذه من أولاد انتشابيت، ولذا قيل الانتشائي، على أن أبيير وتنـدغ قبيلتان من قبائل الزوايا، وتقدّم البحث عنها في أصل السكان، والناس في شنقيط يرمون أولاد أبيير بسوء الفهم، وينسبون لهم حكايات عجيبة في ذلك، أتى على بعضها صاحب الوسيط في الصفحة ٥٦٥ تحت موضوع: «فهم أولاد أبيير». ولكنه أضاف بأن هذه النوادر زالت عنهم لظهور الشيخ سيديَّ فيهم فقد صاروا بسببه من أرقى تلك القبائل في العلم والفهم. =

....

= اشتغل في شبابه بطلب العلم ولازم الشيخ حرم بن عبد الجليل العلوي فبرع في شتى العلوم، ووطن نفسه على احتمال السهر وتجاوز الصعاب، وكان يخدم شيخه هذا خدمة العبد لمولاه، فكان ينتدب نفسه من دون سائر التلاميذ بأن يذهب إلى المنهل ليسقي البقر إذا كان العبد غائباً، ويعود ليقرأ على ضوء النار، وإذا أريد لأحد الطلاب أن يحلب الأبقار خفَّ هو لحلبها ويعود لاستئناف مذاكرته، وإذا أرسل شيخه لمن يستطيع من الطلاب أن يقوم على خدمة الضيوف الوافدين، الّذين لا ينقطع سيلهم فلا ينتدب لذلك سواه، وهكذا كان يخدم أستاذه عن حُب وطواعية، فجازاه الله بالإحسان إحساناً، وبالتواضع رفعةً واحتراماً، حتى أن تلاميذه بعد ذلك، كانوا لا يدخلون عليه إلا حَبواً على ركبهم، إجلالاً له.

ولمّا تضلّع من عِلم شيخه هذا، شد الرحيل إلى الشيخ المختار الكنتي - نسبةً إلى قبيلة «كنْت» - الأموية الأصل، كما جاء في الوسيط ص ٤٧٧. قصد الشيخ المختار بمنطقة ازداد التي تبعد عن مقرّه مسيرة شهر، ومعظمها أرض غامرة، فلازمه مدة ستة أشهر، وبعد وفاته بقيَ عند ابنه - سيديَّ محمد - المعروف بالخليفة لقيامه مقام أبيه فلازمه مدة عشرين سنة كان خلالها يخدمه ويطلب العلم على يديه، فبرع، وتفوّق في شتى العلوم، وتعمّق فيها، وأتقن الطرائق الصوفية وعرف أسرارها. بعد هذا رجع إلى بلده في - تندغ - أصله القديم، ولكن أهلها لم يعيروه الاهتمام اللائق به، فرحل إلى قبيلة - أولاد أبيير - فاستقبلوه أحسن استقبال، وبالغوا في احترامه وإكرامه، فاشتهر بعلمه، وفضله، وتُقاه، فأذعنت له كل القبائل من حسان، والزوايا، وغيرها، وصار بينهم الملك المطاع الذي لا يُرد له أمر، ولا تعلو كلمة على كلمته، وكانت العرب في أرض شنقيط تجعل مقامه حرماً آمناً، فيجتمع عنده الشخص مع قاتل أبيه أو أخيه، ويجلسها على مائدة واحدة. وإذا بلغ الجاني حدود بلده أمن على نفسه، ولا يمضي يوم إلا وعنده مئات من الناس يطعمهم، ويكسوهم، ويقضي مآربهم، ولا يسأله أحد حاجة إلا أعطاه إياها بالغةً ما بلغت، فمدحه الشعراء، وتنافسوا في مدحه، ومر معنا أحد هؤلاء الشعراء وهو محمد بن بدّي العلوي، الذي أناخ ببابه =

....

= ومدحه بتلك القصيدة الرائعة، وروينا قسماً من أبياتها. وتروى عن كرمه أحاديث كثيرة وأخبار عجيبة، ومن مؤلفاته: شرح لاميّة الأفعال لابن مالك، وشرح مقصورة ابن دريد، عدا انصرافه إلى التدريس والوعظ والإرشاد، كما كان شاعراً بليغاً، ومن شعره القصيدة التي رواها له صاحب الوسيط، المنتهية بالبّيتين المشار إليهما بالمتن. وهي في الحض على حسن المعاشرة؛ فقال:

أيا معشر الإخوان دعوة نادب ... إلى الحق والمعروف ليس بكاذبِ
أعيروني الأسماع أهدِ إليكم ... وصيّة مصفي النصح غير مخالبِ
فمن كان منكم ذا ودادٍ وخلّة ... لمرتفع الأخلاق جم المناقبِ
ليسحبْ على عيب الخليل ذيوله ... ويسترْ، فشأن الخل ستر المعايبِ
خليليَّ لا أبدي إلى من يذمّه ... طلاقة وجهي، بل عبوسة حاجبي
أحب الذي يهوى، وأُبغض ماقلا ... ولست عليه إنْ يزلَّ بعاتبِ
وماذا دعا يوماً لصدمة حادثٍ ... ألمَّ عليه كنت أول واثبِ
فمنزلة الاخوان فيها تفاضل ... فمنهم لذيذ الطعم عند المصاحبِ
ومنهم زعاق لا تطاق طباعه ... معاشره يرتاح إذ لم يقاربِ
ومن كان ذا لوحٍ وهمٍّ وطاعة ... فلا يدنُ للمستصبيات اللواعبِ
وما أفسد الألواح والهم والتقى ... كبيض التراقي مشرقات الحقائبِ
مراض العيون النجل حوّ شفاهها ... رقاق الثنايا، حالكات الذوائبِ

وله شعر كثير، وتوفي - رحمه الله - سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٧م.

أما الشيخ سيديَّ ابنه الذي قال عنه الشنقيطي إنه ألّفَ كتاباً في قبائل شنقيط - وذكر أن قبيلتهم من ذرّية محمد بن الحنفية فقد تقدّم شرح ذلك، إلا أننا لم نذكر شيئاً عن هذا المؤلف وأعني به: الشيخ سيديَّ ابن الشيخ سيديَّ الأبييري التندغي المتقدم الذكر، ولأهميته في مجال الحركة الأدبية في شنقيط، وجودة شعره، الذي يثير الانتباه إلى أهمية دراسة هذا الشعر المطمور في زوايا النسيان، والذي يُشكّل ثروة لغوية وفنية، وشعرية باذخة، فقد رأيت من المناسب أن أُعرّف بشخصية هذا العالم الفاضل والأديب المُبدع المفتن فأقول: =

....

= هو المعروف بسيديَّ محمد بن الشيخ سيديَّ الكبير المتقدم الذكر، نشأ في كنف أبيه فربّاه تربية دينية علمية صالحة واستجلب له المعلمين، والمؤدبين، والمربين، وكان يعلّمه الكرم، كما يعلّمه العلوم، ولا يغفل عن تقويمه، ومحاسبته عن كل ما يبدر منه من زللٍ، أو اشتطاط، فنشأ عالماً، مستقيماً، وشاعراً فحلاً لا يشقّ له غبار، كما صقله المحيط باتجاهاته المستقيمة، وأدبه، وظرفه، واستباقه في العلم والشعر والأدب، وكان الناس يظنون أن لا أحد يسدّ مسد الشيخ سيديَّ بعد موته، إلا أن نجله هذا ملأ الفراغ، إلا أن مدته لم تطل بعد وفاة والده، فقد مات بعده بسنة واحدة، والمتأمل في شعره يجده على جانب عظيم من التقى والورع، رغم إجادته في الحب والغزل، والظرف والمرح؛ شأن علماء وشعراء شنقيط. ويضيق المجال فلا يهمنا إلا نماذج من هذا الشعر الذي يهز المشاعر، ويستأثر بالألباب، وكلّما أردت أن أضغط الموضوع، فإنه يتفجر أمامي برَوعته وجماله، ولا بد أن أتناول منه أطرافاً تحليلية مراعاةً لضيق المجال.

ومن النكت الأدبية الواردة في شعره أنه كان له نديم أصله حدّاد، وعندهم في الصحراء يزعمون أن الحدّادين أصلهم يهود ثم أسلموا، وكان هذا النديم الحدّاد اسمه - نحن - ويدّعي أنه شريف، إلا أنه كان شرهاً كثير الأكل، فأراد أن يصفه وصفاً قد يبلغ الهجاء، إلا أنه استأذنه في ذلك وأعطاه - مُقدّماً - جملاً إهداءً له كي لا يغضب من ذلك فرضيَ، وقال فيه:

ما هزَّ عطفي كميٌّ يومَ هيجاء	بين الأواني كذي النونين والحاء
فرد يقوم مقام الجمع وهو لذا	يدعى بمضمر جمع بين أسماء
يسطو بأسلحة للأكل أربعة	يدٌ، وفمٌ، وبلعومٌ، وأمعاء
تخال لقماته العظمى براحته	كراكر الإبل، أو جماجم الشاء
ما بين طلعتها فيها وغيبتها	في فيه إلا كلمح الطرف للرائي
فتنهوي كدُليٍّ خان ماتحَها	أشطانُها فترامت بين أرجاء
فبان أن الذي يحويه من شرفٍ	قد صح لكنه بالهاء، لا الفاء =

....

= والطريقة الأخرى أنه تزوّج بإمرأة من غير أن يستأذن والدته، فذهبت إليه وبصحبتها عجائز من لداتها وأمرتهنَّ فضربنه، فكتب إلى أبيه يشكوهنَّ قائلاً:

أمن فعل أمرٍ في الشريعة جائز ... يروم اهتضامي بينكم كل عاجزِ
وكان بكم جند البغاة يهابني ... فصال عليَّ اليوم جند العجائزِ
فصرت كأني قد أتيت ببدعةٍ ... وفاحشةٍ من نحو فَعلة ماعزِ[1]
فلو أن أرضي ذات مُعْز رجمتني ... ولكنها ليست بذات أماعزِ[2]

ومن قوله في قصيدة يحرّض الناس فيها على مقاومة الأجانب المستعمرين ومحاربة أهل البغي في البلاد:

فبلّةَ اللوم ثم إليك عني ... فلا ضرراً أريد ولا ضرارا
ولا عارٌ عليك فأنت امرؤ ... تردّيت السكينة والوقارا
ولكنا رجالَ الحب قوم ... تهيج ربا الديار لنا ادكارا
سقانا الحبَّ ساقي الحب صرفاً ... فنحن كما ترى قوم سكارى
ترى كل الهوى حسناً علينا ... إذا ما الجاهلون رأوه عارا
وأحرار النفوس تذوب شوقاً ... فنأتي كلّما نأتي اضطرارا
ومن يأت الأمور على اضطرارٍ ... فليس كمثل آتيها اختيارا
ترانا عاكفين على المغاني ... لفرط الشوق نندبها حيارى
أسارى لوعةً وأسى ننادي ... وما يغني النداء عن الأُسارى
ولو في المسلمين اليوم حر ... يفك الأسر، أو يحمي الذمارا
لفكّوا دينهم وحوه لّما ... أراد الكافرون به الصَّغارا =

---

(١) الماعز: الرجل الشهم المانع ما وراءه.

(٢) الأماعز: جمع أمعز، وهي الأرض الصلبة الكثيرة الحجارة والحصى، والمُعز: بضم الميم وسكون العين: جمع الأمعز أيضاً، فهي تجمع على مُعْز ومَعْزوات وأماعز. وهو في البيت كرر جمعها على الوجهين دليل تعمّقه في اللغة، وتمكّنه منها، كما يتبيّن مما ذكرناه من شعره، وما سنذكره أيضاً أنه سلس العبارة رقيق التعبير، موغل في الفصاحة والبلاغة، ظريف الطبع.

....

= ومنها:

وفتيانـــاً يرون الضـــيمَ صابــاً   وطعم الموت خُرطومــاً عُقــارا[1]

سطـــاة فوق متـــني كـل ساطٍ   قليـــل من ينـــال لـــه عـــذارا

وسلهبـــةٍ مفاصلهـــا ظِمَـــاءٌ   قوائمهـــا رِواء لا تجـــارا[2]

عليهـــا من محاسنهـــا شهـــود   عـــلى أن لا تبـــاع ولا تعـــارا

ثم هو يرسم للقوم صورة تستفز مشاعرهم في أخذ النساء أسيرات بأيدي الأعداء يعاملن بالقسوة والمذلة فيقول:

وإن أنتـــم تكاســـلتم وخمتـــم   برغم منـــكم ابتـــدروا ابتـــدارا

فألفـــوكم كما يبغـــون فوضـــى   حيـــارى لا انتـــداب ولا ائـــتمارا

إلى أن يقول:

مهـــىً حورَ المدامـــع عاطفـــات   تخوض بهـــا القراقـــير البحـــارا[3]

لئن كانـــت مراكبهـــا المهـــارى   وإن كانـــت مراودهـــا القفـــارا[4]

تلطمهـــا العلوج عـــلى خـــدود   كسل ألوانهـــا الفزعُ اصفـــرارا

يـــدرنَ لهم عيونـــاً حائـــراتٍ   يفرِّق فيـــضُ عبرتهـــا احـــورارا

فـــلا هم يرحمون لهـــا بكـــاءً   ولا يخشون أن تجـــد اقتـــدارا

وحلوهـــا خلاخـــل من قيودٍ   وقـــد كانـــت لجينـــاً أو نضـــارا

وأغـــلالاً بأجيـــادٍ وأيـــدٍ   تعوّدت القـــلادة والسوارا

وهكذا يمضي في جزالته وصدق مشاعره حيث ينقض على قومه بالملامة والتقريع قائلاً:

تهاونتم بوقعهـــا ومـــا إن   تهاونتم بهـــا إلا اغـــترارا

لصوصٌ لا تخـــاف البـــأس منـــكم   ولا العقبـــى فترضيَ أن تـــدارا =

---

(١) الصاب: عصارة شجر مر، وقيل هو: عصارة الصبر. والخرطوم: الخمر، وكذلك العُقار.

(٢) السلهبة من الخيل: العظيمة الطويلة، والذكر سلهب.

(٣) القراقير: جمع قرقور، كعصفور، وهي السفينة أو الطويلة أو العظيمة.

(٤) مراودها: جمع مراد، وهو موضع الارتياد، أي طلب الكلأ.

= ولا ينجو مقيم من أذاهم ... ولا ابن تنائف اتخذ السفارا
ولا شيب عكوف في المصلى ... ولا عونُ النساء ولا العذارا
هنالك لا ترى شيئاً نفيساً ... ولا مُستحسناً إلا مُوَارا
ولم يكُ قدرُ لمح الطرف إلا ... وقد سلبوا العمامة والخمارا
أجدّكم بذا يرضى كريم ... وهل حر يطيق له اصطبارا؟

والقصيدة طويلة تربو على المائة بيت، وكأنه يصف حال العرب اليوم مع اسرائيل الباغية المغتصبة.

أما قصيدته النونية فإذا صرفنا النظر عن رقتها، ودقة التصوير والإبداع فيها، فهي تظهر اطلاع الشاعر الواسع على تاريخ الأدب، وأيام العرب، لما حوّته من إشارات سريعة لوقائع ورجال، وأيام، دلّت على طول باعه في المعرفة والاطلاع، ويا حبّذا لو استطعت أن أدوّنها كاملة لما فيها من التفاتات تستحق الدراسة والإمعان، ولكنها كسابقتها تزيد على المائة بيت، ولكن لا بد أن ألتقط منها صُوَراً عاجلة تستوقف القارىء؛ فقال في مُستهلها:

أدمعاً تبقيان بغرب عين ... وقد عاينتما دار الكُنَيْزِ
أليس من الوفاء لقاطنيها ... إذالة ما يصان بكل عين؟
بلى إن البكاء على المغاني ... بمنهاج الصبابة فرض عين
وإن لم يبق منها غير رسمٍ ... كوشم في نواشر معصمين[1]
فإن لها يداً ديناً علينا ... وحتمٌ أن يؤدى كل دين
أفاويق الصفاء بها ارتضعنا ... مدى حولين كانا كاملين[2]
ولم يسحر فؤادي قط طرفٌ ... سوى طرفين فيها ساحرين

ومنها:

ودارٌ حول حقف النصف أقوت ... وأُخرى أقفرت بالتوأمين[3] =

(١) النواشر: عصب الذراع من داخل وخارج.

(٢) أفاويق: جمع وفيقة بالكسر، وهي اللبن يجمع في الضرع بين الحلبتين. والصفاء: المصافاة.

(٣) حقف النصف: (التوأمين) الأول كثيب والثاني اسم مكان في الصحراء.

= سقاها كل منهمر العزالى من الأزَمّات يغسل كل رين[1]
معاهد عندنا في الحب فاقت معاهد منعجٍ والرقمتين[2]
ليالِيَ لا أحاذر أن ألاقي صدوداً من سعاد ولا بثين
ولم تقل العذارى أنت عمٌّ نعدك عندنا أحد الأنين
تحن إلى الشباب ولست منه على حظ سوى خفي حنين
فقلت لهن إن يك وخط فودي يسوء الغاليات إذا فليني
فكم يوم يعز على الغوالي به مني فراق المفرقين
وكم يوم وترت به العذارى كيوم مهلهلٍ بالشعثمين
يجبن إذا دعا الداعون باسمي كأنّي عندهنّ ابن الحسين

ومنها:

ومن شرخ الشباب اعتضت حلماً وحال الحلم إحدى الحسنيين
وكنت إذا عزمت على ارعواءٍ وجدت عزيمتي إسراء قين[3]
وكم سامرت سماراً فتواً إلى المجد انتموا من محتدين
حووا أدباً على حسبٍ فداسوا أديم الفرقدين بأخمصين
أذاكر جمعهم ويذاكروني بكل تحالف في مذهبين
كخلف الليث والنعمان طوراً وخلف الأشعري مع الجويني[4]
وأوراد الجنيد وفرقتيه إذا وردوا شراب المشربين[5] =

(١) العزالى: جمع عزلاء، وهو مصب الماء من الراوية ومراده السحاب.
(٢) المعاهد: جمع معهد وهو المنزل الذي لا يزال القوم إذا تناءوا عنه رجعوا إليه.
ومنعج: بالفتح والسكون وكسر العين، وادٍ يأخذ بين حفر أبي موسى والنباج.
والرقمتان: قريتان بين البصرة والنباج.
(٣) يظن القين أنه سارٍ وهو مصبح فلا يصدق بذلك وهو مأخوذ منه بهذا المعنى.
(٤) الليث: هو الليث بن سعد الإمام المصري، والنعمان: هو الإمام أبو حنيفة.
والأشعري: إمام الطائفة الأشعرية (أبو الحسن). والجويني هو: عبد الملك بن عبدالله بن يوسف إمام الحرمين منسوب إلى جوين كورة بخُراسان.
(٥) الجُنيد: هو أبو القاسم سعيد بن عبيد. وقيل هو ابن محمد بن الجنيد الخزار القواريري سلطان الطائفة الصوفية.

= وأقوال الخليل وسيبويه وأهلي كوفة والأخفشين
نوضح حيث تلتبس المعاني دقيق الفرق بين المعنيين
وأطواراً نميل لذكر دارا وكسرى الفارسي وذي رُعَيْن[1]
ونحو الستة الشعراء ننحو ونحو مهلهل ومرقشين[2]
وشعر الأعميَين إذا أردنا وإن شئنا فشعر الأعشيَين[3]
ونذهب تارة لأبي نواس ونذهب تارة لابن الحسين[4]

إلى أن يقول:

وليس يهولني من مستشيط تَهَدُّدُه بنفض المذروين[5]
فما حرٌّ يقِر بدار هونٍ ولو كانت مقرَّ الوالدين
ومسقط رأسه ضرٌّ ونفع وإلا فاتّباع القارظين[6]
فمال المنذرَين يعد فقراً بلا عز ومال الحارثين[7]
فعش حراً فإن لم تستطعه فضرباً في عُراض الجحفلين[8] =

(١) ذو رعين: من ملوك حِمْيَر.

(٢) الشعراء الستة هم: امرؤ القيس، النابغة، زهير، علقمة الفحل، طَرَفة بن العبد وعنترة بن شدّاد.

(٣) الأعميان: حسّان بن ثابت والأسوَد بن يعفر النهشلي، والأعشيان: أعشى قيس وأعشى باهلة.

(٤) ابن الحسين: هو المتنبي.

(٥) نفض المذروين: كناية عن البغي وهو مأخوذ من المثل: جاء فلان ينفض مذرويه. إذا جاء باغياً مهدداً.

(٦) القارظان: رجلان خرجا يطلبان القرظ فلم يرجعا، فضربت العرب بهما المثل فقالوا: لا آتيك أو يؤوب القارظان.

(٧) المنذران: هما المنذر اللخمي والد النعمان ملك العراق، والمنذر الآخر: هو ابن ماء السماء. والحارثان: الأكبر الغسّاني ويُكنى بأبي شمر، والحارث الثاني ابنه، ويقال له الحارث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين المضروب بنَدرتها المثل، والمعنى أن المال إذا لم يكن معه عز فهو ذل.

(٨) قوله: فعش حراً... البيت مأخوذ من قول الشاعر:

فعش عزباً فإن لم تستطعه فضرباً في عُراض الجحفلين

....

= ويختمها قائلاً:

ببَيت الله ملمس كل حاجٍ	تعالى الله عن كيفٍ وأين
حمىً إن أمَّه لاج وراجٍ	يكونا آمنين وغانمين
فمن يجهل حمايته يسائل	أمير الجيش عنه وذا اليدين[1]

ومن جيّد شِعره في صراعه النفسي بين عقيدته الدينية ومركزه الصوفي المرموق وبين لواعج نفسه، وولوع عواطفه في الحب والجمال وما ورد بقصيدته التي نقتطف منها قوله:

ما حلَّ عقدة عزمي سحر حوراء	ولا ازدهى طود حلمي برقُ زهراء
عصر الصِّبا أنقتني فاقتديت بها	سبلُ الهدات وأخلاق الاعفاء
حبست نفسي بسجن الصبر منتضياً	عزمي وقيّدت ألحاظي باغضاء
كي لا تمرَّ إذاً في وجه غانيةٍ	بروضة من رياض الحسن غنَّاء
ماء الملاحة جارٍ في مسائلها	إلى منير أقاحٍ وسط حواء
فتثني لفؤادي وهي رائدة	له فتخبره بالرعي والماء
حتى إذا القيهل التاثت حديقته	به وهمَّت بأزهارٍ فأزهاء[2]
وكاد يصبح ليلي بعد دهمته	وآن وقت انتباهي بعد إغفائي
سرَّحتها من وثاقي إذ وثقت بها	والعجبُ أصل لما في النفس من داء
فأنست في ضِوار العين آنسةً	وفي السحائب منها برق غراء =

(١) أمير الجيش: هو أبرهة الأشرم صاحب الفيل الذي أرسل الله عليه الطير الأبابيل، كما في سورة الفيل في القرآن الكريم، وذو اليدين: هو الخرباق بن عمر السُّلَمي من بني سُليم صاحب النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وعاش بعده مدة، وله بعض روايات في الحديث، ولقب بـ(ذو اليدين) لأنه كان في يده طول، وقيل لأنه كان يعمل بيديه جميعاً، «شرح موطأ مالك للسيوطي، ج١، ص١١٧».

(٢) القيهل: الوجه، والتاثت: استدارت، والحديقة في الأصل كل ما أحاط به البناء، ومراده استدارة شعر لحيته على وجهه. وقوله: همت بأزهار فأزهاء: أي حان أن يبدو فيها الشيب.

= فانهدَّ إذ ذاك طود الحلم وانتكشت منّي عرى العزم لمحَ الطرف من راء
حتى هممت بشيء ما هممتِ به أزمان لاقَ باشكالي واكفائي
حسناء هام بها قلبي ولا عجب كم هام قلب فتىً قبلي بحسناء
هنَّ اللواتي أذقن الموت عروة والنـ ـهديَّ عن مقلتي هند وعفراء[1]
وابن الملوّح قَيساً في فتوّته أصمين وابن ذريح أيَّ إصماء[2]
كم ذا هممت بوصليها فتردعني عنها روادع من آيٍ وأنباء
فأنثني وأقول الله أرحمُ أن يولي انتقاماً على وصل الأحباء
هناك أزورُّ كرهاً عن زيارتها كي لا يجرَّ لها المكروهُ جرّائي

إلى أن يقول:

أما وعزةِ من أهوى عليَّ على هُوني عليها وإبعادي وإقصائي
لولا خشائي عليها سوء عاقبة لمّا يعقبْ تماديها بإنهاء
لصُلتُ للوصل جهراً لا تنهنهني زرق الأسنة في أيدي الأشداء
حتى أمِرَّ حبالاً لا يغيرها طول التنائي ولا مشيُ الأنماء
فأمزجنَّ بروحي روحها فنُرى روحاً بشخصين مزج الراح بالماء
وحينما شئت بتنا في مسرتنا سرين يكتمنا حيزوم ظلماء[3]
أفٍ على الصبح ما دام الوصال فان كان التقاطع فلينعم بسراء

فهذا هو الصراع النفسي والعاطفي الذي لا يلبث أن يتفجر صراحة في الحب من غير مواربة ولا ادعاء، في شعر شاعر مُتَصَدٍّ للبحث الديني، حاملاً راية التصوّف ولكن في بلد لا يعيب الصراحة في الحب، ومعظم علماء شنقيط =

(١) عروة: هو عروة بن حزام العذري صاحب عفراء. والنهدي: هو عبدالله بن عجلان صاحب هند.

(٢) ابن الملوّح: هو مجنون بني عامر، واسمه قيس، ويقال له مجنون ليلى. وابن ذُريح: صاحب لبنى بنت الحُباب.

(٣) الحيزوم: وسط الصدر، والغليظ المرتفع من الأرض جمعه حيازم وحيازيم، وشد الحيازم كناية عن الصبر.

....

= شعراء تستبد بهم العواطف الصادقة فتنسكب شِعراً جميلاً رائعاً رضيا. وسيدي محمد هذا يحاول أن ينصح الآخرين بالاحتراز من فتنة الظباء والابتعاد عنهن، ولكنه حتى في هذه النصيحة يبدو ضعيفاً مفتوناً، ولا أريد إلا أن أقتنص أبياتاً قليلة من قصيدة له في ذلك رغم ما يتراءى من إطالة البحث في التعريف بهذا العالم العيلم الشاعر الظريف، فهو يقول:

إتـق الله ما استطعـت تقـاه   في الـذي أنـت مظهرٌ ومسرٌّ
تائبـاً توبـة اعـتراف نصوحـاً   لا تقـل تائبـاً وأنـت مصرٌّ
إعـص أمر الهوى ولا تتعلـق   منـك نفسٌ بكـل ظـبي يمرُّ

وبعد هذا يبدأ الشيخ بالتعريض بعدم القدرة على مغالبة العواطف عند التعرّض للظباء فيقول:

فاقتنـاص الظباء قد لا يُسنّى   واتّبـاع الفتى الهوى قد يضرُّ

وهكذا نراه في هذا البيت ينصح بعدم اقتناص الظباء لأن اقتناصها صعب. قد لا يتسنى للقانص، كما أن الفتى قد يضر إذا اتَّبع هواه وكلاهما تدلان على التقليل واحتمال عدم التسني والضرر، فهو غير جازم جزماً أكيداً في ذلك، والخوف في كل ذلك من أن يقع الصائد في شرك المصطاد، كما وقع له فيقول:

ولـكم من سعى ليصطاد فاصطيد   ولم يحمـــــه الصَّيودَ المفرُّ
فرَّ منهـا حيث استطعت فراراً   ثمتَ أكرُر إذا تعــــين كرُّ

وينقلب في البيت الأخير مُدَرّباً على الصيد بالكر والفر بدل النصح والتحذير والإبتعاد، وأخيراً يقول:

فالكميُّ المحتـــال طوراً مِفَرٌّ   والكمي المحتـــال طوراً مكرُّ

وهكذا يترامى الشيخ ضعيفاً في صد الجمالات الساحرة، والابتعاد عن الفتون المطوّح بالصمود. وفي الحقيقة فإن الشيخ محمد ابن الشيخ سيديَّ الكبير شاعر أصيل. ولو أردت أن أعرض نماذج أخرى من شعره لما اتسع المقام لِما في شعره من طرافة وما في وصفه من إبداع، وما في أسلوبه من بلاغة وجزالة، =

= وآخر ما أختتم به هذه النماذج المقتطفات من قصيدته المرحة التالية، والتي أستطيع أن أقول أنه يتكلّف فيها التخلّص من أسر هوى الحسان إلى التجرّد إلى حب الطريقة القادرية وهو تخلص يبدو عليه محاولة الهروب من الحسان الفاتنات اللواتي لم يخرج من حبّه لهنَّ إلا بالخيبة والأسى كَكُلِّ مُبتلٍ هيمان وفيها يقول:

ما للمحبّين من أسر الهوى فادِ ... ولا مُقيدٌ لقتلاهم ولا وادِ
ولا حميم ولا مولى يرق لهم ... بل هم بوادٍ، وكل الناس في وادي
يا رحمتى لهُم ما كان أصبرهم ... على معاناة جمع بين أضداد
والناس إلبٌ عليهم واحدٌ فلذا ... ما إن ترى من يواسيهم بإسعاد[1]
إما عذول وإما ذو مراقبة ... أو زاعمُ النصح أو ساعٍ بإفساد
إن أظهروا ما بهم ليموا وإن كتموا ... لاقوا بما كابدوا تصديعَ أكباد
وهَيِّنٌ كلّما لاقوه عندهم ... لو أن أحبابهم ليسوا بصُدَّاد
يا عاذلينَ أقلّوا اللوم ويحكم ... إني لمن رام قَوْدي غيرُ منقا
ولا يُلين قناتي غمز غامزها ... ولا يقيم ثقاف العذل مُنآدي[2]
أحَيث ما كنت أو يَّمت من جهةٍ ... ألقى رقيباً ولواماً بمرصادي[3]
ما اعتاد قلبي الصبا لكن من ملكت ... يدَ الغرام يعوِّدْ غير معتاد
يزداد باللوم حب الصادقين هوىً ... واهاً لِحُبٍّ بطول اللوم مزداد
والطرف للقلب مرتادٌ ولا عجب ... في قفو منتجع آثار مرتاد
والحب أمرٌ عزيزٌ ليس مرتبطاً ... في حكمه عند من يدريه بالعادي

وإلى هنا ويأخذ بالتنكر لحبهنَّ مُدّعياً قلّة الوفاء فيهنَّ فيقول:

ما لي وحب الألى يتركن منتظماً ... حَبَّ القلوب بألحاظٍ وأجياد =

(١) الألب، بالفتح والكسر: بمعنى مجتمعين، يقال: هم إلب واحد.
(٢) الغمز: تليين القناة، والثقاف: ما تسوى به الرماح، والمنآد: الاعوجاج.
(٣) المرصاد: الطريق والمكان الذي يصد فيه العدو.

....

= ثم لا نرضى له بعد هذا البيت أن يأتي ببَيتين فيهما من التجنّي ما فيهما، من نظرته للحب جاعلاً ذلك سبباً للعزوف عن هواهنّ، خلافاً لما كان يتعاطاه الشعراء من تقديس وعفّة، ومزدجر، لذلك أعرضنا عن إثباتها إشفاقاً عليه من اللوم والتجريح، ولا غرابة فربما كان له عذرٌ في اكتشاف خيانة أصمت هواه فأصدر من أجله حُكماً عاماً، كما يفعل بعض من هؤلاء، وفي دواوين الشعراء أمثلة كثيرة من هذا النمط، وهو لذلك يتعلل بالإعراض عنهنّ منصرفاً إلى الزهد قائلاً:

لذاك أعرضت عن لهوٍ وعن غزلٍ ... وعنها صنـــت إنشائي وإنشادي
ولي من الفكر أبكـــار مُشنَّفــة ... من البديع بترصيع وإرصادي[1]
وإنمـا بي هوى بيضـاء واضحـة ... كلفت وجداً بها من قبل إيجادي
حسنـاء معرقـة في الأكرمـين ومـا ... كانـت لتدعـى لآبـاء وأجـداد[2]
مـا للزعانـف في وصلٍ لها طمعٌ ... ولا لهم سرّهـا المكنون بالبـاد[3]

وكان القصد من الإكثار من إيراد النماذج الشعرية لعلماء شنقيط الشعراء، أو لشعراء شنقيط العلماء، هو كما قدّمنا إعطاء صورة لهذه النهضة الشعرية الفذة في شنقيط الحافلة بالثراء الأدبي اللغوي، والفني الجميل الدال على امتلاك أصيل لنواحي الشعر واللغة والأدب، التي تستوجب على المعنيين توسيع دراستها، وإعطائها ما تستحق من التدوين والتخليد، لأن الكثير من هؤلاء لم تعرض مناسبة للتعريف بهم، وربما كان أعلى كعباً، وأبلغ أثراً في هذه النهضة الأدبية ممن عرجنا على ذكرهم، ولو بشكل إلمامات قصيرة بالنسبة لما لهم من دواوين شعرية فخمة يبدو أن معظمها غير مطبوع، ولم تتناوله أيدي الباحثين.

---

(١) الترصيع والإرصاد: نوعان من البديع.

(٢) عنى بالحسناء: الطريقة القادرية لدى المتصوفة أو معرقة: ذات أصل في الأكرمين.

(٣) الزعانف: جمع زعنفة وهو الرذل، ويقال للقصير أيضاً زعنفة.

ولما حججت سنة ١٣٣٦ هـ، اجتمعت بأناس من أهل شنقيط ذكروا لي أن الشيخ سيدياً بن الشيخ سيدياً الكبير بن المختار بن الهبة التندغي ألف كتاباً في أحوال القبائل الموجودة في بلاد شنقيط، وأنه ذكر عن قبيلتنا أنهم من ذرية محمد بن الحنفية.

والشيخ سيدياً الكبير هو القائل من قصيدة له:

وما أفسد الألواح والهمَّ والتقى كبيض التراقي مشرقات الحقائب
مراض العيون النُّجل حوٌّ شفاهها رقاق الثنايا حالكات الذوائب

ومن شعر جدي عبيد الله في وصف رعاة للابل، أقام معهم مدة، ورأى منهم أحوالاً غير مرضية، ذكر منها شيئاً من أحوالهم، وشيئاً من أحوال أهله، ومنها:

لمجلس علم من صحابٍ أجلَّة حديثهم عندي شفى أي علة
يخوضون بالذوق الصحيح بحوره فيبدو كمين الدر من كل مِلَّة
أحب إلينا من أناس عهدتهم حديثهم: بانتْ، وطاشت، وضلت
ترى الفخر أن تعدو بأذناب صرمةٍ تظل ظماء حولها حيث ظلت[1]
وبالشمس لا تنفك تكوي جباههم وأرجلهم تشوى على حرّملة[2]
وتهليلها عند الهبوب من الكرى وتحميدها أن اللقاح تولت[3]

(١) الصِّرمة: القطعة من الإبل تجمع على صِرَم. أي أن هؤلاء القوم ليسوا إلا رعاة إبل يعدون خلفها أنَّى سارت فينالهم الجهد والظمأ.

(٢) الملَّة: الجمر، الرماد الحار.

(٣) اللقاح واللقائح: جمع لقوح وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. والتهليل والتحميد هو التسبيح بذكر الله وحمده بعد الصلاة، وكأن تهليل هؤلاء القوم وتسبيحهم عند نهوضهم من النوم في الصباح أن ينادوا فزعين قائلين: إن اللقاح قد هربت، فيعدون خلفها لإدراكها.

ولأياً تصلي فرضها وأكفها ... بها بعر الأشوال إن هي صلت[١]

وقوم ثوت بين المياه بيوتهم ... ليغدوا قعوداً في الكنان المظلة[٢]

وتسعى اليهم بالمعيز إماؤهم ... على حُمُرٍ أهلية مستظلة[٣]

ولما يهموا بالرحيل وإن أتى ... عليهم بمغناهم عديد أهلة

أحب إلينا من أناس كجنَّةٍ ... يهيمون دهراً في الفيافي المصلة[٤]

إذا جئتها عند المقيل وجدتها ... بانفاقها، أو للمبيت اضمحلت

ومن هذا يتبين أن جده لأمه عبيد الله بن إبَّن المتقدم الذكر كان ذا موهبة جيدة في نظم الشعر، ولما لم نجد له نماذج أخرى غير هذه الأبيات فلا نستطيع أن نتبين مدى إجادته في نظم الشعر كأولئك الشعراء الذين سبقت الاشارة اليهم ويمضي قائلاً: «وأما أنا فإني ولدت سنة اثنتين، أو ثلاث وتسعين ومئتين والف (١٢٩٣هـ) في شهر ربيع

---

(١) اللأي: الشدة والمحنة. والأشوال، والشوائل، والشوْل: جمع شائلة مؤنث شائل من الإبل: وهي ما أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجفّ لبنها: فهؤلاء لا يكادون يصلون الغرض فقط حتى تتلوّث أكفّهم ببعر هذه الأشوال، وتخصيص الأشوال هنا لا مجال له، بل الإبل كلّها في مراح واحد.

(٢) الكنان: الستر ويجمع على أكنة وأكنان.

(٣) المعيز جمع ماعز: خلاف الضأن من الغنم: أي ذوات الشعر والأذناب القصار وهو اسم جنس واحده ماعز. وهؤلاء العلماء غير أولئك من رعاة الإبل فهم موسرون يسعى لهم عبيدهم برعي معيزهم وهم راكبون على حمر أهلية ومن فوقهم الظلال دليل غناهم وترفهم.

(٤) المصِلَّة: أي ذات الرياح الشديدة التي لها صليل أو هي الريح المنتنة، أو ذات التراب الندي. والجِنة بالكسر: الجِن جمع جنّي وهو الذي لا يُرى من المخلوقات.

الأول، وحفظت القرآن غيباً قبل البلوغ، وحفظت من السير النبوية بعض مناظم، وابتدأت في طلب العلم على خالي محمد بن عبيد الله، ثم قرأت على عدة مشايخ غيره، أكثرهم لي نفعاً محمد بنيامين، وعبد الله بن حمين وعبد القادر المجلسي[1]. فقرأت من النحو الأجرومية ومواضع من الألفية متفرقة ومن الفقه منظومة ابن عاشر[2] وبعض رسالة ابن زيدون القيرواني[3]

---

(١) تقدّمت الإشارة بالتعريف بهؤلاء الشيوخ وبأن جميعهم من تلاميذ محمد بن حنبل عدا الشيخ عبد القادر المجلسي والمعروف باللغة المحلية بـ «المدلشي» كما مرَّ بسط ذلك.

(٢) بعد أن يتم الطالب في شنقيط قراءة القرآن وتصحيحه على أيدي المعلمات من النساء عادةً ينتقل إلى حلقات العلماء الرجال، وفي منطقة تكانت والادرار يبدأون بتدريس بعض كتب الفقه، ومن أهمها كتاب الأخضري وابن عاشر والرسالة ثم ينتقلون به إلى كتاب الشيخ خليل، وهي كتب مشهورة ومعروفة في تلك الديار.

(٣) ورد في الأصل أنها رسالة ابن زيدون والصحيح أنها رسالة ابن أبي زيد القيرواني والتي نظمها الشيخ عبدالله بن أحمد الغلاوي (من قبيلة الأغلال) البكري، نظماً سلساً والتي يقول فيها معتذراً عن التقصير وهي رسالة في الفقه ولا علاقة لها برسالة ابن زيدون.

ولم أكن جُذَيل هذا الفنِّ ... وما عليَّ لومة لأني
شغلت بالنحو وبالبيان ... وإنَّ هذان لساحران
وربما أخلتُ فيه الناظرا ... أني وزّان ولست شاعرا

كما نظم كتاب-الأخضري- تأليف عبد الرحمن الجزائري صاحب كتاب السُّلّم والذي يقول في أوّله:

عبد الإله الشنجيطيّ يشتري ... بعقده المنظوم تبرَ الأخضر

وبدأ ينظم مختصر الشيخ خليل فنظم منه بيتاً واحداً من كتاب البيع ثم انشغل عنه ولم يتمّه، وتوفي-رحمه الله-في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كما في الوسيط (ص ٩٢) كما تقدّم.

ومواضع متفرقة من مختصر خليل[1].

وأما علم الحديث فاني لم أشتغل به في بلادي، ولا دراية لي به، ولم أر من يشتغل به عندنا اشتغالاً يذكر، وهو في الجملة - ويا للأسف - من أضعف العلوم عندنا. وأخذت العروض عن خالي الذي كان يلقنني إياه تلقيناً سهلاً، فعرفته من دون أن أقرأ منه كتاباً، ثم قرأت بعض كتبه بعد ذلك على غير خالي، كما قرأت جملة من أشعار الجاهلية[2] كالمعلقات، ودواوين الشعراء الستة وهم: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وعلقمة بن عبدة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعنترة بن شداد. وغير ذلك وقرأت المقصورة والممدودة لابن مالك. واكثر قراءتي

---

(١) مختصر خليل كتاب في الفقه له أهميته وشهرته، وقد تعهّده العلماء بالشرح، ومن أشهرهم الشيخ محنض باب بن اعبيد الديماني في كتاب سمّاه «مُيسَّر الجليل على مختصر خليل». كما شرحه الشيخ محمد سالم المجلسي في عشر مجلدات ضخام وهو من أهم وأشهر الذين اعتنوا بكتاب الشيخ خليل من المتأخرين. وشرحه الشيخ حبيب الله بن الشيخ القاضي الأجيجي وسمّاه بـ «معين حبيب الله» كما شرحه عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي المعروف بالحطّاب المتوفى سنة ٩٤٥هـ وسمّاه: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل وبهامشه: التاج الإكليل لمختصر خليل (١-٦) مجلداً، وأُعيد طبعه بالأوفست وهو تأليف خليل بن إسحق المتوفى في سنة ٨٦٧هـ، في الفقه المالكي، كما شرحه أحمد بن سعيد المجيلدي أحد علماء المغرب في القرن الحادي عشر الهجري والذي وُلِّيَ القضاء بفاس أكثر من أربعين سنة «رسالة في الحسبة للدكتور محمد أبو الأجفان» ص ١١.

(٢) وممن شرح الدواوين الستة المشار إليها العالم الجليل الشيخ الحارث بن محنض الشعراوي البوحسني شرحاً لم يوجد مثله لغيره.

في اللغة على عبد الله بن حمين، وعلى المختار بن المعلى، وجميع مشايخي ما عدا عبد القادر المجلسي من تلامذة محمد بن حنبل[1].

وصارت لي ملكة في الشعر في الجملة، الا أن قريحتي في نقده، ومعرفة حسنه من رديّه أحسن منها في انشائه، ولذلك لم أكثر منه[2]. وكاتبت الشيخ ماء العينين الشنقيطي الحوض[3] ومدحته بقصيدة، كما مدحته في قصيدة أُخرى.

---

(١) تقدّم التعريف بالشيخ محمد بن حنبل وبمكانته الشعرية كما في أصل الكتاب ص ١٥.

(٢) حصرنا كل ما قاله من الشعر في موضوع «شاعريته» برقم (٤٧) ص ٢٢٤.

(٣) أما الشيخ ماء العينين فهو: الزعيم الديني الكبير الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن مأمين الملقب بـ(ماء العينين) والذي نفخ في المجاهدين روح الثورة ضد الاحتلال الفرنسي- كما قدّمنا شرح ذلك في الصفحة ٨٤، وقد بقيَ مجاهداً حتى تغلّب الفرنسيون واحتلوا مدن ادرار وأسقط في يد الثوار فلجأ الشيخ إلى تيزنيت من أرض السوس حتى توفي- رحمه الله- فيها سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف (١٣٢٨هـ) وأما والده الشيخ محمد فاضل فهو مدفون في مقاطعة (إديادَهْ) من أرض (الحوض).

ومن مآثر الشيخ ماء العينين العمرانية أنه أول من عمر الأرض المعروفة بـ(الساقية الحمراء) وتقدّم القول على ذكر شيء منها وتقع في آخر شنقيط من جهة وادنون وتبعد عن شنقيط عشرين يوماً بالسَّير الحثيث، وفيها يقول الشيخ محمد بن الشيخ سيديَّ:

أحمراء السواقي ما ورائي	الان غرُبتَ أيها الانتشائي
تخال نصيص فتْل العيس شهراً	يدوم من الصباح إلى المساء
ولا ينأى به ما كان دانٍ	ولا يدنو به ما كان نائي

واجتمعت في مراكش بالشاب الظريف محمد النشني وكان من تلامذة الشيخ ماء العينين، ويلقبونه بالبسيطي لأنه ما كان ينظم الشعر الا في البسيط خاصة[1].

ولم أزل مذ بلغت عازماً على التغرب في طلب العلم في الأمصار الى أن حان الوقت الذي أراده الله تعالى فأجمعت السفر في أول سنة ١٣١٨ هـ فدخلت بعض مدن المغرب، كالصويرة، ومراكش، والدار

= ومنها يتبيّن أن مسافتها شهر بسيَر الإبل من الصباح إلى المساء، لأن الشيخ الانتشائي الأبييري هذا قد جرّب السَّير إليها بنفسه على الإبل، وقال صاحب الوسيط: «وكانت الساقية الحمراء خالية لا أنيس بها لشدة الخوف، ولقحولتها دائماً، حتى عمرها الشيخ ماء العينين، وبنى فيها الدور وغرس النخل فسهلت المواصلة بين شنقيط وغيرها من المواضع المغربية التابعة للمخزن» ص ٤٣٩.

وقال في نفس الكتاب واصفاً الشيخ ماء العينين فقال: «هو العلاّمة الوحيد له معرفة بعلوم الشرائع من الحديث والتفسير والفقه وغير ذلك. وما جاء بعد الشيخ سيديّ مثله في إقبال الناس عليه وإنفاقه، وقد اجتمعت به حين خروجي من مدينة شنقيط إلى مراكش في توجهي إلى الحجاز ورأيت منه ما حيّرني لأني أقدّر من معه في وادي أسمار من الساقية الحمراء بعشرة آلاف شخص ما بين أرملة ومزمن وصحيح البنية، وكل أصناف الناس وكل هؤلاء في أرغد عيشة، يزوّج الشخص ويدفع المهر من عنده، ويجهّز المرأة من عنده، مع حُسن معاشرته لهم، لا فرق عنده بين ولده والمحسوب عليه. ورأيته في تلك الأيام التي أقمت عنده لا تفوته صلاة الجماعة في أول الوقت مع كِبر سِنّه وضعف جسمه...» ص ٣٦٦. وهو شاعر أيضاً وله ديوان شعر، ومن شعره قوله:

تغافل عن الإخوان في كل زلة ... وإيّاك والتبصير في زلة الأخِ =

....

(١) تقدّمت الإشارة إلى ذلك في الصفحة ٦٦.

البيضاء، ورباط الفتح، وطنجة، ولم أمكث في شيء منها الا مراكش فإني أقمت فيها أشهراً، ولم يحصل لي اختلاط بأحد علمائها، وإنما كنت أخالط أناساً من أهل بلادنا، وفيهم علماء، إلا أني لم أشتغل عليهم بالعلم اشتغالاً يذكر، ولم أقيد شيئاً من رحلتي، ومما رأيت أو سمعت، ولذلك ذهبت رحلتي سدى، وكنت قاصداً أولاً مدينة فاس لأنها مدينة العلم في المغرب الأقصى، ثم بدا لي أن أحج فأصابني الجدري في رمضان وأنا في رباط الفتح فعاقني ذلك عن الحج تلك السنة. ثم سافرت من المغرب الى مصر فدخلتها في ذي الحجة سنة ١٣١٨ هـ وكان فيها الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي اللغوي المشهور، وكان معي رجلان شنقيطيان، فلما عرفنا أخذنا وذهب بنا الى الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية[1]،

= وكن راحم المسكين واصلَ رحمه ... وإياك أن تبدو له بالتبلُّخ[1]
وإيـاك والتقصيرَ فيما أحبه ... وساوِ زمانَ العسر في ذاك والرخي
وداوم على تقوى الإلـه وعلمه ... تفزْ وتنلْ مما رجوت بخٍ بخٍ[2]

(١) تقدّم التعريف مُسهباً بالشيخ محمد محمود التركزي وما كان بينه وبين خصومه في الصفحات ٦٨ وما بعدها: أما الشيخ محمد عبده فهو غني عن التعريف. غير أنه من باب الإشادة بالفضل فلا بد من التعريج على ذكره ولو باختصار فنقول: هو محمد بن عبده بن حسن خيرالله، وُلد بمحلّة نصر من أعمال مديرية البحيرة، وبعد أن أنهى دراسته في الكتّاب وحفظ القرآن تحوّل إلى الدراسة في الأزهر وأخذ عن كبار شيوخه، وعند مجيء السيّد جمال الدين الأفغاني إلى مصر لازمه وكان من أوائل من لازموا دروسه واستمعوا لدعوته، وأحرز الشهادة العالمية في =

---

(١) التبلخ: التكبر.
(٢) بخٍ بخٍ: كلمة تقال عند الإعجاب والرضى بالشيء أو الفخر والمدح.

وكان صديقاً له ، وكان في مؤخر الجامع فعرفنا به ، فسلمنا عليه ، ثم أخذنا إلى بيته فتعشينا ورجعنا إلى الأزهر ، وبقي يتعهدنا ، وأكرمنا غاية الاكرام ثم إنه أخذ لنا مكتوباً من حكومة القاهرة إلى محافظ السويس ليركبنا ، فأركبنا إلى جدة ، ثم توجهنا إلى مكة فقدمناها محرمين بالعمرة في آخر المحرم سنة ١٣١٩ هـ وقضينا عمرتنا ورجعنا إلى جدة ، وركبنا في سفينة الى رابغ ، ثم منه الى المدينة على طريق الغائر فأقمنا فيها ، وأصابتني حمّى المدينة ، وطالت مدتها معي ، فأقمت سنتي تلك ، وصحتي ليست على ما يرام ، وكنت أحضر درس البخاري على الشيخ علي ظاهر الوتري

= سنة ١٢٩٤ هـ. ثم تولى التدريس في دار العلوم ، ثم رياسة تحرير « الوقائع المصرية » ، ولـمّا اندلعت الثورة العُرابية خاض غمارها ، ولـمّا خبت نارها أُبعد عن مصر إلى سورية فأقام فيها زمناً شرح في أثنائه نهج البلاغة ومقامات البديع ، ثم رحل إلى باريس لاحقاً بأستاذه الأفغاني فأصدرا صحيفة « العروة الوثقى » ثم عاد إلى مصر بعد العفو عنه وأُقيم قاضياً في المحاكم الأهلية ، ثم مستشاراً في محكمة الإستئناف العليا ، ثم اختير مُفتياً للديار المصرية ، وعُيّنَ عضواً في مجلس إدارة الأزهر لإصلاح التعليم فيه . أما إصلاحاته الدينية وآراؤه الفكرية الحرّة الصحيحة في الإسلام ، ومؤلّفاته ، فهذا ما لا يتسع المجال لذكره ، وقد تقدّم انتصاره للشيخ محمد محمود التركزي وأخذه بيَده بعد أن أقام المغرضون الحاسدون عليه الدنيا وأقعدوها ضجيجاً وافتئاتاً ، وهكذا بقيَ الشيخ محمد عبده مُخلصاً لدعوته الصادقة إلى الله والإسلام حتى قبض إلى رحمة ربه سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م ، وذلك بعد وفاة صديقه التركزي بسنة واحدة ، ومن شعره قوله :

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبلَّ واكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

البغدادي الأصل وكان حسن التقرير[1]، وأحضر دروساً فقهية على أساتذة مغاربة وأتردد على الشيخ عبد الجليل برّاده[2] أديب الحجاز وشاعره ولغويه في وقته بلا نزاع، وكنت أسمعه بعض شعري، كما كنت أدرس عليه أيضاً المشكورة والجلالين[3] في رمضان. وكان الشيخ أحمد ابن الأمين العلوي الشنقيطي في الآستانة، فجرت بيننا مكاتبة، ومما كتبت به إليه[4]. وكنت أيضاً أكاتب الشيخ أحمد الشمس ومما كتبت به

---

(١) تقدّم التعريف بالشيخ ظاهر الوتري وبآل الوتري عامة في الصفحتان ٧٣، ٧٤.

(٢) وكذلك تقدّم ذكر الشيخ عبد الجليل برادة في الصفحة ٦٩ وما بعدها.

(٣) المشكورة والجلالين في تفسير القرآن الكريم للشيخين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلّي.

(٤) هو أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي، وُلد سنة ١٢٨٩ هـ - على الأرجح - نشأ في بلده شنقيط، وتلقى العلم فيها على شيوخها، وفي سنة ١٣١٥ هـ رحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج سنة ١٣١٧ هـ وهناك التقى بعلماء مكة والمدينة واطلع على مصادر من الكتب ذات أهمية، انتفع منها في مؤلفاته الكثيرة، وفي سنة ١٣٢٠ هـ عاد إلى القاهرة، واستقر فيها متصلاً بالأوساط العلمية والأدبية. وكان شديد الاتصال بصورة خاصة بالسيد محمد توفيق البكري نقيب الأشراف، وشيخ الطرق الصوفية، كما اتصل بالعلاّمة أحمد تيمور باشا صاحب الخزانة التيمورية الحافلة بالمخطوطات والمطبوعات والذي أَمَدّهُ بكثير مما احتاج إليه من المصادر النادرة، كما كان متصلاً طيلة مدة إقامته بمصر بالسيّد أمين الخانجي الكُتُبي، وهو الذي هَيّأ له وسائل التأليف والتحقيق، وَيَسّرَ له طبع ما أخرجه من الآثار تقريباً، كما أعد له سكناً خاصاً في بناء المطبعة الجمالية التي كانت تطبع كتبه. وكان السيد أحمد الأمين هذا على جانب كبير من العلم والفهم بالعلوم الدينية والأدبية واللغوية، وله اطلاع خاص بمفاهيم الطرق الصوفية، وقد أَلَّفَ جُملةً من الكتب كان من أشهرها: =

إليـه . وكنت عازماً إذ ذاك الرجوع الى المغرب ، ولكن شيخي أحمد سالم بن الحسن الديماني[1] الذي كان صديقاً لوالدي مرض في تلك السنة ، فأقمت معه أمرضه ، فأنزلنا الشريف زيد بن فوّاز عنده[2] وصرنا نعالج

---

١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، والذي اعتمدناه مصدراً معوّلاً عليه في بحثنا هذا . (٢) شرح المعلّقات العشر وأخبار قائليها . (٣) درء النبهاني عن سيدي أحمد التيجاني . (٤) طهارة العرب . (٥) الدرر في منع عمر . « ويعني به منعه من الصرف على أثر اختلاف في الرأي النحوي بينه وبين الشيخ محمد محمود ابن التلاميد » ... كما شرح كُتُباً أُخرى من أشهرها : (١) تصحيح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (طبعة الساسي) . (٢) ديوان طَرَفة بن العبد . (٣) أمالي الزجّاجي . (٤) ديوان الشمّاخ بن ضرار .(٥) تحفة المودود في المقصور والممدود لابن مالك . (٦) الاعلان بمثلث الكلام لابن مالك . (٧) ليس في كلام العرب لابن خالويه . (٨) صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري « بالاشتراك مع السيد لطفي المنفلوطي » . كما وردت له هوامش وشروح أُخرى في قوائم بعض المكتبات . وقد أنتج هذه القائمة الكبيرة من الشروح والمؤلّفات خلال المدة التي قضاها بالقاهرة والتي لا تزيد عن العشر سنوات ، الأمر الذي يدل على أنه كان دائب العمل ، متواصل الجهود ، وأخيراً انتهى هذا النشاط المثمر بوفاته- رحمه الله- صبيحة يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣١ هـ/ ١٩١٣ م) « مُلخّص من ترجمته بقلم- فؤاد سيّد- أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية في القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١م ، ص ١٠ من كتاب الوسيط ، الطبعة الثالثة ، أما الأبيات من شعر الشنقيطي المشار إليها أعلاه ، فقد تقدّم القول فيها ، وكذلك كل ما ورد للمترجم من شعر فقد بحثناه في موضوع- شاعريّته- برقم ٤٧ في الصفحة ٢٢٤ .

(١) تقدّم ذكر ذلك في الصفحة ٨٠ .

(٢) لم نستطع العثور على ترجمة للشريف زيد بن فواز ، وهو لا بد أن يكون من سلالة أشراف مكة وأصحاب سدانة الكعبة آنذاك .

الشيخ بلبن النوق كما أحضر لنا الشريف كل ما نحتاجه من الكتب فقرأت عليه جانباً حسناً من - أقرب المسالك - في الفقه[1]. ومنظومة البدوي الشنقيطي في أنساب العرب، ومنظومة في المغازي النبوية[2]، وبقينا عند الشريف الى وقت الحج فحججنا، ثم توجه الشيخ الى المدينة، وعاد الى مكة والطائف، الى أن توفي رحمه الله في منى سنة - ١٣٢٥هـ - وعند سفر الشيخ الى المدينة بدأت أطلب العلم على العلامة المتفنن الشيخ أبي شعيب[3] بن عبد الرحمن الدّكالي المراكشي، فقرأت عليه - ألفية ابن مالك بتمامها، من تلخيص المفتاح[4]، ورسالة ابن أبي

---

(١) أقرب المسالك كتاب في الفقه المالكي.

(٢) أما منظومة البدوي في أنساب العرب والمغازي النبوية فقد مر التعريف بناظمها السيّد أحمد البدوي في الصفحة ٨١.

(٣) لم تزل مذكرات المترجم تكرر بأنه- أبو شعيب- بينما تؤكد المصادر الكثيرة الأخرى بأنه- شعيب- وليس- أبو شعيب- ويضاف لما قدّمناه في هذا المضمار ما ورد في شرح البيقونية للشيخ محمد بن خليفة النبهاني في الصفحة ١٥ قوله: «وأملى علينا شيخنا الشيخ شعيب» وهو ممن درس عليه كالشيخ الشنقيطي، وربما كان هذا الاختلاف من أخطاء النُّسَّاخ.

(٤) هو كتاب- مفتاح العلوم- للإمام محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ، ويشتمل على عدة كتب في عدة علوم في النحو والصرف والبلاغة، والاستدلال، والعروض، والقافية، وهدفه من ذلك التصدي للرد على الطاعنين في القرآن الكريم، وتبارى آخرون في تلخيص بعض هذه الكتب بعنوان- تلخيص المفتاح- ومنها مثلاً:- عروس الأفراح على تلخيص المفتاح- لبهاء الدين السبكي، وتلخيص للتفتازاني وأبي علي الفارسي سمّاه- الإيضاح- وتلخيص المفتاح في البيان والبديع لقاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن القزويني وغير هؤلاء، ولم يشر الشيخ إلى أي تلخيص.

زيد القيرواني بتمامها[1] وجُمَلاً من مختصر خليل[2] وبعض مختصر ابن الحاجب في الأصول[3] وسمعت منه شمائل الترمذي[4] بتمامها مرتين أو ثلاثاً والشفاء للقاضي عياض بتمامه[5]، وصحيح مسلم الا كتاب الصلاة

---

(١) تقدّم ذكرها في الصفحة ٢٦٥.

(٢) كتاب في الفقه المالكي تأليف خليل بن إسحق المتوفى سنة ٨٦٧هـ، وتقدّم ذكره في الصفحة ٢٦٦.

(٣) كتاب مر التعريف به في الصفحة ٨١.

(٤) كتاب- شمايل الترمذي- بالياء جمع شميلة وهي الطبع والخُلق للشيخ الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن أبي موسى بن الضحّاك السُّلَمي منسوب إلى بني سُليم «بالتصغير» قبيلة من غيلان، والترمذي نسبة إلى ترمذ قرية قديمة على نهر بلخ «جيحون» من جهة شاطئه الشرقي ويقال لها مدينة الرجال، والترمذي هو أحد الأعلام والحُفّاظ الكبار في الصدر الأول، أخذ عن المشاهير الكبار كالبخاري. وكان مكفوف البصر وقيل إنه وُلد أكمَه سنة ٢٠٩هـ، ومات سنة ٢٧٩هـ. شرح كتاب الشمايل هذا الشيخ ابراهيم البيجوري نسبةً إلى بيجور من قرى مصر، وُلد بها سنة ١١٩٨هـ، ومن مؤلّفاته: هذه الحاشية على كتاب الشمايل، وحاشية على مختصر السنوسي في فن الميزان، وحاشية على متن السُّلَّم في فن الميزان أيضاً وغير ذلك؛ كما تولى رئاسة الجامع الأزهر سنة ١٢٦٣هـ «كتاب مقدمة كتاب شمايل الترمذي للبيجوري». وهو خاص بشمايل الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(٥) مر التنويه بذلك في الصفحة ٨٢ بإيجاز، وتتمة للفائدة نقول: هو عياض ابن موسى بن عياض بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس منسوب إلى يحصب وهي قبيلة من حِميَر. وُلد بمدينة سبتة من بلاد المغرب تجاه جبل طارق، سنة ٤٢٦هـ، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤هـ، ومن مؤلفاته كتاب «الشفا بتعريف المصطفى» طُبع بمصر وفاس والآستانة مراراً،

منه، أو بعضه، والنصف الأول من سنن أبي داود، وكثيراً من سنن النسائي، أو أكثرها، وحضرت عليه دراية شمائل الترمذي بتمامها، وكثيراً من صحيح البخاري، ومن الموطأ بلا توال[١] وشرح البيقونية للزرقاني[٢] وكثيراً من التدريب، وشرح العضد في الوضع[٣]، وجملة من

= وكتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» وله شعر جيّد، «إنباه الرواة على أنباه النحاة– للقفطي– ص ٣٦٤، ج ٢».

(١) موطأ مالك في الحديث من كتب الصحاح للإمام مالك بن أَنَس إمام دار الهجرة ينتهي نسبه إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، وهو من التابعين، وشرَحَ الموطأ كثير من الشُرَّاح ومن أشهرهم جلال الدين السيوطي الذي سمّاه «تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك»، كما شرح صحيحَي البخاري ومُسلم، والكتب المتقدمة كلّها في الحديث.

(٢) البيقونية: منظومة في مصطلح الحديث للشيخ عمر بن محمد بن فتوح الدمشقي الشافعي، وقد شرحها الشيخ محمد الزرقاني.

ومن شرحها من المتأخرين الشيخ محمد بن خليفة النبهاني المتوفى سنة ١٣٧٠هـ، والذي قال بأنه لم يقف على سبب تسميَتها بالبيقونية سوى ما ورد بقَول ناظمها:

«وقد أتت كالجوهر المكنون ... سمّيتها منظومة البيقوني»
«فوق الثلاثين بأربع أتت ... أقسامها تمت بخير ختمت»

أي أن عدد أبياتها أربعة وثلاثون بيتاً حاوية لأربعة وثلاثين قسماً من أقسام الحديث.

(٣) العضد: هو عبد الرحمن بن أحمد عبد الغفار عضد الدين الإيجي، من أهل إيج ببلاد فارس، عالم بالأصول والمعاني والعربية، وُلّيَ القضاء وأنجب تلاميذ عظاماً، مات مسجوناً سنة ٧٥٦هـ، وله مؤلّفات في البلاغة والكلام والوضع أهمها المواقف بالكلام، وشرح مختصر ابن الحاجب في الأصول «الأعلام للزركلي: ج ٤، ص ٦٩».

أول المطول للسعد[1]، وجملة من الشاطبية[2]، وأشياء غير ذلك. وقرأت أيضاً السُّلَّم في المنطق على الشيخ أحمد التكروي[3]. وقرأت عليه أيضاً كثيراً من ألفية السيوطيّ في النحو[4].

---

(١) المطوّل في المعاني والبيان والبديع لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١هـ، وله تلخيص على المفتاح وشرح المختصر في العقائد للنسفي «مقدمة الكتاب».

(٢) الشاطبيّة: منظومة في علم التجويد للقاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرُّعَيْني الشاطبي الأندلسي الضرير المولود سنة ٥٣٨هـ بشاطبة من قرى الأندلس والمتوفى بمصر سنة ٥٩٠هـ. دُفن بالقرافة بالقرب من سفح جبل المقطم وقبره معروف هناك، وشرحَ الشاطبي علي محمد الضبّاع شيخ المقارىء المصرية.

(٣) السُّلَّم: هو كتاب سُلّم العلوم في المنطق لمحب الله بن عبد الشكور البهاري «عن التعارض والترجيح لعبد اللطيف بن عبدالله البرزنجي ج١، ص٣٢٥».

(٤) هو عبد الرحمن- جمال الدين- ابن الكمال أبي بكر بن سابق الدين الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب ابن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الخضيري الأسيوطي. وقال: «وأما نسبتنا إلى الخضيري فلا أعلم ما تكون هذه النسبة إلا الخضيرية- محلّة ببغداد- وقد حدّثني من أثق به أنه سمع والدي- رحمه الله تعالى- يذكر أن جدّه الأعلى كان أعجمياً، أو من الشرق، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة». مولده بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ. ومن مؤلَّفاته: شرح ألفيّة ابن مالك، جمع الجوامع في العربية، وتبحّر في علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبديع، وأحصى له من الكتب الأستاذ يوسف سركيس في معجم المطبوعات العربية اثنين وتسعين كتاباً، وقيل إن مؤلفاته بلغت الثلاثمائة. وكان عفيفاً لا يمد يده لسلطان، ولا يقف من

وكذلك كنت أتردد على الشيخ عبد الجليل براده المدني[1] وكان سكن مكة والطائف فسمعت عليه قليلاً من الحديث، وأجازني مروياته الحديثية وكتب لي بذلك، وأكثر ما كان يقرأ عليه كتب الأدب، سمعت عليه كثيراً من ديوان البحتري، وكثيراً من ديوان المتنبي وكثيراً من طبقات الشعراء للجمحي، وبعض المعلقات، ورسالة الملائكة للمعري[2] وأشياء غير ذلك.

= حاجة على باب أمير، ومن أشهر كُتبه: «حُسن المحاضرة» وألفية في مصطلح الحديث. توفي- رحمه الله- في جمادى الأولى سنة ٩١٩هـ، وكان عمره إحدى وستين سنة، ودُفن خارج باب القرافة وقبره ظاهر وعليه قبّة «المزهر للسيوطي ج٢ ».

(١) تقدّم القول فيه في الصفحات ٦٩ و ٧٤ وما بعدها و٧٨- ٧٩ وما بعدها.

(٢) أبو العلاء المعرّي: هو أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي وينتهي نسبه إلى قضاعة، والمعرّي منسوب إلى معرّة النعمان وهي مدينة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه- وترجمته معروفة في كثير من كتب الأدب- ومن مؤلّفاته: كتاب ديوان الرسائل، وهو ثلاثة أقسام: «الأول» رسائل طوال تجري مجرى الكتب المُصنّفة، مثل: رسالة الملائكة والرسالة السندية، ورسالة الغفران، ورسالة الفرض. و«الثاني»: دون هذه في الطول، مثل: رسالة المنيح، ورسالة الاغريض. و«الثالث»: رسائل قصار كنَحو ما تجري به العادة في المكاتبة، ومقداره ثمانمائة كُرّاسة- وُلد المعرّي يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة «٣٦٣هـ» وتوفي يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة «٤٤٩هـ» «إنباه الرواة على أنباه النحاة- للقفطي، ج١، ص٥٢ ».

ولما ثبت قدم فرنسا في شنقيط أجمعت المقام[1] ، وصرفت النظر عن الوطن، وفي أثناء إقامتي بمكة والطائف توفي الشريف عون وتولى ابن أخيه الشريف علي[2] فأشار عَلَيَّ الشيخ أبو شعيب بالسلام عليه كغيري وكان يعرفني يوم كنا عند الشريف زيد، فعملت قصيدة وأنشدتها بين يديه فاستحسنها[3]، وكنت أكاتب أهلي وهم يحثونني على العودة ومما كتبت لهم[4].

وفي سنة «١٣٢٦هـ» سافر الشيخ أبو شعيب[5] الى بلاد الترك وكان يقرأ عليه طلبة من قازان - مقامات الحريري -[6] فأمرني

---

(١) هكذا في الأصل ولعلّها- أزمعت المقام- كما تقدّم القول في الصفحة ٨٣ عن كيفية احتلال فرنسا لشنقيط وجهاد العلماء والأهلين في الدفاع.

(٢) تقدّم القول في ترجمة الشريف عون وتولّي ابن أخيه الشريف- حسين بن علي- وليس الشريف علي كما ورد بالأصل، وبسطنا ذلك في الصفحة ٨٦ وما بعدها.

(٣) مرّت الإشارة إلى ذلك في الصفحة ٨٧.

(٤) مر ذكر ما كتب به لأهله من أبيات في الصفحة ٢٣١.

(٥) ذكرنا أنه- شعيب- وليس- أبو شعيب-.

(٦) الحريري: هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري- الغني عن التعريف- وُلد ونشأ ببلدة المشان في جنوب البصرة، وسكن البصرة في محلّة بني حرام، وُلد سنة «٤٤٦هـ» وتوفي بالبصرة سنة «٥١٦هـ» عن عمر يناهز السبعين سنة. كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة وله تصانيف تشهد بفضله، ومن أشهرها- كتابات المقامات- التي أبَرَّ بها على الأوائل وأعجز الأواخر. وكان مع هذا الفضل قذراً في نفسه وصورته ولِبسَتِه، وهيئته، قصيراً، ذميماً، بخيلاً، مُبتلى بنَتف لحيَته. قال فيه ابن جكينا:

بإتمامها لهم، ففعلت، وطلبوا مني أن أقرئهم ألفية العراقي في مصطلح الحديث[1] فأقرأتهم جملة من أولها، ثم سافرت الى الهند، ومنه الى عُمان، ومنه الى البحرين، وفي الهند اجتمعت بالشيخ عبد الوهاب الزياني[2] من أهالي البحرين، ولما جئت البحرين نزلت عليه فأكرم مثواي، ثم توجهت الى الاحساء ونزلت في مدرسة الشيخ أبي بكر[3] وكنت أحضر دروس الشيخ عيسى بن عكاس فقرأت عليه بعض - بلوغ المرام -[4] وبعض - منتقى الأخبار -[5] وشيئاً من الفرائض، وقرأت نبذة

= شيخ لنا من ربيعة الفَرَسِ ينتف عُثنونَه من الهَوَس
أنطقه الله بالمشان وقد ألجمه في العراق بالخَرَس
« معجم الادباء: ج١٥، ص٢٦١ ».

(١) العراقي: هو أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن الملقب بالعراقي، وقد مرّت ترجمته بالتفصيل في الصفحة ٨٨ بالهامش.

(٢) سبقت ترجمته في الصفحة ٢٠٩.

(٣) الشيخ أبو بكر مؤسس المدرسة: هو أبو بكر بن عمر الملا الأحسائي الحنفي، نزيل الأحساء، وسبقت ترجمته في الصفحة ٨٩.

(٤) بلوغ المرام في أدلة الأحكام: لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر المولود سنة ٧٧٣هـ، والمتوفى سنة ٨٥٢هـ وهو تلميذ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المذكور أعلاه «الإصابة في تمييز الصحابة».

(٥) منتقى الأخبار في أحاديث النبي المختار- وعليه شرح بعنوان: نيل الأوطار في ثمانية أجزاء للشوكاني- والأصل لمجد الدين عبد السلام بن عبدالله بن الحضرمي بن محمد بن علي بن تَيميّة الحرّاني، جد الشيخ تقي الدين بن تَيميّة المشهور. وُلد في حدود سنة ٥٩٠هـ، وتوفي سنة ٦٥٢هـ. كان حجة في الفقه والحديث والتفسير والأصول، وله المُصنّفات النافعة، كالأحكام وشرح الهداية، وأرجوزة في القراءات، وكتاب في أصول =

من - أقرب المسالك -[1] على الشيخ عبد العزيز بن مبارك، وطلبت من عمه الشيخ ابراهيم أن يجعل لي درساً فأبى، وكان يقول لي: يكفيك الشيخ عيسى -، لأن آل مبارك يبغضون ابنعكاس بغضاً شديداً.

ثم أني جاءتني مكاتيب من الشيخ أبي شعيب يأمرني بالتوجه الى العراق، وكان مزعل باشا السعدون[2] بنى مسجداً ومدرسة بالزبير، وطلب من الشيخ أبي شعيب أن ينتصب فيهما فلم يجبه لذلك، بل كتب لي بذلك، ولولا أن الشيخ أخبرني أنه عازم الرجوع الى المغرب - وهو يكتب لي - لراجعته بذلك، واعتذرت لأني في نهمة لطلب العلم[3] فتوجهت - وأنا كاره - وذلك في صفر سنة «١٣٢٧هـ» ١٩٠٩م مع الشيخ عبد العزيز بن حمد آل مبارك الاحسائي[4] من الاحساء الى البحرين ونزلت أنا على الزيَّاني[5] ونزل هو على ابن عم له هناك، ثم ركبنا جميعاً الى الكويت، ولدى وصولنا بلغنا خبر وفاة مزعل السعدون، فهممت بالرجوع من الكويت، ولم يزل بي عبد العزيز حتى سافرت معه

= الفقه، وتوفي يوم عيد الفطر بحرَّان عن اثنتين وستين سنة «فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكُتُبي: ج١، ص٥٧٠».

(١) أقرب المسالك.

(٢) قلنا إنه ليس أبو شعيب، بل هو الشيخ شعيب بن عبد الرحمن الدكالي المتوفى خلال سنة ١٩٤٣- ١٩٤٤م أثناء الحرب العالمية الثانية، أما مزعل باشا السعدون فقد تقدّم التعريف به في الصفحة ٩٢.

(٣) تقدّم القول فيه في الصفحة ٩٠.

(٤) تقدّم التعريف به في الصفحة ٩٠ أيضاً.

(٥) تقدّم التعريف بالزياني في الصفحة ٩١.

الى البصرة، فوجدنا ابراهيم بن مزعل وأحمد الصانع[1] وصبي مزعل قد وظفا في المسجد والمدرسة مغربياً يقال له محمد بن رابح[2] وخرجت من البصرة الى الزبير وكنت في ضيافة علي بن عبد الله بن عبد الرحمن

---

(١) أما ابراهيم فهو ابن مزعل باشا المشار إليه، وأما أحمد الصانع فهو: أحمد ابن عبد العزيز الصانع (وقال عنه ابراهيم بن الغملاس في كتابه «ولاة البصرة ومتسلّموها» في الصفحة ٨٤، وفي سنة ١٩٢١ تولى أول والٍ على البصرة من قبَل الحكومة العراقية- أحمد باشا الصانع-) وجاء في كتاب «تاريخ الوزارات العراقية» للسيد عبد الرزاق الحسني ج١، ص٩: أثبت اسم أحمد الصانع- من البصرة- مع أسماء من عُيّنوا وزراء بلا وزارة في وزارة السيّد عبد الرحمن النقيب في الحكومة العراقية الموقتة التي تشكلت في ١٩٢٠/١٠/٢٥م. وقال عنه أيضاً في الصفحة ٣١: إنه أَوْلَمَ وليمة فخمة لاستقبال الأمير الهاشمي فيصل بن الحسين- بوصفه متصرفاً للواء البصرة، وذلك عند أول قدوم فيصل إلى العراق مرشحاً لانتخابه ملكاً.
كما ذكر نفس المؤلف في نفس المصدر ص ٦٩ تحت عنوان- بعث فكرة الانفصال- أن أحمد باشا الصانع وعبد اللطيف باشا المنديل كانا من بين المتقدمين بطلب إلى المندوب السامي البريطاني السر پرسي كوكس بتاريخ ١٩٢١/٦/١٣م بمنح البصرة استقلالها السياسي بعد فصلها من العراق وإلحاقها بالهند... وجاء في كتاب تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد: ج١، ص١٦٢، أن أحمد الصانع سعى بالصلح بين سعدون المنصور ومبارك الصبّاح سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م بعد أن كادت الحرب أن تقع بينهما. ولا زالت في البصرة محلّة تُعرف بمحلّة الباشا، ويراد بها كما يحتمل أحمد باشا الصانع حيث أشغل منصب متصرفية البصرة مدة من الزمن، وآل الصانع من الأسر العربية العريقة كسائر الأسر العربية النازحة من الجزيرة والتي استوطنت مدينة الزبير وفيها الأدباء والعلماء والأبرار.

(٢) تقدّم التعريف به في الصفحة ٩٢.

البسّام وإخوته[1] وكان عزمي التوجه الى مكة ولكن بعض الطلبة طلبوا مني أن أرتب لهم دروساً، ففعلت، فرغبوا في إقامتي، وتركت الحج في تلك السنة، وتزوجت واستمررت على التدريس والوعظ، فتسابق الناس الى الحضور، وازدحم المسجد بالسامعين، إذ ليس ثمة واعظ غيري، وكان بعض الناس يجلسون بالشمس لضيق المكان فجرت عليَّ محنة بسبب إقبال الناس عليّ، ذلك لأن أهل الزبير على جانب عظيم من الجمود على التقليد، وعلوم الحديث وأصول الفقه عندهم مفقودة، فكنت في دروسي العامة أورد الأحاديث الحاثة على التمسك بالكتاب والسنة، وأقرر حكم التمذهب، وعدم لزومه، ونحو ذلك من الأمور التي لا تلتئم ومذاقهم، مع ما انضمَّ إليهم من حُسَّد، وهم جملة من أئمة مساجدهم، وبعض المنتسبين الى العلم، فقام لفيف منهم قومة تعصيب، ومن مقدَّميهم: عبد الله بن حمود قاضيهم[2]، والمكينزي إمام مسجد ابن

---

(١) آل البسّام من الأسر العربية الكريمة النازح بعضها من الجزيرة العربية إلى الزبير والبصرة في العراق، واشتهر فيهم سُراة بالتجارة والكرم والعلم والأدب، وجاء في كتاب- معجم قبائل العرب- لعمر رضا كحالة: ج١، ص٧٩ قوله: «البسّام: عشيرة من عابدة من قحطان عسير» عن كتاب: «قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة، ص١٨٨». كما قال: «بسّام» فرع من قبيلة تميم: يقيمون في عنيزة بنجد «قلب جزيرة العرب، ص١٣٢». وعندنا المشهور أنهم من تميم، وفيهم الذين استضافوا الشيخ الشنقيطي وأكرموه وآووه في الزبير وعنيزة، واحتفظوا بمذكراته هذه، كما مر ذكره.

(٢) هو عبدالله بن عبد الرحمن الحمود قاضي الزبير والمتصدي للفتاوى فيهم حينذاك، وهو أحد الفقهاء الحنابلة في الزبير ومدرّس في مدرسة الدويحس الأهلية التي أسَّسها دويحس الشماس من آل الشماس نسبة إلى قرية الشماسية إحدى قرى عنيزة «كما قال عبدالله محمد الرابح».

ابراهيم[١]، وابن دبيكل إمام مسجد الحزم[٢]، ومنهم ابن عبد الجبار[٣] إمام مسجد الرشيدية - وكان في الجملة أعقل من الباقين، وأقل منهم طيشاً، واستعانوا بأصحاب النفوذ منهم ابراهيم بن زهير[٤] ومحمد بن مشري وغيرهما، فأنهوا أمري الى مدير الحكومة[٥]، وقالوا له: إن هذا

---

(١) هو عبدالله المكينزي إمام جامع آل ابراهيم في محلّة الشمال بالزبير.

(٢) قال صديقنا المرحوم عبدالله محمد الشبل: إن ابن دبيكل هو عبد اللطيف الدبيكل، وقال غيره هو: ابراهيم بن عبدالله الدبيكل إمام مسجد الحرم.

(٣) ابن عبد الجبار هو: محمد بن عبد الجبار بن علي النجدي الحنبلي، إمام مسجد الرشيدية، وكان والده عبد الجبار من شيوخ الطريقة الصوفية المتوفى سنة ١٢٨٥هـ، وهو شيخ الشيخ محمد الدليشي الذي أخذ عنه الطريقة النقشبندية «أعيان البصرة للشيخ عبدالله باش أعيان العباسي، نشر الشيخ جلال الحنفي، ص١٢ و٨٢٤».

(٤) أحد وجهاء الزبير من آل الزهير الذين قال فيهم ابراهيم فصيح الحيدري: «بيت الزهير وهو بيت مجد وتجارة ورياسة، وخير وصدقات، وكانت لأسلافهم الصولة في البصرة ولهم وقائع عظيمة مع عشيرة كعب بعد عزل داود باشا عن بغداد فقاتلهم آل الزهير ومنعوهم عن البصرة... وأصلهم من حرب على ما حدّثني الصاحب النجيب محمد العبد الوهاب النجدي من العارض، موضع في نجد، ثم سكنوا قصبة الزبير والبصرة وسكن بعضهم في بغداد، وبعضهم في حلب» «عنوان المجد: ص١٦٤ - ١٦٦».

(٥) ويبدو أن حُكم مدينة الزبير في تلك الفترة الأخيرة من حكم الدولة العثمانية كان بيَد الشيخ ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم الراشد الذي تولى مشيَختها بعد مقتل خالد باشا بن عبد اللطيف العون سنة ١٣١٥هـ، وبقيَ فيها إلى احتلال القوات البريطانية البصرة والتي أقرّته فيها إلى سنة ١٣٤٠هـ حيث تشكلت الحكومة العراقية، فعزلته، وعيّنت لها مديراً بوصفها ناحية من نواحي البصرة، وإذا كان الشيخ الشنقيطي قد قدم البصرة =

المغربي يلزم إبعاده فإنه مثير فتن، يقدح في الحكومة ويحرض الناس على القيام عليها، ويقدح في الأئمة الأربعة[1] ويسب سيدنا الزبير، ونحو هذا الكلام. وكنت في دروسي العامة أكثر الاعتراض على الحكومة العثمانية بإهمالها الحدود الشرعية، وإقرار الفواحش وأكثر الاعتراض على مايفعله جهلة أهل البصرة وغيرهم عند قبر الزبير، والحسن البصري، إلا أن سعيهم لم يوافق نجاحاً، لأن المدير ذهب بنفسه الى الشيخ ابن عوجان[2] وسأله عني، فقال: إن هذا الرجل لا يقصد الا الخير، ونحن نعرفه جيداً، وقد حصل منه نفع كثير للبلد».

هذا ما كان من تاريخ حياة الشيخ محمد أمين الشنقيطي بإنشائه منقولاً من مذكراته الخطية وبالكيفية التي ذكرناها ابتداء، ومن هذا التاريخ الى حين وفاته رحمه الله فقد أتم أحداث سيرته تلميذه الشيخ ناصر الأحمد[3]. وقد لخصتُ منها بعبارته حرفياً حيث قال:

= سنة ١٣٢٧هـ فيتفق هذا مع ما ذكرنا من أن الذي استمع لدفاع ابن عوجان عنه ولم يتخذ اجراء بحقه هو الشيخ ابراهيم مستفاداً مما ورد بالتحفة النبهانية للشيخ محمد بن خليفة النبهاني عن الزبير ص ١٣٣.

(١) يُراد بهم أصحاب المذاهب الأربعة عند السُّنَّة.

(٢) هو الشيخ محمد بن عوجان إمام مسجد الباطن، وكان ورعاً زاهداً متضلعاً في علم الفرائض «كما روى ذلك عنه صديقنا الأديب- المرحوم- عبدالله محمد الشبل» وتقدّم ذكر ذلك في الصفحة ٢٢١.

(٣) كان الشيخ ناصر الأحمد من طلاب الشيخ الشنقيطي الذين درسوا عليه في الزبير، وبعد وفاة شيخه صار معلماً ومديراً في مدرسة النجاة التي أسَّسها الشيخ، وبقيَ كذلك إلى أن توفي رحمه الله في ٢٣/صفر/سنة ١٣٨٢هـ- ٢٥/تموز/١٩٦٢م، ودُفن في مقبرة الحسن البصري بعد أن =

«ولكن الله تعالى لما يعلم من حسن نيته، وطيب طويته، يرفعه عما يرمونه به، ويخفضهم لسوء نيتهم، وخبث طويتهم وكان أنصاره من أهل الزبير لشدة رغبتهم في سكناه بينهم، والاقامة عندهم، أشاروا عليه بالزواج، وأعانوه عليه فتزوج، واطمأن للاقامة، واستمر يدرس، ويعظ، ولكنه لظروف طارئة سافر الى الكويت[1]، وأخذ هناك يعظ ويرشد، وكان يرى أن الوعظ في المساجد غير كاف لإنهاض الأمة، بل

= صُلِّيَ عليه في المصلى الكبير، وخرج لتشييعه معظم أهل الزبير، وقبره إلى جهة الشمال من المقبرة، وقيل إن له أولاداً خارج العراق، وأبّنه على القبر الشيخ محمد بن سند عالم الزبير، وترحّم عليه، ثم أعقبه كاتب هذه الكلمات بكلمة تأبين موجزة باسم نقابة المعلمين- فرع البصرة- وتلاه أحد زملائه من معلمي مدرسة النجاة، وأقيمت الفاتحة على روحه في هذه المدرسة. وكان سبب وفاته على أثر ضربة شمس شديدة لم تمهله طويلاً حتى فارق الحياة مأسوفاً عليه، لما له من جهاد يُذكر في ميدان العلم والتعليم، وكان أديباً حاضر النكتة ظريف العبارة، وأذكر أنه مرة لقيَ الشيخ محمد العسّافي زميله في العلم والدراسة، وكان عائداً من بُستان له في قرية تُعرف بقرية- أبي مغيرة- فابتدره بعد السلام، بعجز بيت لعمر بن أبي ربيعة قائلاً: «أهذا المغيريُّ الذي كان يذكر؟» وفي أثناء حفل أُقيم تحت إشرافه في مدرسة النجاة وهو يتجوّل بين المدعوين يلاطفهم ويرحّب بهم، وقد جلب انتباهه جلوس أحد ذوي العلم في مكانٍ مُنزوٍ لم يكد يتبيّنه حتى حيّاه مُستغرباً عدم الانتباه إليه، فابتدره بعجز بيت للمتنبي قائلاً: «ومن شدة الظهور الخفاء» كما كان متواضعاً تواضع العلماء، حلو الشمائل، محباً لشيخه، مخلصاً له.

(١) لم يكن سفر الشيخ الشنقيطي إلى الكويت أوّل مرة لظروف طارئة، بل بدعوة من السيد فرحان الفهد الخالد رئيس لجنة مؤسسي الجمعية الخيرية في الكويت سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م، وتقدّم بسط ذلك في الصفحة ١٠٣.

يجب فتح مدارس تربي الناشئة تربية صالحة فبذر الفكرة في الكويت فاستجيب له وبإذن من أميرها الشيخ مبارك الصباح وبمساعدته فتحت أول مدرسة في الكويت سموها المباركية وأثثوها، واستمر الشيخ هناك على وعظه وإرشاده حتى سنة ١٣٣٢هـ حين وقعت الحرب العامة[١] واعتزمت انكلترا على احتلال البصرة، وكان الشيخ مبارك أمير الكويت يناصرهم، ويحبّذ سياستهم، ولكن الشيخ رحمه الله تعالى، كان يندد بسياسة الانكليز، ويكشف عن مخازيها، ويحرض عليهم الناس في مجالس وعظه، فأغضب ذلك الشيخ مبارك وأوعز اليه بمغادرة الكويت. فغادره الى الزبير[٢] وفيها التحق الشيخ - رحمه الله - بالمجاهدين مع الجيش التركي، ولما انسحب الى سوق الشيوخ والناصرية انسحب معه، ولما عاود الأتراك والمجاهدون الكرة جرت موقعة الشعيبة ثلاثة أيام اندحر على أثرها الجيش التركي[٣] فلما يئس الشيخ من الانتصار توجه

---

(١) لم يدع الشيخ الشنقيطي لفتح المدرسة المباركية في الكويت ولم يشارك في تأسيسها أو التدريس فيها، بل كانت قد افتتحت سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، أي قبل وصول الشنقيطي إلى الكويت بسنة واحدة «راجع الصفحة ١٠٣» تفصيلاً لذلك.

(٢) غادر الشنقيطي الكويت في عهد مبارك سنة ١٣٣٣هـ. «راجع الصفحة ١٠٩ وما بعدها لتفصيل الحادث».

(٣) يبدو أن الشيخ ناصر الأحمد ليس على علم تام بتواريخ المعارك الحربية أثناء تقدّم القوات البريطانية في البصرة والعراق، وذلك لأن الجيش التركي لم ينسحب إلى سوق الشيوخ إلا بعد سقوط الشعيبة في ٢٠/جمادى الآخرة/سنة ١٣٣٣هـ- ١٢/نيسان/١٩١٥م، ولم ينسحب الجيش العثماني بعد سقوط البصرة إلاّ إلى القرنة، ولكنه بعد سقوط الشعيبة =

الى المملكة السعودية[1] وحج في تلك السنة ١٣٣٣ هـ[2] وبعده رجع الى عنيزة ، وبقي أكثر من سنتين يعظ ويدرس، ومن تلامذته هناك الشيخ عبد الرحمن السعدي، ثم حصل ما اضطره الى مغادرة عنيزة فيمم جهة الكويت وكان قد توفي الشيخ مبارك وتولى بعده ابنه الشيخ جابر فرحب به[3] وبعد فترة توفي الشيخ جابر فتولى أخوه الشيخ سالم، وكان صالحاً ولكن أعداء الشيخ الشنقيطي من الحسد الجامدين، أوغروا صدر الأمير عليه، فأمره بمفارقة الكويت، ففارقها الى الزبير واعتزم الاقامة فيه، فباشر الوعظ والارشاد، فانتفع به كثيرون، ثم بدأ يحث على تشكيل مدرسة للعلوم الدينية والدنيوية تربي الجيل الصاعد تربية قوية

= استمر بالتراجع ، حيث سقطت القرنة في ٢٠/محرّم/١٣٣٣هـ، أي قبل معركة الشعيبة، وبعد سقوط الشعيبة سقطت العمارة في ٢/رجب/من نفس السنة، وفي أول رمضان سقط سوق الشيوخ من السنة نفسها . «راجع الصفحة ١٢٤ وما بعدها » و « فصول من تاريخ العراق القريب: تعريب جعفر الخياط ».

(١) لقد تَخَطّى الشيخ ناصر وصول الشنقيطي إلى بغداد وإقامته فيها قبل توجهه إلى المملكة السعودية «راجع الصفحة ١٤٢ ».

(٢) هذا صحيح ومطابق لما ورد في أصل مذكراته «راجع الصفحة ٢٤٠ والصفحة ١٤٤ ».

(٣) لم يرد أنه وصل الكويت في إمارة الشيخ جابر عائداً من المملكة السعودية بل كان ذلك زمن إمارة الشيخ سالم بن مبارك الذي تولى الحكم بعد أخيه جابر سنة ١٣٣٥هـ. أما الشنقيطي فلم يصل الكويت من السعودية إلاّ في شعبان سنة ١٣٣٧هـ «راجع تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد: ج١، ص٢٠٤ ». أما سبب جفاء الشيخ سالم للشيخ الشنقيطي ومناصبته العداء الشديد فقد فصلنا أسبابه في الصفحة ١٥٧ وما بعدها.

سامية، وبعد جهود متواصلة وطرق شتى الأبواب لإيقاظ الهمم الخامدة، وتذليل جميع العقبات الرسمية وغير الرسمية استطاع - رحمه الله - بمساعدة المخلصين من أهل الزبير وعلمائها المخلصين فتشكلت لجنة مؤلفة من:

السيد عبد الوهاب الطباطبائي، والشيخ محمد العسافي، وسليمان السويدان، وناصر الأحمد، والشيخ محمد العوجان، والشيخ محمد السند، والشيخ محمد الشنقيطي[1] فأخذت هذه اللجنة، أو في الحقيقة تكونت منها لجنتان: للمناهج، وللتأسيس. حتى حصلت اللجنة على إذن من وزارة الداخلية في ٢١/ اكتوبر/ سنة ١٩٢٢م. كما جاء الإذن أيضاً من وزارة المعارف في ٨/ كانون الثاني/ ١٩٢٣م فسميت مدرسة النجاة. وقد أعان على إنشائها كثير من المحسنين والتجار ومحبي العلم والدين بفضل مساعي الشيخ محمد أمين الشنقيطي وصحبه الكرام، وما زالت المدرسة تؤدي رسالتها الثقافية والدينية والقومية بروح سامية عالية ثابتة، فتخرج منها طلاب يشار اليهم بالبنان أمثال الدكتورين الأخوين عبد الله وعبد العزيز البسام نجلا ابراهيم البسام[2] والمحامي عبد الرزاق الحمود، والشيخ ناصر الابراهيم الأحمد مدير مدرسة النجاة الآن. والاستاذ أحمد الحمد الصالح مدير غرفة التجارة في البصرة؛ ومعظم الاساتذة والدكاترة الزبيريين.

---

(١) ويضاف لهم: الحاج عبد المحسن المهيدب، والحاج ابراهيم العبدالله البسّام، والحاج محمد العقيل، وداود البريكان.

(٢) هكذا في الأصل وأعتقد أنه أراد أن يقول: «نجلَي ابراهيم البسّام، وليس نجلا، كما ذكر».

وقد ازدهرت هذه المدرسة، وازدهت حتى طارت شهرتها في كثير من البلاد العربية المجاورة، مثل الكويت، والمملكة العربية السعودية، كل ذلك بفضل جهود الشيخ محمد الشنقيطي. حتى أصيب بقرحة في أعلى فخذه أعجزت نطس الأطباء فتوفي - رحمه الله - في ضحوة يوم الجمعة ١٤/ جمادى الثانية/ ١٣٥١ هـ الموافق: ١٣/ تشرين الأول/ ١٩٣٢ م ودفن في مقبرة الحسن البصري رحمه الله تعالى، وقد أنجب ابنة تزوجها الشيخ تقي الدين الهلالي، وكان رحمه الله بعد تأسيس مدرسة النجاة للبنين سعى في تأسيس مدرسة للبنات فلقي تزمتاً وعنتاً كثيراً من العامة والمتعصبين، ممن يتحرجون باسم الدين، والدين أفسح من ذلك.

صفاته وأخلاقه:

كان رحمه الله عالماً فاضلاً، إماماً باللغة، عالماً بالشعر، يحفظ الدواوين السبعة[1] وكثيراً من شعر فحول الشعراء من جاهليين وإسلاميين كما كانت له اليد الطولى في علم الأنساب، ويروي كتب الصحاح في الحديث ويحدث بها، ويدرس علم أصول الحديث، وأصول الفقه.

أما خلقه فكان عظيماً، فهو كريم يؤثر على نفسه، لا يرد حاجة محتاج يستطيع قضاءها، ولا يمسك شيئاً سوى كتبه. حليم لا يستفزه جهل جاهل، شجاع لا تنال منه المصائب، ولا النوائب. رحب الصدر،

---

(١) ورد في الوسيط، وفي مذكرات الشيخ الشنقيطي الخطيّة أنهم الشعراء الستة وليس السبعة، وهم: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وعلقمة بن عبدة، وزهير بن أبي سُلمى، وطَرَفة بن العبد، وعنترة بن شدّاد، وربما أراد بقوله- السبعة- أصحاب المعلّقات على رواية من عدّهم سبعة، وقد تقدّم ذكر ذلك.

يتقبل البحث في أي موضوع. لا تأخذه في الله لومة لائم، يفهم الدين فهماً حقيقياً، من غير تزمت ولا تعصب.

ولم نعثر له على مؤلفات، الا ما ورد من شعره، وما اختصرناه هنا من تاريخ حياته بخط يده وإملائه، ويقع في سبعين صفحة، وقد أنجب ولداً اسمه يوسف، وبنتاً تزوجها الشيخ تقي الدين الهلالي - كما مر معنا - وله ابن آخر يدعى أمين».

والى هنا انتهى ما أورده الشيخ ناصر الأحمد من إكمال تاريخ حياة وسيرة شيخه الشيخ محمد أمين الشنقيطي. وبه ينتهي البحث آملين أن نكون قد استوعبناه من جميع أطرافه، مع علمنا بأن متابعة تاريخ حياة الشيخ الشنقيطي والإلمام بها لم تكن من السهولة واليسر بالأمر الذي يظن وذلك لعدة أسباب: منها صعوبة متابعة أسفاره وتحركاته، فهو دائب الحركة، كثير التنقل، سيما وقد وجد في ظروف صعبة، كثيرة الاضطراب، والمخاوف، والذي يتابع خط أسفاره ابتداء من شنقيط الى تنقله بين مدن المغرب كمراكش والصويرة والدار البيضاء، ورباط الفتح وطنجة، ثم دخوله مصر ومنها الى الحجاز فَيَصِل جدة ومكة ويعود الى جدة ثم الى رابغ فالمدينة المنورة، ويسافر بعد ذلك الى الهند ومنها الى عُمان فالبحرين فالاحساء، ثم يعود الى البحرين فالكويت فالزبير في العراق ثم يعود الى الكويت والى حيث يغادرها مكرهاً الى الزبير ثم يخفّ الى بغداد ويتركها الى السماوة فالمملكة العربية السعودية فمكة والمدينة ثم يعود الى السعودية ويتنقل بين بريدة وعنيزة، ثم يعود الى الديار المقدسة، والحجاز بمعية الشيخ أحمد الجابر ويعود بعدها الى القصيم في السعودية وبعد إعلان الهدنة يعرج على الكويت، ثم يغادرها

ثانية بالإكراه حيث يستقر في الزبير، فهذا الخط البياني المتعرج لأسفار وتنقلات الشيخ الشنقيطي حريٌّ بأن يتعب الباحث في متابعته.

هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فتعترض المحقق أسماء الكتب ومؤلفيها التي درسها في المغرب والحجاز والاحساء وهو ينوه بذكرها تنويهاً مقتضباً لا يكاد يفهم منه شيء الا بعد التقصي وطول المتابعة، وربما كانت هذه الكتب مشهورة في زمانه وفي البلد الذي حل فيه، أما اليوم فتكاد تكون مجهولة غامضة، سيما ومعظم المكتبات هنا تفتقر الى أمثال هذه الكتب المشهورة في الأندلس، وبلاد المغرب، وربما حتى ما كان منها في مكة والمدينة.

والشيء الآخر الذي يحتاج من الباحث الى جهد لا يستهان به من أجل مقارنة الاحداث، ومتابعة سيرة الشيخ بالنسبة لها، ما يذكره بعض المؤرخين من أحداث بالتاريخ الهجري فقط وبعضهم بالتاريخ الميلادي فقط، وحتى لو قدر للباحث أن يحول السنين الهجرية الى ميلادية، أو بالعكس، فهناك ما يحدث من اختلاف في الأشهر مما يجعل الحكم على الوقائع غير دقيق، كما أن اختلاف روايات المؤرخين، وعدم توخي الدقة لدى بعضهم يجعل الباحث يعيد النظر في حكمه على الأحداث مرات ومرات. والى غير ذلك مما ورد محرفاً بمذكرات الشيخ الشنقيطي بسبب عدم الدقة، أو الجهل في النقل. ولكنا مع هذا فلم نأل جهداً في التغلب على مثل هذه الصعاب، إضافة الى ما أوردناه من تحليل للأسباب الغامضة في تجافي بعض المسؤولين له، وعدم رغبتهم في احتمال صراحته مما أدى الى قلة راحته، ومطاردته، الشيء الذي تسبب عنه قلة استقراره في بلد واحد، وكثرة أسفاره، وضربه في البلاد. عدا ما

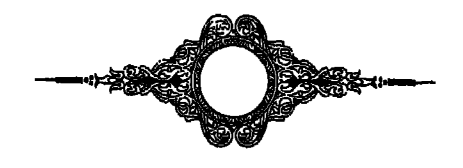
أثير حوله من ضجيج حاسديه، وجمود مناوئيه، وجهل الناس في سنين مليئة بالحروب، والخوف، والفوضى. ولكننا نعود فنقول لقد خرج من بين كل هذه المصاعب ناصع الجبين، مستقيماً على الحق، فلم يوارب، ولم يداهن، ولم يمار، ولم يحد عن طريق الدين الصحيح، والايمان القويم، فهو خالد في سيرته، ومدرسته، وطلابه، يرحمه الله.

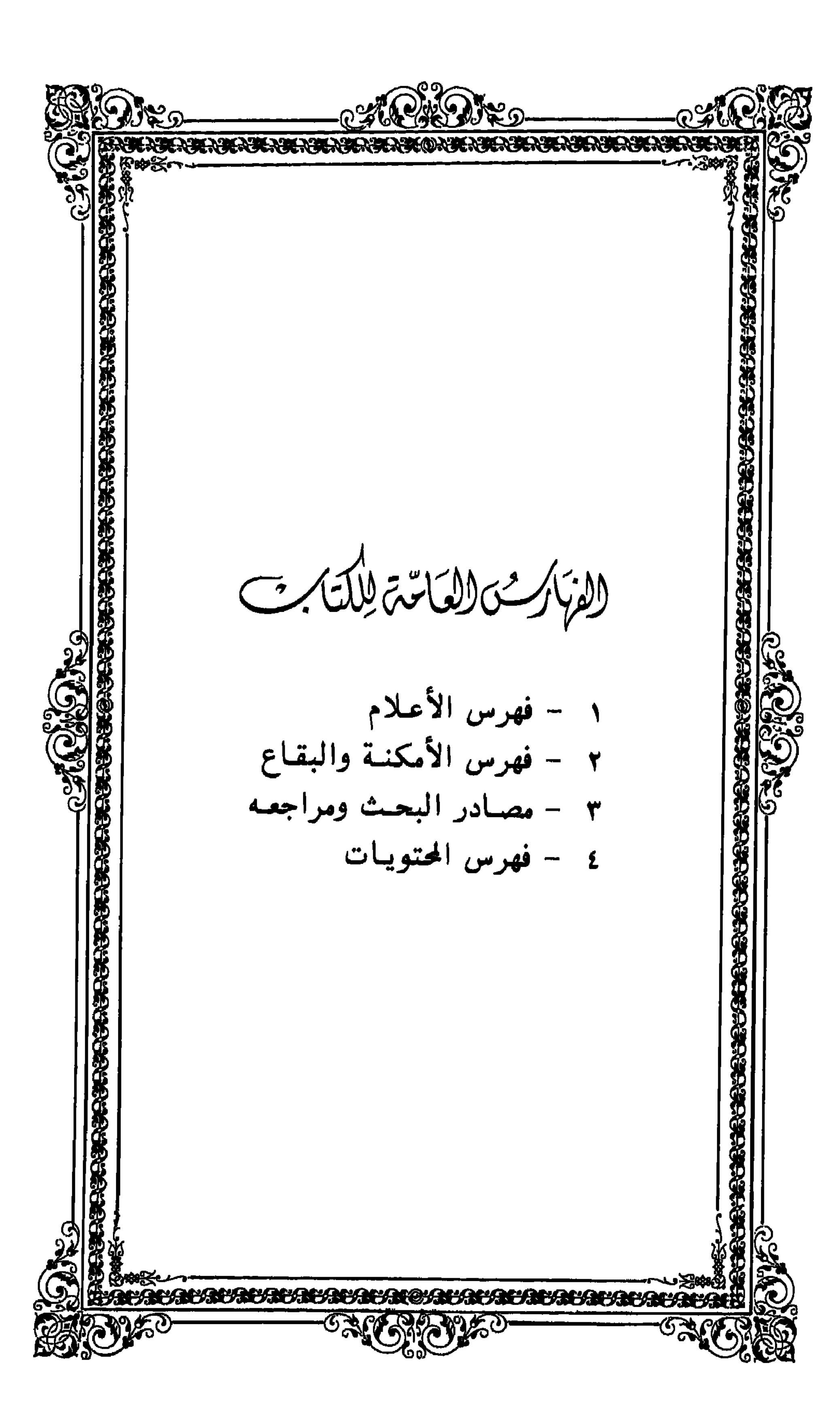
تم الفراغ منه في الحادي عشر من جمادى الآخرة
سنة ١٣٩٨هـ- الثامن عشر من مايو (أيَّار) سنة ١٩٧٨م.
بغداد - الأعظمية.

ولا يفوتني بعد هذا أن أنوه بذكر وشكر أولئك الفضلاء الذين ساهموا في إسداء المعونة لي في هذا الجهد المتواضع، خدمة للحقيقة والعلم، ومن هؤلاء: المرحومين: الاستاذ أحمد حمد الصالح الذي قدم لي في حينه مذكرات الشيخ الشنقيطي المنقولة عن مذكراته الخطية - وبخط يده - كما تقدم التنويه بذلك - وسمح لي بنقل ما أشاء منها. والشيخ محمد العسافي الذي أمدني بمعلومات قيمة عن فترة إقامة الشنقيطي في بغداد وفي بريدة وعنيزة، وما تخلل ذلك من أخبار وأحداث، سبق أن دوناها. وكذلك الشيخ ناصر الأحمد الذي تفضل بإكمال سيرة شيخه الى حين وفاته - رحمهما الله - مع سرد الشيء الكثير من سيرته الشخصية، وما جرى له من أحداث، ثم الشيخ كمال الدين الطائي وما ذكره من تعريف بالمحدث محمد محمود التندغي نزيل العراق في حينه، وما أفاض عنه من معلومات، وما أكده عن ذلك الشيخ عبد الوهاب عبد القادر إمام جامع حسن بك، والحاج عبد الرزاق بن حسين المؤذن في جامع الإمام أبي حنيفة، وما قدمه من معلومات المرحوم - عبد الله محمد الشبل الذي سبق التعريف به.

ومن الأحياء : الشيخ عبد الله محمد الرابح وما ذكره عن مسقط رأس الشيخ الشنقيطي وشيء من تاريخ وفاة الشيخ شعيب الدكالي. ثم ابنة الشيخ الشنقيطي السيدة عائشة ومساعدتها في تقديم صورة والدها وبعض المعلومات عن سيرته الشخصية ونظرته الاسلامية لتربية الأولاد ، وكرم أخلاقه، وما لقيته الأسرة من كرم الكويتيين لهم أثناء هجرة والدها في ظروف الحرب القاسية، أما ابنه يوسف فهو الذي أمدني بالمعلومات القيمة عن أولاد الشيخ ومصاهراته... ثم ان حفيدته خولة ابنة الدكتور أمين الهلالي قدمت لي مجلة مرآة الأمة الكويتية، إحدى مصادر البحث هذا.

والحاج عبد السلام الحاج ناصر المناصير الذي كشف القناع عن سبب حادث مقتل عميد أسرتهم الحاج منصور السلمان من قبل الشيخ خزعل ، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الله البرزنجي المدرّس المساعد بكلّية الإمام الأعظم وإمام جامع صالح أفندي بالأعظمية الذي قدّم لي العون في تراجم بعض الأعلام الوارد ذكرهم في البحث.





الفهارس العامة للكتاب

﴿فهرست الأعلام﴾

- أ -

– ب –

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ش -

- ص -

- ض -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

– ل –

– م –

- ن -

*** ***
** **
* *
*

-﴿فهرســت الأمكـنة والبقـاع﴾-

- أ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ل -

- م -

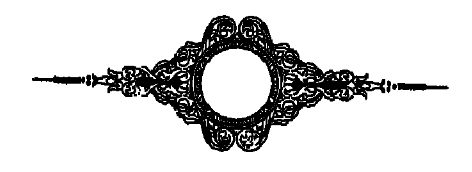
* * * * * *

مصادر البحث ومراجعه

١ - القرآن الكريم
٢ - تنوير الحوالك- شرح على موطأ مالك / لجلال الدين السيوطي.
٣ - شرح شمايل الترمذي- لإبراهيم البيجوري.
٤ - الإصابة في تمييز الصحابة- لابن حجر العسقلاني.
٥ - بلوغ المرام في أدلّة الأحكام- لابن حجر العسقلاني.
٦ - الآلوسي مفسّراً- لمحسن عبد الحميد.
٧ - إنباه الرواة على أنباه النُّحاة- للقفطي.
٨ - المزهر- للسيوطي.
٩ - الشاطبية- للقاسم بن فيري الشاطبي.
١٠ - شرح البيقونية- لحمد بن خليفة النبهاني.
١١ - لب الألباب- للسيد محمد صالح آل السهروَردي.
١٢ - معجم الأدباء- لياقوت الحموي.
١٣ - معجم قبائل العرب- لعمر رضا كحّالة.
١٤ - معجم البلدان- لياقوت الحموي.
١٥ - التقييد والإيضاح في شرح مقدمة ابن الصلاح- تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.
١٦ - ألفيّة العراقي في مصطلح الحديث- لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين- الملقب بالعراقي.
١٧ - مغني اللبيب لابن هشام- شرح الشيخ محمد الأمير.
١٨ - مقامات الحريري- للقاسم بن علي الحريري البصري.
١٩ - فتوح البلدان- للبلاذري.

٢٠ - شرح الشاطبية- لعلي محمد الضبّاع.
٢١ - مصرع التصوُّف للبقاعي- تحقيق عبد الرحمن الوكيل.
٢٢ - تاريخ الأمم والملوك- لمحمد بن جرير الطبري.
٢٣ - مروج الذهب- للمسعودي.
٢٤ - تاريخ الكويت- لعبد العزيز الرشيد.
٢٥ - ملوك العرب- لأمين الريحاني.
٢٦ - فوات الوفيات- لمحمد بن شاكر الكُتُبي.
٢٧ - ديوان الشريف الرضي.
٢٨ - تاريخ الوزارات العراقية- للسيد عبد الرزاق الحسني.
٢٩ - تاريخ العراق بين احتلالين- لعباس العزاوي.
٣٠ - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث- لعلي الوردي.
٣١ - في غمرة النضال- لسليمان فَيضي.
٣٢ - ابن تيمية- لمحمد أبي زهرة.
٣٣ - التحفة النبهانية- لمحمد بن خليفة النبهاني.
٣٤ - عنوان المجد- لإبراهيم فصيح الحيدري.
٣٥ - موريتانية الحديثة- لمحمد يوسف مقلد.
٣٦ - جمهورية موريتانية الإسلامية- لعبد الباري عبد الرزاق النجم.
٣٧ - الوسيط في أدباء شنقيط- للسيد محمد أمين الشنقيطي.
٣٨ - آثار آل الوتري العلمية- لمنير محمود الوتري.
٣٩ - أعيان البصرة- لعبدالله باش أعيان العباسي- تحقيق الشيخ جلال الحنفي.
٤٠ - الأعلام- لخير الدين الزركلي.
٤١ - وُلاة البصرة ومُتسلّموها- لإبراهيم ابن الغملاس.
٤٢ - فصول من تاريخ العراق القريب- تعريب جعفر خياط- كتبته بالانكليزية- المس بيل-.
٤٣ - أيام فلبي في العراق- ترجمة جعفر خياط.
٤٤ - عبد الله فلبي- لخيري حمّاد.

٤٥- شخصيات عراقية- لخيري أمين العمري.
٤٦- حقيقة البابية والبهائية- لمحسن عبد الحميد.
٤٧- من الثورة العربية الكبرى- مذكرات إبراهيم الراوي.
٤٨- شط العرب- لمحمد طارق الكاتب.
٤٩- النصرة في أخبار البصرة- للشيخ أحمد نور- تحقيق يوسف عز الدين.
٥٠- أحوال البصرة -لفصيح الحيدري- منشورات علي البصري.
٥١- مذكرات الشنقيطي الخطية- بقلم المترجم.
٥٢- تكملة مذكرات الشنقيطي- بقلم تلميذه ناصر الأحمد.
٥٣- مذكرات محمد النبهاني الخطية.
٥٤- رسالة في الحسبة- لمحمد أبو الأجفان.
٥٥- جمعية النجاة الأهلية- نشرة للتعريف بها.
٥٦- مجلّة العربي الكويتية- عبدالله عنان.
٥٧- مجلّة مرآة الأُمة الكويتية.
٥٨- الأمثال الشعبية في البصرة- لعبد اللطيف الدليشي.
٥٩- روايات شفهية من معاصري الشنقيطي وذوي قرابته.
٦٠- رحلة ابن بطوطة.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة





[رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٣٤ لسنة ١٩٨١]





